obeikandl.com

السلطان سليم الأول

Copyright©2016 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تحرير

إسماعيل قيار

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2016/3365

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-012-1

رقم النشر

1043

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

obeikandl.com

السُّلطان
سَليم الأوَّل

تأليف

فاتح آقْجه (*Fatih Akçe*)

ترجمة

أحمد كمال

obeikandl.com

السلطان سليم الأوّل

فهرس

السلطان سليم الأوّل ٧
مولدُهُ وأيّام إمارته في "أَمَاسْيَا" ٩
الأمير سليم يزور جدّه السلطان محمد الفاتح ١٣
الأمير الشاب يحكم "طِرَابْزُونْ" ١٧
الأب والابن في ساحة المعركة ٢٥
اقتتال العثمانيين ٣٣
وصول الأمير سليم إلى إسطنبول ٤١
الحملة على الشرقِ ٤٩
التطوُّراتُ في الغربِ والاستعدادُ للغَزْوِ ٦١
على شفا الحرب ٧١
معركة "جَالْدِيرَانْ" الطاحنة ٨١
تكتيكاتٌ حربيّةٌ جديدةٌ ٨٧
ما بعدَ النصر ٩٥
أين سيقضون فصل الشتاء؟ ١٠١
على مشارفِ قلعةِ "كَمَاهْ" ١٠٧
ضمُّ العشائرِ الكرديّة المحلّيّة إلى الدولة العثمانيّة ١١١
الصراع مع إمارة "ذي القادر" التركمانيّة ١١٩
نحو غزوة جديدة ١٢٧
السلطان سليم في طريقه إلى مصر ١٣١
السلطان سليم يخرجُ في غزوةٍ جديدة ١٣٧
معركة "مرج دابق" ١٤٣
ما بعد معركة "مرج دابق" ١٤٩

obeikandl.com

السلطان سليم في "دمشق" ١٥٣
هل سيغزو السلطان سليم مصر؟ ١٥٥
الحربُ في "غزة" ١٦٧
السلطان سليم في القدس الشريف ١٦٩
من القدس إلى القاهرة ١٧٣
العثمانيّون ضدّ شراكسة "مصر" ١٧٧
معركة الريدانية ١٨١
السلطان سليم في القاهرة ١٨٩
عودة "طومان باي" إلى القاهرة ١٩٣
القبضُ على "طومان باي" ١٩٧
حوارُ السلطان "سليم الأول" و"طومان باي" ٢٠١
السلطان سليم يواجه خطر الموت ٢٠٥
العودةُ إلى الأناضول ٢١٣
السنوات الأخيرة ٢١٧
الرحلة الأخيرةُ إلى العالَم الأبديّ ٢٢٧
ما تركه السلطان سليم الأول ٢٣٣
قيادته للدولة ٢٣٥
بعض المعلومات المغلوطة عن السلطان سليم ٢٤٥
المصادر ٢٥١

obeikandl.com

السلطان سليم الأوّل

بشّر بكاء طفل رضيع دوّى في أركان قصر الإمارة عام (١٤٧٠م) بمولد أصغر أبناء الأمير "بايزيد الثاني".

لم يكن أحد يتوقّع أو يُخمّن أن يصيرَ هذا الأميرُ الشابُّ سلطانًا في قابلِ الأيام مع وجود إخوةٍ أكبر منه، كما لم يضعْ أحدٌ في حسبانِهِ أن يشهدَ التاريخُ العثمانيُّ نقطةَ تحوُّلٍ جذريّةٍ بِتَولّيه العرش، وذلك بالرغم من أنه لم يحكم الدولة سوى ثماني سنوات فيما بين عامي (١٥١٢-١٥٢٠م)، أي ما تعادل نسبته ١,٢٨٪ من تاريخ الدولة العثمانية الممتد على مدار ستّمائة واثنين وعشرين عامًا، وعلى الرغم من أن أهل "أَمَاسْيَا (*Amasya*)" لم يكونوا على علمٍ بأنهم شهدوا مولد سلطانٍ يؤثّر في التاريخ العثمانيّ فحسب، بل سيلعبُ دورًا فاعلًا كذلك في مجرى التاريخ العالميّ، فإن العالم بأسرِهِ كان سيتعرَّفُ إلى ذلك السلطان عقبَ مولدِهِ باثنين وأربعين عامًا عندما يتولّى الحكمَ عام (١٥١٢م).

هو أول سلطان أدرك حجم الخطرِ القادم من الشرق، كما يعدّ هو السلطان الذي أكسبَ الدولةَ العثمانيَّةَ أكبرَ مساحةٍ من الأراضي خلال أقصر مدة زمنيّة، كما تعرَّفت الدولة العثمانية في عهده إلى القارة الجديدة (إفريقيا)، وتحمل مسؤولية إعلاء كلمة الله وصار قدوةَ جميع السلاطين العثمانيّينَ الذين أتوا من بعده.

وكان ذلك السلطان رجلَ دولةٍ من الطراز الرفيعِ، فلم يكن يغادر الأراضي التي دخلها إلا بعدَ أن يُرَسّخ نظامَه بها، وكان ذا شخصيَّةٍ مثالية وعمليّة تسعى دومًا إلى تحقيق أحلامها، كما أنه كان واحدًا من أكثر

السلاطين العثمانيين سيطرةً على الجيش، ويتمتَّعُ بعقليَّةٍ فذّةٍ استطاعَتْ تشكيل أَبْرَعِ كادرِ دولةٍ في التاريخ العثماني.

يشعر العثمانيُّون تجاهه باحترامٍ وإعجابٍ كبيرين، واسمه "سليم"، لكن الجميع يُلْحِقُ باسمِهِ لقبَ "ياووز"[١] إذ أطلقوا عليه لقبَ "السلطان سليم ياووز خان".

لقد ترك السلطان سليم الأول لمن بَعدَه أفقًا جديدًا ورؤيةً سياسيّةً واسعةً وعميقةً، فلم يملأْ أيُّ سلطانٍ خَلَفَه خزينةَ الدولة كما ملأها هو، وأعتقد أن هذا دليلٌ كافٍ على أن السلاطين الذين خلفوه لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أفقه الواسع والشامل.

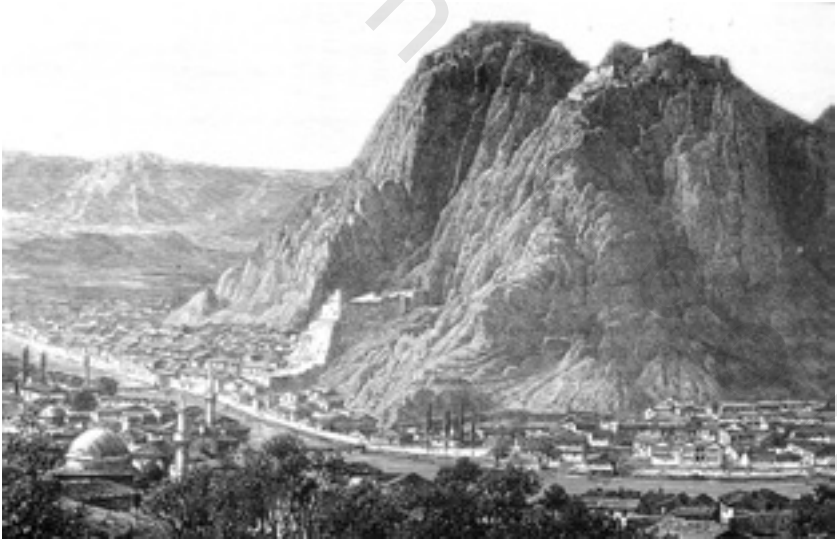

مدينة "أَمَاسْيَا (*Amasya*)"

(١) كلمة "**ياووز** (*Yavuz*)" تعني في اللغة التركية: القويّ والصُّلب والجيّد والجميل والبارع؛ وكانت تعني قديمًا: السيّئ والرديء. (**المترجم**)

مولدُهُ وأيّام إمارته في "أَمَاسْيَا"

وُلِدَ الأميرُ سليم عام (١٤٧٠م) في مدينة "أَمَاسْيَا" الواقعة شمالي الأناضول، حيث كان والده الأمير بايزيد -السلطان بايزيد الثاني فيما بعد- واليًا عليها... أمُّهُ هي "عائشة جُلبهار سلطان" بنت "علاء الدولة بُوزْكُورْت بَكْ (*Alaüddevle Bozkurt Bey*)" المنحدِرِ من سلالة "ذي القادر"[٢] التركمانيّة، وهي سيّدةٌ تركيّةٌ مُسلِمَةٌ، وليست من طائفة "الدّوشيرمه"[٣] كما هو مُعْتَقَدٌ.

تُعْتَبَرُ المدينةُ الصغيرةُ "أَمَاسْيَا" إمارةً تأسِرُ الإنسان وتسلبُ لبَّه بسحرها الطبيعي الخلّاب... ولقد قضى الأمير الصغيرُ طفولتَه في مدينةِ الأُمَراءِ الجذَّابةِ هذه التي تحفّها الجبال وتتعانق حولَها، وتتدفق فيها مياه نهر "يَشِيلْ إِرمَاقْ (*Yeşilırmak*)"، فهي بمثابةِ قلعةٍ طبيعيّةٍ محفوفةٍ بالجبال من جميع الجوانب.

لقد تلقّى الأمير سليم في قصر "أَمَاسْيَا" -كسائر إخوته من الأمراء- تعليمًا جيّدًا منذ نعومةِ أظفارِهِ، كما عيّن والده "بايزيد الثاني" أساتذةً خصوصيّين لابنه سليم لِمَا رأى فيه من ذكاء وقدرات عالية منذُ طفولَتِهِ.

---

(٢) "**ذو القادر**": هم من أمراء الأناضول الذين حكموا خلال أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ظهرت هذه الإمارة بعد اضمحلال قوة سلاجقة الروم، امتدت سيطرة هذه الإمارة في أوجها من منطقة تمتد من "كيرشهر (*Kırşehir*)" إلى "الموصل"، ومع ازدياد قوة العثمانيين أصبحت هذه الإمارة تشكل منطقة عازلة ما بين العثمانيين والمماليك، وقد ضُمَّت إلى الدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، حافظت هذه الإمارة على علاقة طيبة مع العثمانيين عن طريق الزواج، حيث تزوجت العديد من أميرات هذه الإمارة بأمراء وسلاطين الدولة العثمانية. (**المترجم**)

(٣) "**الدّوشيرمه** (*devşirme*)": هي الممارسة الذي بموجبها كانت الدولة العثمانيّة تجنّد أولادًا من عائلات مسيحيّة، يتمُّ تحويلهم بعد ذلك إلى الإسلام ويدرَّبون كجنودٍ إنكشاريّة، نبعتْ هذه الممارسةُ من الرغبة بإنشاءِ طبقةٍ عليا من المحاربين تكونُ مواليةً فقط للسلطان، لا للنبلاء العثمانيين، قِسمٌ من الشُّبّان دُرِّبوا للعملِ في الوظائف الإداريّة للدولة. (**المترجم**)

openkalam.com

ولقد قدّمت "أَمَاسْيَا" -مدينةُ العلم- فرصةً متميّزَةً للأمير سليم ليحصلَ على تعليمٍ جيّدٍ، فلم يكن يشتغلُ بشيءٍ في هذه المدينة سوى بالتحصيل العلميّ والخروجِ في جولات الصيد، وكان يقوم بذلك على أكمل وجه، وكانت "أَمَاسْيَا" -الواقعة وسط الجبال- تُشَجِّعُ ضيوفَ الأسرةِ الحاكمة ليعبروا هذه العوائق كي يصلوا إلى المدينة ذات الطبيعة الخلابة.

ساهم التحصيل العلمي الذي خضع له في "أَمَاسْيَا" في إكسابه هواية القراءة، فلم يَفْنَ عشقه للكتب والمكتبات والقراءة حتى آخر أيام حياتِهِ، وهو يُعْتَبَرُ من أكثرِ سلاطينِ آلِ عثمان اهتمامًا بالقراءة؛ إذ كان مولعًا بها لدرجة أنَّ مَن حوله كانوا يُصابُون بالفَزَعِ عند ضياعِ كتابٍ من كُتُبِهِ.

ولأن "أَمَاسْيَا" كانت -في الوقت نفسه- مدينة حدودية في ثمانينات القرن الخامس عشر الميلادي، كان من يحكمها من الأمراء يرى في نفسه المرشَّحَ الأقوى لِخِلافَةِ السلطانِ على العرش، والسبب الرئيس في ذلك هو وقوع المدينة على الخطّ الحدوديّ للدولة، وأن النجاحات التي سيحقِّقُها الأمير نتيجة كفاحه الذي يبدأ من هذه المدينة ستضمنُ له الاعترافَ بالسيادة وتحقيقَ الذات، هذا فضلًا عن أن السلاطين "محمد الأول شلبي (*Çelebi*)" و"مراد الثاني" و"محمد الثاني (الفاتح)" تولّوا الإمارةَ في "أَمَاسْيَا"، ثم تقلَّدوا منصب السلطان، كما شهد التاريخُ تولِّي السلطان بايزيد الثاني وأبنائه ومصطفى بن السلطان سليمان القانوني مناصبَ بهذه المدينة.

لقد فقدت "أَمَاسْيَا" أهميتها بالنسبة للدولة العثمانية عقب الحادثة التي تسبب بها الأمير بايزيد الابن الآخر للسلطان سليمان القانوني، وكانت المدينة قد تحولت إلى مركز ثقافي بفضل هذه الخصائص وارتباطها بالأسرة العثمانية.

كان الأمير محمد شلبي (السلطان محمد الأول فيما بعد) قد تولَّى إدارة مدينة "أَمَاسْيَا" التي ضمَّها والدُهُ السلطان "بايزيد الأوّل" إلى أراضي دولَتِهِ عام (١٣٩٨م)، وعقب سقوطِ "بايزيد الأوّل" أسيرًا في يدِ القائد التتاري "تيمور لنك" في معركة "أَنْقَرَه (*Ankara*)" عام (١٤٠٢م)، انسحبَ محمد شلبي -الذي شاركَ في الحرب إلى جانب والِدِه- بقوَّاتِهِ صوبَ "أَمَاسْيَا" التي تُعتَبَرُ قلعةً طبيعيّةً، حتى إنه استغلَّ المدينة كقاعدةٍ لتحرُّكاتِهِ ضدَّ أخويه "عيسى" و"سليمان"، وبعد ذلك اكْتَسَبَت المدينةُ أهمّيّةً كبيرةً لكونِها مركزًا إستراتيجيًّا على الحدود الشرقيّة للعثمانيّين حتى نهاية القرن السادس عشر، وكان السلطان سليم الأول قد زار المدينة التي قضى بها طفولَتَهُ عقب النصر الذي حققه في موقعة "جَالْدِيرَانْ (*Çaldıran*)" ضدَّ القوّات الصفويّة عام (١٥١٤م)، وقضى بها فصل الشتاء.

obeikandl.com

الأمير سليم يزور جدّه السلطان محمد الفاتح

كانت زيارة عاصمة الدولة هي أبرز الأحداث التي أثَّرتْ في الأمير سليم بينما كان في العاشرة من عمره؛ إذ استدعاه جدُّهُ السلطان محمد الفاتح برفقةِ أشِقَّائِهِ الأكبر سنًا من أجل مراسم الختان، فسافَرَ من "أَمَاسْيَا" إلى إسطنبول مع خمسةٍ من إِخْوَتِهِ وأحدِ أبناءِ عمومتِهِ، وكانت هذه هي الزيارة الأولى له إلى إسطنبول وقصر "طُوبْ قَابِي (*Topkapı*)" والباب العالي.

لقد حَفَرَتْ مدينةُ إسطنبول -المدينة الكبرى مقارنةً بأَمَاسْيَا- صورةً لها في عقلِ الطفلِ سليم، ففي الوقت الذي يمرُّ فيه نهرٌ من وسطِ "أَمَاسْيَا"، يقسم مضيق البوسفور إسطنبول نصفين، وبينما أُسِّسَتْ "أَمَاسْيَا" وسطَ مجموعةٍ من الجبال؛ بُنِيَتْ إسطنبول فوقَ سبع تِلال.

نقلَتْ العربات التي تجرُّها الخيولُ الأمراءَ من "أَمَاسْيَا" إلى إسطنبول مرورًا بِمُدُنِ وسطِ الأناضول، ووصلَ الأمير سليم برفقةِ أشقَّائِهِ إلى العاصمة لمقابلة جدِّهم الفاتح، ثم خضع جميعُهم لعمليَّةِ الخِتان في القصر.

حينها شعر الفاتح بسعادةٍ غامرةٍ للقاءِ أحفادِهِ، وبدأَ يهتمُّ بهم عن كثبٍ، وسألهم عما إذا كانوا يحبونه هو أكثر أَو أنهم يحبون آباءهم أكثر، فلم يقل أحد منهم إنه يحب والده أكثر سوى الأمير أحمد، وأما سليم فكان يفكِّرُ بشكلٍ مختلفٍ؛ إذ أخبره بأنه يحب جدَّهُ أكثرَ من أبيه، ولهذا أحبَّ السلطان الفاتح[٤] هذا الأمير الصغير الذكي، وأقعده في حجرِهِ مرارًا، وتبادَلَ معه أطرافَ الحديث.

---

(٤) لمزيد من المعلومات عن السلطان محمد الفاتح انظر: "آيْتَاجْ أُوزْكَانْ (*Aytaç Özkan*)": **السلطان محمد الفاتح**، دار النيل- القاهرة (٢٠١٥م). **(الناشر)**

كان الفاتـح يتمتَّـعُ بمكانـةٍ كبيـرةٍ لـدى حفيدِهِ الأميـرِ البالِـغِ مـن العمرِ عشر سنوات، ولقد لعبَ تعرُّفُ سليم إليه في طفولَتِهِ دورًا محوريًّا في تغييرِ حياتِهِ بالكامل.

وخلال سنوات سلطَنتهِ عُرِضَتْ أمامه صورةٌ لجدِّهِ الفاتح، فلم يُعْجَبْ بالصورة، وقال:

"أرادَ صاحـبُ الصـورة تصويرَ جدي الفاتح رحمه الله، لكنه فشـلَ في ذلك، وقد كان جدِّي قد أجلسني في طفولتي على ركبتيه، ولهذا ما زلتُ أتذكَّرُ شـكلَ وجهِهِ، وكان أنفُهُ يُشـبِهُ أنفَ الصقر، ولهذا لم يستطـع هذا الرسام رسمه بشكل صحيح".

وكان هذا اللقاء هو الأول والأخير بين السـلطان الفاتح وحفيده سـليم الذي عاد بعد هذا اللقاء إلى "أَمَاسْيَا"، فيما توفي جدُّه بعد ذلك بعامٍ واحدٍ عقب خروجِه في إحدى غزواته.

وكانـت هنـاكَ عـادةٌ سـائدةٌ في تلـك الحقبـة أن يُرْسَـلَ الأُمـراءُ إلى السـناجِقِ كَـوُلاةٍ بعـد أن يخضعـوا لِعَمَلِيَّةِ الخِتان، وقد مُنح إخوةُ سليم الأكبـر منه سـناجق، فيما أُرسِـلَ هو إلى جوار أبيه لأنه أصغرهم سنًّا.

السلطان محمد الفاتح

في الوقـت الـذي واصـل فيـه الأمير سـليم تعليمه في "أَمَاسْيَا" في انتظـار أن يُمنَـحَ سـنجقًا ليحكمَـه؛ جاء خبرُ وفاةِ جدِّهِ السلطان الفاتـح،

openkandil.com

وبعدها اعتلى والدُهُ "بايزيد الثاني" عرشَ الدولةِ العليّة، وانتقلَ سليم مع والِدَتِه إلى إسطنبول، ولما بلغ سنَّ السابعة عشر، أرسله والدُه كحاكمٍ لِسنجق "طِرَابْزُونْ (*Trabzon*)" الذي فتحهُ جدُّهُ السلطان محمد الفاتح.

ويتَّفِقُ المؤرِّخون على أن مبدأ السيطرة على العالم الذي كان يسعى السلطان محمد الفاتح لتحقيقِهِ لم يظهرْ لدى ابنه السلطان "بايزيد الثاني"، بل ظهر لدى حفيدِه السلطان سليم.

والد السلطان سليم الأول "بايزيد الثاني"

لقد عقّدت واقعة "جيم سلطان" -التي حدثت في عهد والدِهِ- أمورَ الدولةِ في الداخِلِ والخارِجِ على حدٍّ سواء، كما أفضت هذه الواقعةُ إلى اقتناعِ الأمير سليم بوجوب جعلِ سلطةِ الدولة في يدِ شخصٍ واحدٍ، وتأكّده من أنه لا يمكن مشاركة السلطة مع أيّ شخصٍ أو مؤسَّسَةٍ بأيّ شكلٍ من الأشكال.

openkalem.com

مدينة "طِرَابْزُونْ (*Trabzon*)"

obeikan.com

الأمير الشاب يحكم "طِرَابْزُونْ"

خرجت قافلة الأمير سليم من إسطنبول قاصدةً "طِرَابْزُونْ" عام (١٤٨٧م)، فكانت والدتُهُ "عائشة جُلبهار خاتون" تجلس داخل إحدى العربات التي تجرُّها الخيول، بينما كان هو يعتلي أحد الجياد، وقد وصلت القافلة إلى "طِرَابْزُونْ" بعد أسابيع من السَّيرِ في الطرق الوعرة، وكان الأمير سليم يبلغ آنذاك سبعة عشر ربيعًا، وظلَّ سليم يحكمُ المدينة طيلة أربعةٍ وعشرين عامًا، وكان هو الأمير الثاني والأخير الذي يحكمها بعد أخيه الأكبر الأمير عبد الله.

لقد اكتسبَ الأميرُ سليم خلال الفترة الطويلة التي قضاها في "طِرَابْزُونْ" خبرات كبيرة أفادته خلال فترة سلطَنَتِهِ التي لم تدمْ طويلًا، وقد علّمَتْهُ "طِرَابْزُونْ" الكثيرَ من الأشياء التي لم يتعلَّمها سائرُ الأمراء الآخرين في ولايات كـ"أَمَاسْيَا" و"مَانِيسَا (*Manisa*)"، فتعلَّم شؤون البحر والسفن وتشكيل الأساطيل، كما تعلَّم أن السيطرة على البحار هي أهم شروطِ السيطرةِ على اليابسة... وسنرى كيف أن الأمير سيستفيد كثيرًا في المستقبل من تعلمه الخروج في الغزوات البحرية وما يحتاجه الأسطول.

لقد ساهَمَتْ إقامةُ الأمير سليم في "طِرَابْزُونْ" في أن يُتابِعَ الخطرَ الإيرانيَّ القادمَ من الشرق عن كثبٍ، ويتعرّف على تفاصيله..

وعندما كان الأمير سليم في "طِرَابْزُونْ" ساندَه هناك شخصان: والدته

وأستاذه "حلمي شلبي"، ولم يفارقْ سليم معلِّمَهُ شلبي أبدًا إلى أن وافَتْهُ المنيّة أثناءَ عودة السلطان من مصر، فَغَرِقَ السلطانُ في بحرٍ من الأحزان لِفراقِ معلّمه العزيز على قلبِهِ.

لقد اكتسَبَت شخصيّة الأمير سليم خلال فترة حكمه في "طِرَابْزُونْ" طباعًا حادَّةً وقويّة كَطِباعِ البحرِ الذي تُطِلُّ عليه المدينة ويضربُ الساحلَ بأمواجِهِ العاتية، ورَسَمَتْ هذه المدينة التي قضى فيها الأميرُ ربعَ قرنٍ عالمَهُ الروحيّ الخاصّ به، كما علّمَتْه المدينةُ شيئًا آخر، ألا وهو فنّ القدرة على صناعة الأشياء في ظل انعدام الإمكانيات؛ إذ الحاجةُ أمّ الاختراع.

أرسلَ الأميرُ سليم خِطابًا إلى والدِهِ السلطان يتحدَّثُ فيه عن قلَّةِ إمكانيّات "طِرَابْزُونْ" الزراعية، واشتكى من سوءِ الأحوالِ بعدما أخبرَهُ باستيرادهم الحبوبَ اللازمةَ من الخارج، وأنّ هذه الحبوب تأتي أحيانًا بحرًا وأحيانًا أخرى تنقل من "الجانب التركماني"، أي مدن "أَرْضُرُومْ (*Erzurum*)" و"أَرْزِينْجَانْ (*Erzincan*)" و"سِيوَاسْ (*Sivas*)"، ولَفَتَ الأميرُ في خطابِهِ انتباهَ السلطانِ إلى الأريحيّة التي يتصرف بها الأمراء الذين يحكمون سناجق ذات محاصيل زراعية وفيرة، وأشار إلى أنه لم يستطعْ أن يفهمَ الطلباتِ الكثيرة التي يُقدِّمها هؤلاء الأمراء للحصولِ على الدعم من العاصمة، وأضاف الأمير أنه يفي بالمسؤولية الملقاة على عاتِقِهِ تجاهَ الدولة ويقوم بها رغمَ قلّة الإمكانيّات المتاحة، وأنه يكافحُ الأعداءَ بكلِّ ما أوتي من قوّةٍ.

كانت "طِرَابْزُونْ" آخر مدينة أناضوليّة أُلْحِقَتْ بالأراضي العثمانيّة، وكانت المدينة تُعاني في تلك السنوات الأَمَرّين بسبب هجمات القراصنة الجورجيين الذين كانوا قد استقر بهم المقام عند سواحل القوقاز؛ إذ كانوا يهددون المدينة بين الحين والآخر، وعقب إسناد أمر حكم المدينة إلى

الأمير سليم، لم يتحمل هذه الهجمات التي يقودها الجورجيّون، فخرجَ في غزوةٍ ضدَّهم، كما قامَ ببعضِ المناورات العسكريّة المتنوّعة على طولِ الحدودِ بين الدَّولتين.

لقد حقق الأمير سليم نصرًا مؤزَّرًا في الغزوةِ التي خرجَ فيها ضدَّ الملك الجورجيّ، فلم يعد الجورجيُّون يجرُؤُون على الإبحارِ صوب "طِرَابْزُونْ" لمزاولة أنشطة القرصنةِ بها، كما دخلَ الأميرُ في صراعٍ مع الشراكسة النصارى الذين كانوا يَعْتَبِرُونَ أنفسَهم القوَّةَ العسكريَّةَ الأفضل، وأثبتَ للولاياتِ الشركسيّة من هو الأفضل بالفعل، وبدأ نجمُ الأمير سليم يعلو، واسمُهُ ينتشرُ ويشتهرُ بين الجنود.

وكان الأمير سليم يقضي أوقات فراغِهِ عندما كان يفرغ من شؤون الجيش والأسطول؛ بِصَقْلِ المجوهراتِ التي أصبَحَتْ عادةً لديه، كما انتقلَتْ هذه العادة إلى ابنِهِ الأمير سليمان.

ولقد تابعَ الأميرُ سليم -بينما كان في "طِرَابْزُونْ"- تطوُّراتِ الأحداثِ على الحدود الشرقية للدولة العثمانية، لا سيما ما كان تقوم به الإمارات الجورجية والشاه إسماعيل الصفوي الذي شكّل خطرًا سياسيًّا ودينيًّا كبيرًا على العثمانيّين، وكتب الأميرُ تقاريرَ حول هذه التطوُّرات، وأرسلَها إلى العاصمة لإِطْلاعِ السلطانِ على ما يحدث، كما انتشَرَتْ رواياتٌ تُفيدُ بأن الأميرَ سليم سافر إلى إيران ومارسَ لعبةَ الشطرنج مع الشاه إسماعيل، إلا أنه لا يمكن إثباتُ صحّة هذه الروايات لا بالمنطق ولا بالحقائق التاريخية، وتشير إحدى هذه الروايات المُخْتَلَقةِ إلى أنَّ الأميرَ سليم والشاه إسماعيل تبادلا الزيارات، ومارسا معًا لعبة الشطرنج والألعاب العسكرية، وفي إحدى المرات هزمَ سليم الشاهَ في لعبةِ الشطرنج، وبعدها كأنه خبَّأ

خاتمَه تحت حَجَرٍ في مدينة "تَبْرِيز"، ثم عندما فتح المدينة بعد سنوات، عثر على ذلك الحجر وعرض الخاتم أمام الشعب، ولا شك في أن مجرَّدَ انتشارِ أمثالِ هذا النوع من الأساطيرِ واختلاقِهِ ليدلُّ ويُبَرْهِنُ على مدى اتّخاذِ الأميرِ سليم شتّى التدابير اللازمة للتصدّي للصفويين.

لقد دخل الأمير سليم في صراعات مع القوات الإيرانية كذلك، وبالرغم من تقدير السلطان بايزيد الثاني لجهود ابنه العنيدِ والنجاحات التي حقَّقها، فإنه كان منزعجًا من الصراع الذي دخله مع الشاه إسماعيل، ولهذا فقد حذّره من خطورة "نشر العداء" مع دول الجوار، بَيدَ أن اهتمامَ سليم كان مُنْصَبًّا بالكامل على الشاه إسماعيل الذي كان يهدِّدُ الأناضول، فكان يوفد المخبرين لمتابعةِ تحرُّكات الشاه، ثم يرسل هذه المعلومات الاستخباراتية إلى القصر السلطاني في إسطنبول، وبعدما تلقَّى والدُه السلطان هذه التقارير؛ طلبَ منه اتخاذَ التدابير اللازمة للتصدي للصفويين؛ فبادر الأمير لإجراءِ مناوراتٍ عسكريّة جنوبي "طِرَابْزُونْ"، ومن ثم ضربَ طوقًا أمنيًّا حولَ مدينة أرضروم، وسارَ بجيشِهِ قاصدًا مدينة "أَرْزِينْجَانْ"، فأرسل الشاه جيشًا جديدًا قوامه اثنا عشرَ ألف جندي إلى "أَرْزِينْجَانْ"، لِيُبَادِرَ الأمير إلى تفريق هذا الجيش من خلال هجومٍ عسكريٍّ ناجحٍ قادَهُ بِنَفْسِهِ، وقد اضطرَّ السكّان المحلِّيُّون إلى الهرب من أراضي قبيلة "آَقْ قُويُونْلُو"[٥] التركمانيّة بسبب بطشِ الشاه إسماعيل، فآواهم الأمير سليم وأسكنهم "طِرَابْزُونْ".

ولقد انزعج الشاه إسماعيل مما فعله الأمير العثماني الذي يحكم سنجقًا صغيرًا في الأناضول، ففكر في ضرب "طِرَابْزُونْ"؛ لكنّه عدلَ عن هذه الفكرة بعد ذلك؛ لصعوبةِ الوصولِ إلى المدينة، وخرج في غزوة ضدَّ قبيلة

(٥) **آَقْ قُويُونْلُو (الخراف البيضاء)**: من القبائل التركمانية، حكمت في شرق الأناضول وأذربيجان وفارس والعراق وأفغانستان وتركستان ما بين عامي (١٤٦٧-١٥٠٢م). **(المترجم)**

حرب "الأمير سليم" ضد الصفويّين وهو في "طِرَابْزُونْ"
[يظهر في وسط المنمنمة وبيده درع أسود]. (سليم نامه، *23b*)

"ذي القادر" التركمانية التي تَحكُمُ منطقةً قريبةً من مدينة "مَرْعَشْ (*Maraş*)"، وكان الشاهُ قد أمرَ جيشَه بدفنِ المدافع الثقيلة في "أَرْزِينْجَانْ"، فوصل هذا النبأُ إلى الأمير سليم بِفَضْلِ شبكتِهِ الاستخباراتيّة، فدخل "أَرْزِينْجَانْ"، واستولى على مدافع جيش الشاه، وأصبحَ الأميرُ المغامِرُ الذي يحكم إحدى مدن الأناضول الصغيرة حديثَ الناس بفضلِ الشجاعةِ الكبيرةِ التي ظهر بها أمام الصفويين.

لقد زاد الشاه إسماعيل من تهديداته للعثمانيين، وأخذ يُحَرِّضُ ويدعو إلى نشر الفتن بين سكان الأناضول، وما إن أدرك الأمير سليم أن الأمور تسير على نحو سيّئٍ حتى بعثَ رسلًا إلى الأناضول لِيُخبروا أهله بأن الأمير يستعد للخروج في غزوة ضد الجورجيين، ويطلب من الشباب الراغبين في المشاركة في الغزوة اللحاق بالجيش في "طِرَابْزُونْ"، وقد نجحَ الأمير في غزوه لأراضي جورجيا، وسُرَّ مَن شاركوا في الغزوة بما تحصَّلوا عليه من الغنائم، وقد وزّع الأمير سليم على هؤلاء الجنود جميع الغنائم بما في ذلك الجزء المخصص لخزينة الدولة، وبعد ذلك بدأ يرسخ النظام العسكري في "طِرَابْزُونْ"، وعندما رأى الجنود من حنكة الأمير سليم ما لم يروه في والده السلطان، تعلّقوا به أكثر، وفي الواقع؛ فإنَّ السلطان سليم -عندما كان أميرًا وكذلك سلطانًا- كانَ يُحافظ بجانبه دائمًا على جيشٍ شديد الارتباط به.

وُلِدَ الأميرُ سليمان -الذي سيشتَهِرُ لاحِقًا على المستوى العالميّ بِلَقَبِ سليمان القانوني- عام (١٤٩٤م)، وقد وُلِدَ سُليمان في أبعدِ مكانٍ عن العاصمة، مقارنة ببقية السلاطين، والغريبُ أنَّ المنيَّةَ وافَتْهُ كذلك وهو في غزوةٍ خارجيّةٍ على بُعد مئات الكيلومترات عن إسطنبول.

مدينة "طِرَابْزُونْ (*Trabzon*)"

لقد فقد الأمير سليم ولدًا وبنتًا له ماتا في "طِرَابْزُونْ" بينما كانا لا يزالان رضيعين، وكان سليمان هو الأمير الوحيد -بين سائر إخوتِهِ الذكور- الذي بقيَ على قيدِ الحياة من بعدِ وفاةِ أبيه.

ولقد أكسبه هذا الأمر خشونةً إذ لم يكن معه وريثٌ منافسٌ على العرش، وقد توفيت والدته "عائشة جُلبهار خاتون" في "طِرَابْزُونْ" في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني عام (١٥١١م)، وقد سجلت الكُتُبُ التاريخيّة أنَّ سليمًا شُوهِدَ يبكي للمرة الأولى عند وفاةِ والدتِهِ، ودُفِنَتْ في "طِرَابْزُونْ" قبلَ أنْ ترَى ابنها وهو يعتلي عرش السلطنة، كما أن والدتهُ لا تنتمي إلى القصر السلطانيّ، كما أنها لم ترَ مسقط رأسها في مدينة "مَرْعَشْ" إلى أن وافتها المنيّة في "طِرَابْزُونْ"، وقد تركت خَلْفَها علاقةَ صداقةٍ قديمةٍ ومتينةٍ بين المدينَتَينِ استمرَّت إلى يومنا هذا، ويستضيف ضريحها في "طِرَابْزُونْ" آلاف الزوار كلَّ يومٍ، وقد أمر سليم بِبِنَاءِ جامعٍ حمل اسمها "جامع جُلبهار خاتون".

لـم يكن قبر والدة السـلطان سـليم فـي "طِرَابْزُونْ" هـو الذكرى الوحيدة له بالمدينة؛ إذ إن ابنيه الأمير "صالـح" (ت: ١٤٩٩م) و"كامرشاه" (ت: ١٥٠٣م) قد توفّيا في "طِرَابْزُونْ" في سنٍّ صغيرةٍ، ودُفِنَا بها.

لقد كان الأمير سليم في حاجةٍ إلى الإمكانيّات المادِّيَّة من أجل تحقيق أهدافـه، بيـدَ أن إيرادات "طِرَابْزُونْ" كانت محـدودةً للغاية؛ إذ كانت المدينة صغيرةً ومُحَاطةً بالجبال ومياهِ البحرِ الأسـود من كلِّ جانبٍ، وقد طلَبَ من الحكومةِ المركزيّةِ في إسـطنبولَ مسـاعدات مادّية أكثر من مرّة، كما أرسـل رجالًا إلى مدينة "بُورْصَه (*Bursa*)" لاقتراضِ المالِ.

بينمـا كان سـليم فـي "طِرَابْـزُونْ" كان يتابـعُ باسـتمرارٍ مـا يفعلُـهُ الشـاهُ إسـماعيل الصفوي، وكانت الأناضول قد شـهدت اضطراباتٍ كبيرةً بسـببِهِ، وتأثَّرَتْ مدنُ وسطِ وشمالِ الأناضول كثيرًا جرَّاءَ هذه الأحداث، ولمّا رأى الأمير أن تَقَدُّمَ والدِهِ في العمرِ يمنعُهُ من القضاءِ على هذه التهديدات؛ أدركَ أنـه لن يسـتطيـع أن يفعل الشـيءَ الكثيرَ بسـببِ مركزِهِ الحالـيّ، ففكَّرَ في أن يُصْبِـحَ سـلطانًا لتكـونَ له سـلطةٌ أكبر، غيـر أن أخاه الأكبـر "أحمد" كان من المُفْتَرَضِ أنه هو الذي سيتولّى العرش خلفًا لوالده.

ولقـد أسـهمت الأنشـطة العسـكرية التـي كان يقـوم بها الأمير سـليم في "طِرَابْـزُونْ" فـي ذيـوع شـهرته وبـزوغِ نجمِـهِ خـلالَ فتـرةٍ قصيـرةٍ بيـن جنودِ "الإِنْكِشَـارِيّة"[٦] الذيـن كانـوا يتحدَّثـون عـن إمكانيّـة الخروج مـن جديد في غـزوات والقضـاء على التهديدات الصفوية في الأناضول؛ إذا أصبح سـليم سـلطانًا، وأمـا الـوزراء فكانـوا مقتنعين بأن الأمير أحمد هـو الأحقّ بمنصب السلطان.

(٦) **الإِنْكِشَارِيّة**: طائفة عسكرية من المشاة العثمانيين شكلوا تنظيمًا خاصًّا لهم ثكناتهم العسكرية وشاراتهم ورتبهم وامتيازاتهم، وكانوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذًا. (المترجم)

الأب والابن في ساحة المعركة

لـم يَحْكُمْ سـليم سـوى سـنجق "طِرَابْـزُونْ" على مدارِ الفتـرةِ التي عاشَ فيها بصِفَتِهِ أميرًا، وقد شكا حالُهُ إلى والدِهِ السلطان في خطابٍ أرسلَهُ إليه، تحدَّثَ من خِلالِهِ عن ضعفِ إمكانيّات "طِرَابْزُونْ"، وأن عليه البقاء مستعدًّا للكفـاحِ المسـتمرِّ لوقـوعِ سـنجقِهِ على حـدود الدولة الشـرقيّة، وأوضـحَ أنه لـم يعـدْ يتحمَّـل البقـاءَ في "طِرَابْـزُونْ"، وطلبَ من والـدِهِ أن يَجِدَ حلًّا لهذه الأزمة، وأضافَ سليم أنه ينتظِرُ من والدِهِ أن يُحسِنَ إليه..

لقـد طلـبَ الأميرُ سـليم أوّلًا أن يُمْنَح إدارة سـنجق أقرب إلى العاصمة كيـف يجسّ النبـض بشـأن مسـألة توليـه الحكم ليكـون خلفًا لوالـده، ولأن قـرب السـنجق كان يُمَثِّـلُ ميزةً للصعود إلى العرش، فكان السـنجقُ الأقربُ إلى إسـطنبول يُمْنَحُ إلى أكبرِ أبناءِ السـلطان، ولـم يكن الأميرُ أحمد -الابن الأكبر للسـلطان- يرغبُ في تلبيةِ طلبِ أخيه سـليم، ولهذا بذلَ جهدًا كبيرًا في سبيل هذا، وفي نهاية المطاف رُفِضَ طلبُ سليم.

كان الأميـر أحمـد منزعجًـا بسـبب مـا يفعلُـه أخـوه الأصغر سـليم، وقد نشبَ صراعٌ خفيٌّ بينهما سرعان ما تحوَّلَ إلى العلَنِ، وكان سببُ ظهورِ هذا الصراعِ هو طلبُ سليم سنجقًا ليحكمَه ابنهُ سليمان، وقد تلقَّى سليم ردًّا من إسطنبول يُخْبِرُهُ بأنه يمكن منحُ سليمان سنجق "سلطان أُونُو (*Sultanönü*)"، وإذا أراد مكانًا أقرب لبُعد سَنْجَق "سلطان أُونُو"، فيمكنُ تحويلُه إلى سنجق "جِيرَاسُـونْ (*Giresun*) - كُورْتُـونْ (*Kürtün*)" ومنطقـة "شِـيَرانْ (*Şiran*)"، ومنحُـه تلـك المنطقـة ليحكمَهـا، لكن سـليمًا رفض هذا العـرض عن طريق

خطاب مليءٍ بالعتابِ أرسلَهُ إلى والدِهِ، وذكّره بأن "سلطان أُونُو" تقعُ في منطقةٍ بعيدةٍ، وأنه لطالما مُنح أبناء الأمراء سناجق قريبة من سناجق آبائهم ليحكموها، وقال سليم إن المنطقة الواقعة في "جِيرَاسُونْ" و"شيران" وعرةٌ للغاية، وأنها محرومة من الإيرادات الزراعية، كما أن جزءًا كبيرًا من سكانها أخلوا المنطقة وانضمُّوا إلى دولة الشاه إسماعيل الصفوي، وأخبرَ والده السلطان بأنه إذا كان سبب سخطِهِ عليه هو فتحه للعديد من القلاع والمناطق على طول الحدود الشرقيّة ودخوله في صراعٍ مع شاه إيران؛ فإنه إنما فعلَ ذلك من أجل حماية الإسلام والمسلمين وليس من أجل توسيع حدود الدولة، كما أبلغه بضرورة منح ابنه سليمان حكم منطقة "شَبِينْ قَارَا حصار (*Şebinkarahisar*)" القريبة من "طِرَابْزُونْ".

لقد كان الصفويون والجورجيون يشتكون الأمير سليم باستمرارٍ إلى والدِه السلطان الذي كان منزعجًا من تصرفات ابنه؛ إذ كان يميلُ إلى السِّلْمِ، على عكس سليم، وفي نهاية الأمر، وصلت العلاقة بين السلطانِ وابنِهِ الأميرِ إلى نقطةٍ حرجةٍ، وقد تدخَّلَ الأمير أحمد في تلك الأثناء، وبدأَ يُمارِسُ ضغوطًا على أبيه السلطان كي لا تعطى منطقة "شَبِينْ قَارَا حصار" لسليمان ابن أخيه سليم ليحكمها، وتسببت هذه الواقعة في زيادة الفرقةِ بين الأَخَوين اللذين كانت بينهما منافسة محمومة أصلًا، وعندما فكَّرَ سليم في أن فُرَصَ بقائِهِ على قيدِ الحياةِ إذا أصبحَ أخوه أحمد سلطانًا معدومةٌ؛ أدركَ أنه مضطرٌّ إلى اعتلاءِ عرش السلطنة والسيطرة عليه خلفًا لأبيه.

وافق السلطان بايزيد الثاني على منح الأمير "سليمان بن سليم" حكم مدينة "كَفَه (*Kefe*)" في شبه جزيرة "القِرِم"، فيما أعطى الأمير "مراد بن أحمد" حكم مدينة "بُولُو (*Bolu*)"، وفي تلك الأثناء ضرب زلزال شديد إسطنبول عام (١٥٠٩م)، وكان زلزالًا مدمِّرًا لدرجة أنهم نَعَتُوهُ بـ"القيامة الصغرى"،

وأصبح السلطان عاجزًا عن الإقامة في إسطنبول، واضطرَّ إلى الانتقالِ إلى "أَدِرْنَه (*Edirne*)"، وقد أصابَ هذا الزلزالُ الشعبَ والجيشَ بحالةٍ من اليأسِ، وأصبحَ الناسُ يتحدَّثون عن أنّ السلطان قد بلغَ من العمر عتيًّا، وقد ساءَتْ حالتُهُ الصحية كثيرًا، وصار عاجزًا عن إدارة الدولة كما يجب، ولهذا ينبغي تنصيب الأمير سليم سلطانًا بدلًا عنه، وفي تلك الأثناء بدأ الأمير "قُورْقُوتْ (*Korkut*)" التحرّك هو الآخر إلى جانبِ تحرُّكِ أخويه الأميرين أحمد وسليم.

وقادَ الأميرُ سليم عام (١٥١٠م) أسطولًا مكوَّنًا من ستةٍ وخمسين سفينة صغيرة وأبحرَ من "طِرَابْزُونْ" قاصدًا مدينة "كَفَه"، ووصل إلى جوار ابنه سليمان، فاستقبله خان "القِرِم" هناك، كما انتقلَ الأمير "قُورْقُوتْ" هو الآخر إلى "مَانِيسَا"، فيما وصلَ الأمير أحمد إلى "أَنْقَرَه".

"الأمير سليم" يتحدث مع خان "القِرِم" عند وصوله إلى شِبْهِ جزيرةِ "القِرِم". (سليم نامه، *32a*)

تسبَّبَتْ زيارةُ الأمير سليم المفاجِئة لمدينةِ "كَفَه" بإغضابِ والدِهِ السلطان بايزيد الثاني، وقد أعربَ سليم عن استيائِهِ بسببِ إدارة وزراء البلاط لشؤون الدولة بشكل متراخٍ، وحمّلهم مسؤولية ما يحدُثُ، وأفادَ صراحةً بأنهم موجَّهون

لتحقيقِ مصالحِ أخيه الأكبر الأمير أحمد، الأمر الذي زاد من عداءِ وزراءِ البلاطِ له، فأخبروا والدَهُ بأنه يسعى لإعلان الاستقلال عن الدولة.

لقد جمعَ سليم أنصارًا له من خان "القِرِم" في "كَفَه" وبكوات الروميلي، فسارع وزراء البلاط إلى إخبار السلطان بضرورة عودة الأمير سليم إلى سنجقه القديم ("طِرَابْزُونْ")، فأرسل السلطان خطابًا إلى ابنه الصغير سليم يخبره بضرورة العودة إلى "طِرَابْزُونْ"، فأبلغه سليم برفضه تنفيذ هذا الأمر، ما جعل السلطان يستشيطُ غضبًا، وقال له: "هل ستشاركني في العرش؟!".

فرد عليه الأمير سليم:

> "لماذا منعتموني من الخروج إلى الغزو؟ أطلب منكم منحي سنجقًا في الروميلي حتى ألبّي رغباتكم وأنشغل بهذا السنجق القريب من العاصمة...".

وعلى النحو الآتي ردَّ سليمٌ على فريق الناصحين الذي أرسله إليه والده السلطان:

> "أعرفُ قدرَ رضا الأب، لكن لو كان قصد والدي من هذا الرضا هو عودتي إلى "طِرَابْزُونْ"، فلن أقبل هذا أبدًا؛ إذ لم أكن يومًا من الذين يرجعون عن الأماكن التي ذهبوا إليها، وأنا على أتم استعداد للمواجهة من أجل الوصول إلى هدفي، ولن أحيد عن أفكاري مهما حدث، وليكن ما يكون".

طالب الأمير سليم بمنحِهِ سنجقًا في منطقة الروميلي بطريقة لم يشهدها التاريخ العثماني من قبل، ومن ناحية أخرى، كان تهديد ثورة الزعيم التركماني الشيعي "شَاهْ قُولُو (*Şahkulu*)" في الأناضول آخذًا في التنامي، فعرض السلطانُ الأبُ على ابنه سليمٍ مدينة "مُوغْلَا (*Muğla*)" وإقليم "مَنْتَشَه

(*Menteşe*)" القريب منها ليحكمَهُ، لكنه رفضَ هذا العرض بعدما أخبر والده بأن وضعيَّةَ هذا السنجقِ أسوأُ من وضعيَّةِ "طِرَابْزُونْ"، كما بعثَ خطابًا إلى والدِهِ أبلغه فيه بأن أمراء أخيه الأكبر أحمد قد تمرَّدوا، وأنه جمع جنودًا للقضاء عليهم، معربًا عن رغبته في لقاء السلطان وجهًا لوجه ليشرحَ له وضعه ويطلب منه الدعاء بالخير، مُخبرًا إياه بأنه سيستَسْلِمُ له، وقد أرسل سليم رجالًا أكثر من مرة إلى والده المقيم في "أَدِرْنَه"، وفي نهاية المطاف، غادر مدينة "كَفَه" في "القِرِم" بجيشه متوجهًا صوب "أَدِرْنَه".

لقد تلقّى سليم خبرًا من والده السلطان بعدما عبر بجنوده نهر الدانوب؛ إذ أبلغه بإمكانية منحه سنجق "كَفَه" بالإضافة إلى قسم من إيرادات ضرائب "كِيلِي (*Kili*)" و"آقْ كِيرْمَانْ (*Akkirman*)"، لكن ليس بالإمكان منحه سنجق في "الروميلي" لأن ذلك يخالف القانونَ، فيما كتب سليم إلى وزراء البلاط خطابًا قال فيه إن هناك مزاعمَ تدعي أن حركته هي عبارة عن محاولة تمرد ضد السلطان، مشيرًا إلى أنه أراد السفر إلى "أَدِرْنَه" للحيلولة دون تصويره كعاصٍ متمرّدٍ ضدَّ والدِهِ، وأضاف أنه حصلَ على الدعمِ من قادةِ ثلاثِ أُسَرٍ من الأُسَرِ التي تحرسُ الحدود في "الروميلي".

اُتّخذَتْ التدابيرُ اللازمةُ في "أَدِرْنَه" عقبَ تحرُّكِ الأميرِ سليم قاصدًا إياها، كما بادرَ السلطان بايزيد الثاني إلى الخروج على رأسِ جيشِهِ لمواجهةِ جيشِ ابنِهِ، وعندما التقى الجيشان عندَ مرجٍ يُقالُ له "جُكُورْ جَايِرِي (*Çukurçayırı*)"، كان اندلاع معركةٍ بينها مسألة وقت، وأرسل الأمير سليم خبرًا إلى والده كرّر فيه طلبَ مقابلته، لكن السلطان رفض هذا الطلب بعدما أصرَّ وزراءُ البلاطِ في طلبهم عدمَ مقابلتِهِ للأمير.

لقد تعصّبَ الأميرُ كثيرًا بسببِ رفضِ السلطان جميعَ طلباتِهِ لمقابلتِهِ في وقتٍ يغلي فيه الأناضول بالثورات، وأخبر وزراءَ البلاطِ بضرورةِ تنازُلِ السلطان عن العرش، واختيارِهِ واحدًا من أبنائِهِ الثلاثةِ لِخِلافتِهِ، فلم يوصّل أحدٌ هذا الطلبَ إلى السلطان، وتواصلت المفاوضاتُ بين الطرفين اللذين توصَّلا إلى منحِ الأميرِ سليم سنجقًا يحكمُهُ في الروميلي، كما تقرَّرَ منحُهُ منطقة "سَمَنْدِيرَه (*Semendire*)" القريبة من مدينة "بلجراد" في صربيا، فقبل سليم هذا العرض، ولأنه لم يُظهِر أيَّ اعتراضٍ؛ أُضيفت مدينتا "وِيدِينْ (*Vidin*)" و"آلَاجَا حصار (*Alacahisar*)" إلى سنجقِهِ، وسُمِحَ له بالخروجِ في غزواتٍ ضدَّ المجر، كما أرسلَ والدُهُ السلطان كتابًا يتعهد فيه بألَّا يتنازل عن عَرشه لأيٍّ من أبنائه طيلة حياته.

وسرعانَ ما هدأَ التوتُّرُ بين الطرفين جزئيًّا، لكن الأمير أحمد كان منزعَجًا كثيرًا بسبب ما يحدث، فأرسل خطابًا إلى السلطان يرجو منه -بصفتِهِ أكبر أبنائِه- الحفاظَ على حقوق أبنائه الآخرين، واتَّهمَ السلطانَ بأنه رحيمٌ جدًّا تجاه أولادِه، وقال إذا لم تستطع الرحمةُ إيقافَ أميرَيْن متمرِّدَين، فإنه يستطيعُ إنجازَ هذه المهمّة بنفسِهِ، كما غضب أشدَّ الغضبِ على أخيه الأصغر سليم بسبب حصولِهِ على سنجق في الروميلي، وأبلغه بأن السلطان يكاد يكون قد وهبه كل مناطق الروميلي، حتى إنه لم يبق على إعلانه اعتلاءَ العرشِ سوى سكِّ العملةِ وقراءةِ خطبةِ الجمعةِ باسمِهِ، وقال إنه في هذهِ الحالةِ سيرفَعُ رايةَ العصيان هو الآخَر، وأنه سيُعَسْكِرُ في مدينة "بُورْصَه" لِيَمْنَعَ أيَّ شخصٍ من العبورِ من الأناضول إلى الروميلي، وكان الأمير أحمد يُفكِّرُ في الذهاب إلى إسطنبول واعتلاءِ العرش حالَما تخمدُ ثورة "شَاهْ قُولُو" في الأناضول، ولهذا حاولَ كسبَ دعمِ بكوات الروميلي.

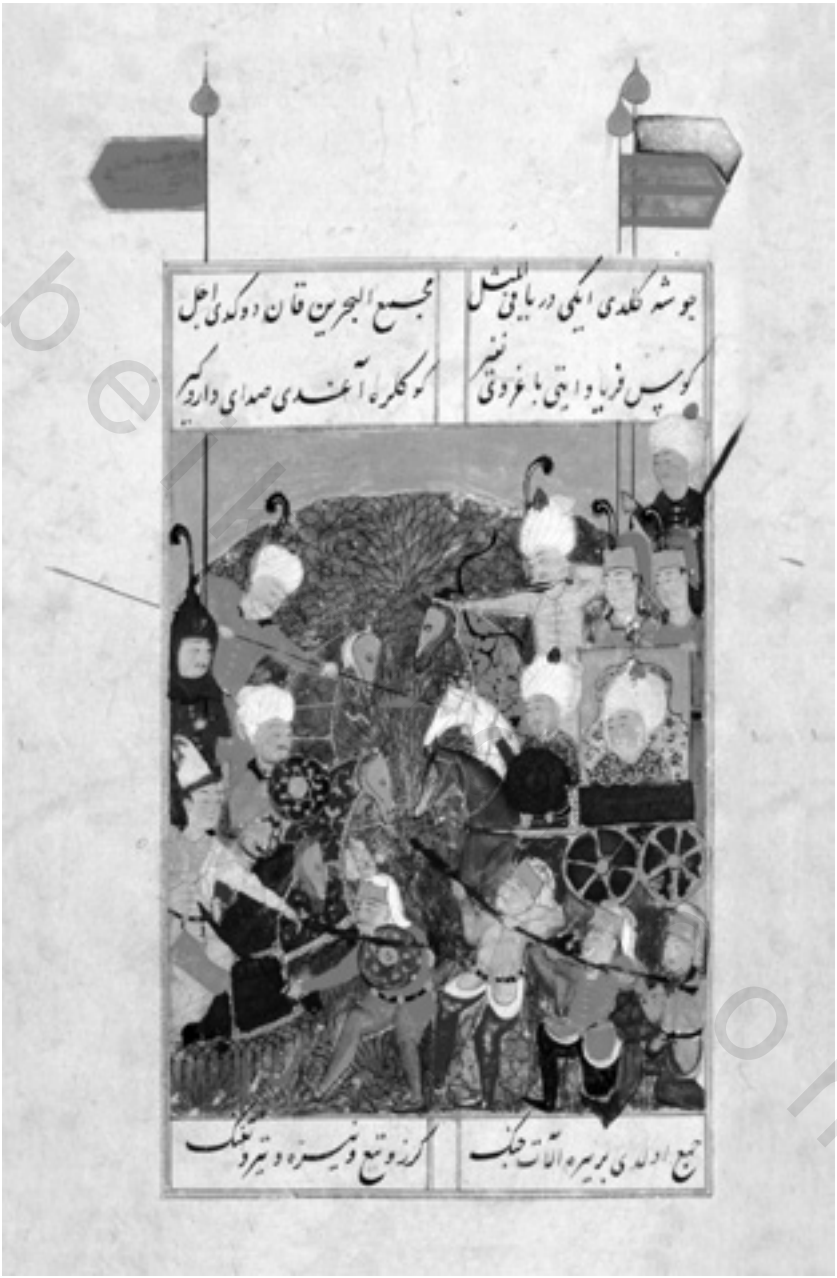

الحرب بين "بايزيد الثاني" وابنه "الأمير سليم" [يظهر "بايزيد الثاني" في اليمين جالسًا في العربة، بينما "الأمير سليم" في الشمال ممسكًا في يده درعًا أسود]. (سليم نامه، *44a*)

ووصلت هذه الأنباء كذلك إلى الأمير سليم، فبادر إلى نشر الخبر بين بكوات الروميلي وجنوده، ومن ثم أعلن خروجه في غزوةٍ ضدَّ المَجَرِ، وقد أوصاه مستشاروه، خلال اجتماعٍ عَقَدَهُ معهم، بضرورةِ عدم التمادي في هذه الإجراءات، ذلك أن هناك أنباءً تقولُ إن الصدرَ الأعظمَ علي باشا، الذي كان يحاول إخمادَ ثورةِ "شَاهْ قُولُو" في الأناضول بالتعاون مع الأميرِ أحمد، قد هُزِمَ وفَقَدَ حياته، كما أن السلطان عاد إلى إسطنبول عازمًا على التنازلِ عن العرشِ للأميرِ أحمد.

مدينة "بُورْصَه (*Bursa*)"

obeikandl.com

اقتتال العثمانيين

تأكَّدَ الأمير سليم من أن هناك رغبةً في تنصيبِ أخيه الأكبر الأميرِ أحمد سلطانًا خلفًا لوالدِهِ، وكان يعلمُ أنه لو أصبحَ أحمدُ سلطانًا فسيقضي عليه على الفور، وعندما رأى أن الوعودَ التي قُدِّمَتْ إليه قبلَ ذلك لم يوفَّ بها؛ سارَ بقوَّاتِهِ نحو "أَدِرْنَه".

ولم تكن السيطرةُ على مدينة "أَدِرْنَه" -العاصمة الثانية للعثمانيّين- أمرًا صعبًا بالنسبة لسليم، وذلك نظرًا لكونها مدينة صغيرة، فسرعانَ ما سيطرَ عليها وطردَ أباه منها ثمَّ طارد والدَهُ حتى مدينة "جُورْلُو (*Çorlu*)"، لتلتَقِيَ قوَّاتُ الأبِ والابنِ وجهًا لوجهٍ.

وكان التوتُّرُ على أَشُدِّهِ، ولم يكن الأمير سليم ينوي الدخول في حربٍ ضدَّ والدِهِ، فأصدَرَ لجنودِهِ أوامر بعدم إشهارِ سيوفِهِم، وبعثَ رسولًا إلى والدِهِ يسألُهُ عن سببِ فسخِ الاتّفاقِ الذي كان بينهما، وفي تلك الأثناء أخبرَ بعضُ رجالِ الدولة المؤيّدين للأمير أحمد السلطانَ بأن نيَّةَ ابنِهِ سليم سيئةٌ، مشيرين إلى الجيشِ الذي حَشَدَهُ، وطلبوا منه ضرورةَ إنهاء هذا الأمر في الحال، فثارت ثائرةُ السلطان بايزيد الثاني، وأصدرَ أوامرَهُ باستخدامِ القوَّةِ لِتَفْرِيق جيشِ ابنِهِ سليم.

لم يكن جيش الأمير سليم مدرَّبًا تدريبًا كافيًا؛ إذ كان مكوَّنًا في الأساسِ من الجنودِ التتارِ والقوَّات التي جمعها من الإمارات المختلِفة، فيما كان

جيشُ والدِهِ السلطان مؤلَّفًا من جنود "قَابِي قُولُو (*Kapıkulu*)"[٧]، المدرَّبين تدريبًا جيّدًا، فأمرَ السلطانُ جنودَهُ بإطلاقِ قذائفِ المدافعِ ونيران البنادق، الأمر الذي جعَلَ قوّات سليم في موقفٍ لا تُحْسَدُ عليه.

وتفرّقَ فرسانُ جيش الأمير من التتار، وأحاطَ جنودُ السلطان بالأمير سليم من كلِّ جانبٍ، فأصبَحَتْ حياتُهُ في خطرٍ محقَّق، وفي هذه الأثناءِ استفاد الأمير كثيرًا من التدريبِ العسكريّ الذي خضعَ له في طفولَتِهِ، فأخذ يشقُّ الدائرةَ المحيطَةَ به بفضلِ جوادِهِ الملقب بـ"قَارَا بُولُوطْ (*Kara bulut*)" (السحابة السوداء)، وبدأَ يهربُ منسَحِبًا من بينهم، وبعد ذلك استطاع رجلُهُ المقرَّبُ "فرهاد بك" أن يوقفَ مَن كان يُطارِدُهُ من جيشِ السلطان، وأنقذَ حياته، كما ساهمَ شخصٌ يدعى "قارا حسين آغا" في إنقاذِ حياةِ الأميرِ سليم، وقد مُنح ذلك الرجل وظيفةً في الدولة فيما بعد، وكانت هذه الواقعة هي الحادثة الأولى التي مرَّ فيها الأمير سليم بتهديدٍ كبيرٍ هدَّدَ حياتَه، وكانت الهزيمةُ العسكريّة الأولى والأخيرة له، واضطر بعدها للعودَةِ إلى مدينة "كَفَه" في شبه جزيرةِ "القِرِم".

وبينما كان الأميرُ سليم عائدًا على متنِ السفينةِ إلى "كَفَه"، تَناقشَ رجالُه المرافقون له: "فرهاد باشا" و"بالي باشا" و"أحمد باشا" فيما بينهم بشأن الأمور التي سيجري تنفيذُها والغزوات التي سيَخْرُجُ فيها الجيشُ ضدَّ الصفويّين إذا ما اعتلى الأمير سليم عرشَ الدولة، وأما الأمير فقد انزوى في ركنٍ من أركانِ السفينةِ وسيطَرَتْ عليه حالةٌ من الصمتِ، وبعد ذلك، رفعَ رأسَهُ وخاطبهم بقوله:

---

(٧) "**قَابِي قُولُو** (*Kapıkulu*)": لفظ مركب، "قابي" بمعنى الباب و"قولو" بمعنى عبد، أي "عبيد الباب"؛ يطلق على مجموع جنود الدولة العثمانية الذين يشكلون فرق المشاة والخيالة العاملين بأَجر، وكانوا يسمونه "دركاه عالي قوللري (*Dergâh-ı Âlî Kulları*)"، ولهم تقسيمات عديدة. (سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ١٧٢).

"القِرِم"

"أيُّها المحزونـون! لمـاذا تُطْنِبُـونَ فـي الحديثِ عن السـلطَنَةِ؟ وماذا تفيدُ إذا بقيتُ فيها لتسـعِ سنين؟ فهذا الذي تتحدَّثون عنه قد مُنح لنا".

ولو أن أحدًا لم يفهَمْ بالضبطِ ماذا أرادَ الأميرُ بقوله، لكنّ سـليم قد تنبَّأَ باعتلائِهِ عرشَ السلطنة.

لقـد اسـتقبل خـان "القِـرِم" الأمير سـليم عندما وصـل إلى مدينـة "كَفَه"، وخاطب الأمير بعبارات مفادها:

"هذه الهزيمة ليست مهمة يا أيّها الأمير، ولا يمكنُ للوزراءِ والأمراءِ أن يميلوا لدعم الأمير أحمد بسببِ هذه الهزيمة، وإذا أردتَ فبإمكاني دعمك بالقوّة العسكريّة حتى تستطيـع الوصول إلى العرش.

فلم يقبل سليم هذا العرض، وأجابه بقوله:

"لـم أخـرج علـى رأس جيشـي قاصـدًا العاصمـة مـن أجـل حـب الدنيـا والسـعي وراء العـرش، فلقد هرِم والـدي، وأصبح عاجزًا عن إدارة شـؤون الدولة بسـبب الأمراض التي تلازمه، وترك المسـؤولية للـوزراء والبكـوات، الأمر الذي جعـل أعداء الدين والدولة يتحينون

الفرص للانقضاض علينا، وأما إخوتي فيريحون أنفسهم في مواجهة الجلاليّين وسائر الأعداء الآخرين، وأما أنا فأرغب في الحصول على المزيد من الجنود للقضاء على هؤلاء الخوارج والرافضة، ولقد كنتُ في طريقي لزيارة والدي، لكن رجالَ البلاط فسّروا هذه الرغبة بشكلٍ مغاير لما في نفسي، وقالوا لوالدي إني أتحرك من خلال حبي للعرش والتاج، وأفسدوا ذات بيني وبين السلطان، وعلى أي حال، لن يحصل إلا ما أراد الله وقدّره، لكن لا يليق بي أن أخرج على رأس جيشي لأهاجم والدي السلطان".

وعاد الأمير سليم بعد ذلك إلى خيمته، وقال لمن كانوا حوله إنه لن يكون لعبة في يد خان "القِرِم"، كما أنه لن تكون هناك أيَّة فائدة من سلطنة تأتي بدعم التتار، وإنه لا يليق به أن يُدخِلَ الجنود التتار إلى دولة أقامها آباؤه وأجداده وسعوا لتوسيعها، وأردف قائلًا:

"ما أرغب به هو أن أصل إلى العرش بعون من الله، لا بدعم من هؤلاء، فأنا لست بحاجة إلى مساعدة التتار".

حتى إن خان "القِرِم" عرض على الأمير تزويجه ابنته، لكن سليم رفض.

لقد كان الأمير سليم محقًا فيما قال؛ إذ كان أخوه الأكبر الأمير أحمد قد فشل في قمع ثورة "شَاهْ قُولُو" التي اندلعت لصالح شاه إيران، وقد أجّج زلزال عام (١٥٠٩م) وأجواء الغموض التي تلته هذه الثورةُ التي كانت تهدف إلى السيطرة على عاصمة الدولة العثمانية والقضاءِ على أسرة آلِ عثمان، وكان المتمرّدون قد وصلوا حتى مدينة "بُورْصَه" غربي الأناضول.

وكانت المنطقةُ التي يحكمها الأمير "قُورْقُوتْ" هي أولى المناطق التي ظهرت فيها بوادر الثورة؛ إذ نهبَ المتمرِّدون ممتلَكات الأمير الذي ذهبَ إلى "مَانِيسَا" مهووسًا بالسلطَنَةِ والحكم، وذلك بدلًا من أن يحاولَ القضاءَ

على الثورة، كما فشلَ كبيرُ بكواتِ الأناضول "قاراجوز باشا" في قمع الثورة، وكذلك كان مصير كبير بكوات "قَارَامَانْ (*Karaman*)" "حيدر باشا"، وبعدها استشهد الصدر الأعظم "علي باشا" بعدما كان قد أُسنِدَتْ إليه مهمّة إخمادِ الثورة برفقةِ الأمير أحمد الذي تراجعت مكانتُهُ بين صفوفِ "الإنْكِشَارِيّة" على وجه الخصوص بسببِ قِلَّةِ حيلَتِهِ أمام المتمرّدين.

لقد حزن السلطان العجوز على استشهاد الصدر الأعظم "علي باشا" والوفاةِ المفاجِئة لابنِهِ الأميرِ "شاهين شاه" الذي لم يدخلْ في صراعٍ مع إخوتِهِ على العرش، كما بدأَ يشعر بالضَّجَرِ بسببِ الضغوط الممارسةِ عليه كي يتنازلَ عن العرشِ لابنِهِ الأكبرِ الأميرِ أحمد الذي أمرَ بعودتِهِ إلى "أَمَاسْيَا"، لكنّه اضطرَّ تحتَ ضغطِ رجالِ البلاطِ بعد ذلك إلى دعوتِهِ للمجيءِ إلى إسطنبول، وكان رجالُ البلاطِ يدعمون الأمير أحمد، ولم يكونوا يهتمّون بالتأييدِ الذي يحظى به الأمير سليم بين صفوف "الإنْكِشَارِيّة"، وكانوا يعتقدون أن بإمكانهم شراءَ دعمِ "الإنْكِشَارِيّة" عن طريقِ منحِهِم المزيد من المال، وكانوا يُبَسِّطون المسألَةَ ويُشبّهونها بتَقْديم العِظامِ إلى الكلابِ كي تهدأَ، وسرعان ما انتقلت هذه العبارات إلى مسامع الإنشكارية، فعلّقوا لافتاتٍ في مختلَفِ شوارعِ إسطنبول تحملُ عباراتٍ من قَبيلِ:

> "أنتم لم تضعونا في اعتباركم وترغبون في تنصيبِ الأميرِ أحمد سلطانًا، ووصفتمونا بأننا كلابٌ تنتظرُ العِظام لتأكلَها، لكنَّكم أخطأتم وعليكم أن تعلموا أننا لسنا كلابًا، بل نحن أسودٌ، وما نُريدُهُ كطعامٍ لنا هو الرؤوس وليسَتْ العِظام، ولهذا فنحن على استعدادٍ لقطع رؤوسِكم جميعًا".

ولكن رجال البلاطِ لم يأخذوا هذه التهديدات على محملِ الجدّ.

وتواصلت الاستعدادات بأقصى سرعة لاستقبال الأمير أحمد في العاصمة، وفي الليلة التي وصل فيها الأمير إلى منطقة "أُوسْكُودَارْ (*Üsküdar*)" على الجانب الآسيويّ من إسطنبول، عقدَتْ "الإنْكِشَارِيّة" اجتماعًا قرَّروا فيه أنهم لن يُعْلِنوا ولاءَهم سوى إلى الأمير سليم، ونزلَ خمسة آلافِ عنصرٍ منهم إلى الشارع، وبدؤوا ينهبون منازلَ رجالِ الدولةِ المؤيّدين للأمير أحمد، كما طالبوا السلطان بايزيد الثاني بأن يغادرَ الأميرُ أحمدُ ومؤيّدوه إسطنبولَ حالًا، وإلا فإنّهم لن يتورّعوا عن إظهارِ "الفسادِ" الحقيقيّ بالمدينة.

وعندما وصلَ هذا الخبرُ إلى الأميرِ أحمد؛ انسحبَ من منطقةِ "أُوسْكُودَارْ" بعدما فَهِمَ أنه لن يعتليَ العرشَ، وعقدَ العزمَ على استخدامِ القوَّة للسيطرةِ على الدولة، وبعدها خطَّطَ للاستيلاءِ على الأناضول في البداية، ومن ثم يبسط نفوذه على الروميلي، واستقرَّ به المقام في مدينة "قُونْيَه (*Konya*)" وسط الأناضول، وبدأ يتصرف وكأنه حاكم البلاد، ولهذا فقد تحوّل الأناضول إلى ما يشبه ساحة المعركة، وأصبح الأمير أحمد في وضعية المتمرد على الحاكم.

بدأ الأمير سليم يتلقَّى أخبارًا تُفيدُ بأنَّ جنودَ "الإنْكِشَارِيّة" يدعمونه، كما أنه صار يتمتَّع بتأييد بكوات الروميلي، وأنه لم يَعُدْ أمامه أيُّ عائقٍ يحولُ بينَهُ وبين القدوم إلى "أَدِرْنَه"، فأرسلَ سليمٌ خطابًا إلى والده السلطان يخبره فيه بأنه سيُطيعُ أوامرَهُ أيًّا كانت، فردّ عليه السلطان برسالة جاء فيها:

> "لقد عيّنْتُك يا بُنَيَّ قائدًا للجيش، فلتأتِ إلى هنا على الفور، ولا تعتقِدَنَّ أن هذا الأمرَ حيلةٌ مني، فوالله إني لصادق فيما أقول، وأنا على استعداد تامّ لتنفيذِ ما تُريد، ولتستشرْني في أمور الدولة،

كلُّ شيءٍ جاهزٌ من جنود وعبيد وخزينة وذخيرة، وليس عليك سوى بذل الجهد".

وأرسل السلطان أمرًا ثانيًا بعد أسبوعين يدعو ابنَهُ سليمًا مجدَّدًا إلى المجيء إلى إسطنبول على الفور لتولّي مسؤوليّة الجيش من أجل القضاء على تمرُّدِ أخيه الأمير أحمد.

وفي الوقت الذي كان الجميعُ ينتظِرُ فيه قدوم الأمير سليم إلى إسطنبول؛ شعر الأمير "قُورْقُوتْ" بالضجر بسبب الضغط الذي كان يمارسه عليه أخوه الأكبر الأمير أحمد، فوصل سرًّا إلى العاصمة، ولقد أحدثت هذه الواقعةُ أزمةً كبيرةً داخلَ الدولة، ورأى "قُورْقُوتْ" أن التطوُّرات في إسطنبول تصبُّ في صالح الأمير سليم، فأبلغَ والده بأنه ليس طمعانًا في العرش، مشيرًا إلى أنه يرغب في الإقامة مزيدًا من الوقت في إسطنبول في انتظار أخيه الأمير سليم للقائِهِ.

obeikandl.com

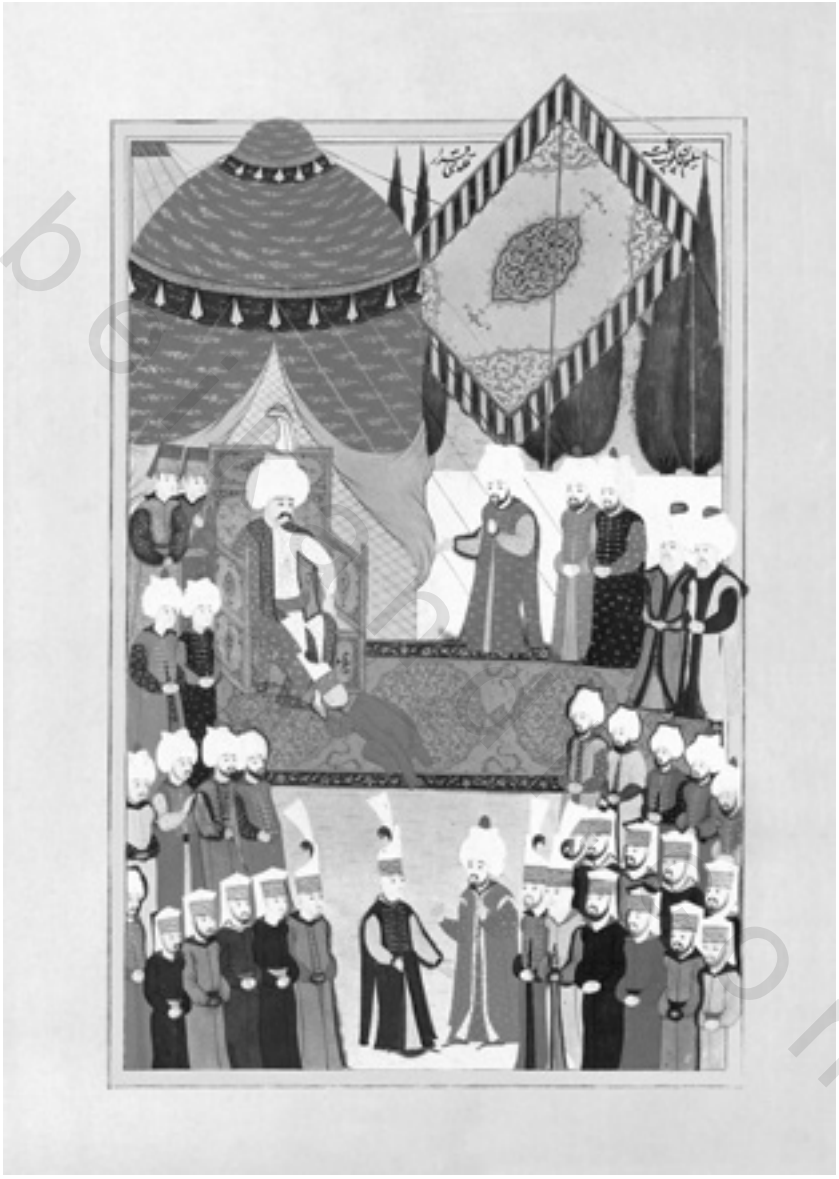

اعتلاء سليم الأول العرش. (**السيد لقمان** (ت: ١٠١٠هـ/١٦٠١م): **هُنَرْ نامه**)

وصول الأمير سليم إلى إسطنبول

انطلقَ الأمير سليم نحو العاصمةِ عندما وصلَهُ أمرُ أبيهِ السلطان، فالتَقَى أوّلًا بأخيه الأميرِ "قُورْقُوتْ" قبلَ دخولِ المدينة، وتجاذبَ معه أطرافَ الحديث لبعض الوقت، وقد دخل إسطنبول من منطقة "أَدِرْنَه قَابي (*Edirnekapı*)"، واستقبل بمراسم فخمة، وانتقل في اليوم التالي إلى قصر "طُوبْ قَابِي"، فالتقى والدَه هناك، ثم غادرَ القصرَ صوب منطقة "يَنِي بَاهْجَه (*Yenibahçe*)" حيث توافد قادة "الإنْكِشَارِيّة" وجنودُهم لتهنئته، هذا فضلًا عن اختيارهم لعشرة جنود ليرافقوا الباشاوات للقائه، وقد طالب مَن قابلوا الأمير سليم بإبلاغ الباشاوات بأن السلطان يعاني بسبب الأمراض، ولهذا فإنه لم يعد قادرًا على الخروج في الغزوات، وهذا ما يقتضي إسناد العرش إلى ابنه الأمير سليم، فنقل الباشاوات هذا الكلام إلى السلطان بايزيد الثاني الذي ردّ عليهم بقوله إنه لن يتنازل عن عرشه لأحد ما دام هو في كامل صحّتِهِ، ومن ثم التقى "مصطفى باشا" السلطانَ في القصرِ، وذكّرَهُ بتهديدِ "الإنْكِشَارِيّة"، وأخبره بأن "الإنْكِشَارِيّة" سيقتلون الباشاوات لو رفضوا طلبهم، وإنهم سيعزلونه عن العرشِ عنوةً إن لم يتنازلْ هو بِرَغْبَتِهِ، فرضيَ السلطان أن يتنازلَ عن العرش.

لقد تلقّى الأمير سليم نبأ اعتزام والده التنازل عن العرش، لكنه اعتقد أن هذه خدعةٌ ربما تكلّفه حياته، ولهذا لم ينزلْ عن ظهرِ جوادِهِ، وعندما عُقِدَ اجتماعٌ عاجلٌ (ديوان الوقوف)، انطلق على ظهرِ حصانِهِ هو ورجالُ الدولة إلى القصر السلطانيّ، وقد أعرب السلطان وابنه الأمير عن اشتياقهما لبعضهما بَعْدَ سنواتٍ من الفِراق، وقال السلطان إن منطقة شرق الأناضول

غابت عنها الطمأنينة بسبب الفِتَنِ التي تسبَّبَ بها الشاه إسماعيل الصفوي، وطلب من ابنه الأميرِ الخروج على رأس الجيش في غزوة لاستعادةِ السيطرة على تلك المنطقة، فأجابه الأمير سليم بأنه لن يعصي أمره، لكنه أخبره بأن الجنود لن تُطيعَ الأوامرَ كما يجبُ في الغزوات إلا لو كان قائدهم سلطانًا، وأضاف أنه لو ذهب على رأس الجيشِ كقائدٍ عام فلن يكون هناك فرق بينه وبين أي وزيرٍ عاديّ، مشيرًا إلى أن هذا الأمر لن يُحل إلا على يدِ سلطان.

فَهِمَ السلطانُ بايزيد الثاني الرسالةَ المقصودةَ من هذه الكلمات، فتنازلَ عن العرشِ لصالحِ ابنِهِ، واعتلى الأمير سليم العرش بصفتِهِ السلطان التاسع للدولة العثمانيّة، ولم يرغبْ السلطانُ سليم في أن تقامَ مراسمُ تنصيبِهِ كسلطانٍ ووالدُهُ لا يزال في القصر، احترامًا له، فلم يأتِ إلى القصر ويستقر به إلا بعد خروج والده منه، وآثر الإقامة في خيمتِهِ، وبينما كان والده في طريقه إلى مدينة "ديميتوكا" (ذيذيموتيخو)[٨] -الواقعة ضمنَ حدودِ اليونان اليوم- رافقَه سليم حتى "أَدِرْنَه قَابِي"، ثم قبّلَ يدَهُ وودَّعه، ومن ثم عاد إلى إسطنبول، وعندما عَلِمَ قبلَ دخولِ القصرِ أن جنودَ "الإنْكِشَارِيّة" ينتظرونَهُ وبعضُهم رافعي سيوفهم وبنادقهم ليمر من تحتها، غيّر وجهته على الفور قائلًا، "هذه علامة الهزيمة"، ولو كان قد مرّ من تحت أسلحة "الإنْكِشَارِيّة"، لكان سَيُفْهَمُ من ذلك أنه استسلم لهم من أوَّلِ يومٍ له في الحُكم، بيدَ أنَّ شخصيّة السلطان سليم لم تكن من النوعِ الذي يُديرُ الدولة حسب حسابات العسكر واعتباراتهم.

إن "الإنْكِشَارِيّة" أرادت أن تُبرْهِنَ للجميعِ على أنها القوّة التي تُحَدِّدُ السلطان الذي يتولّى عرشَ الدولة، كما أنها أرادت إشعار السلطان الجديد

(٨) **ذيذيموتيخو**: بلدة يونانية ومركز لبلديّة تقع في أقصى شمالِ شرقِ البلادِ، وهي تتبعُ مقاطعةَ "إفروس" التي تتبعُ إداريًّا لإقليم "مقدونيا" الشرقية و"تراقيا" الإداري. (المترجم)

بقوتها، وكان بين صفوف "الإنْكِشَارِيّة" مَن يرمي إلى السيطرة على السلطان سليم الأول، الذي وصل إلى العرش بفضلِهم، وتوجيهِهِ كيفما يشاؤون، وأما غريزة السلطان الجديد فكانت لا تقبل مشاركة سلطَتِها مع أيّ قوَّةٍ مهما كانت، لكن لم يكن من الممكن أن يبني السلطان حواجز كبيرةً بينه وبين "الإنْكِشَارِيّة" في مرحلة يُنْتَظَرُ فيها أن تنشبَ الفِتَنُ والقلاقِلُ في أنحاءِ الدولةِ بتحريضٍ من إخوته الأمراء، فبادَرَ في بادئِ الأمرِ إلى توزيع مكافآتٍ على "الإنْكِشَارِيّة" بمناسبةِ اعتلائه العرشَ، ثم أبلغَهم بأنه سيرفع رواتِبَهم، وكان سليم يُدرِكُ أن عليه مُسَايرة الإنكشارية حتى يستتبَّ الأمنُ ويحلّ الاستقرار في الأناضول.

مَرَاسِمُ جَنَازَةِ السلطان "بايزيد الثاني".
(سليم نامه، *62a*)

وفي تلك الأثناء توفّي السلطان السابق "بايزيد الثاني" عقبَ فترةٍ قصيرةٍ من مغادرة القصر في قرية "آبَالَارْ (*Abalar*)" القريبة من مدينة "حَوْزَه (*Havza*)" يوم الخميس الموافق للعاشرِ من يونيو/ حزيران (١٥١٢م).

إعادةُ النظام إلى الأناضول

كان تمرُّدُ الأميرِ أحمد هو أكثرُ الوقائِعِ التي شغلَتْ تفكيرَ السلطان سليم في السنوات الأولى من حكمِهِ؛ إذ استقرَّ الأميرُ أحمد في مدينة "قُونْيَه"

وسط الأناضول، وأخذ يتصرَّفُ وكأنَّهُ حاكم البلاد، وبدأ يُصْدِرُ أوامره، ويحشدُ الجنود، ويعيّنُ حكَّامَ السناجق والولايات، ويجني الضرائب، ويستعدّ لإعلان الحرب على أخيه السلطان، كما أرسلَ ابنه الأمير علاء الدين إلى مدينة "بُورْصَه" في محاولة للسيطرة على المدينة، وأما ابنه الآخر الأمير مراد فقد تأثّر بِفِكْرِ "نور علي خليفة" الذي أرسله الشاه إسماعيل إلى "أَمَاسْيَا" لِنَشْرِ الفكرِ الصفوي الشيعي، وتبنّى أفكارَ شاهِ إيران.

ولم يستطع الأمير أحمد حشد العدد الذي يريده من الجنود، وذلك لأن العديد من جنوده انفضوا عنه لما سمعوا أن السلطان سليم هو الذي اعتلى عرش الدولة.

وقد أرسل الأمير أحمد برقية عزاء إلى أخيه السلطان سليم بمناسبة وفاة والدهما، وطالب بمنحه أراضي الأناضول كميراث، فردّ عليه السلطان سليم بقوله إن هذا الطلب لا يمكن تنفيذه، وإنه لن يفعل له شيئًا في مقابل أن يكون صادقًا وألا يتسبب في المزيد من الفتن، لكن توالت التقارير والشكاوى التي ترصد ما يفعله الأمير أحمد في الأناضول، الأمر الذي أجبر السلطان على التحرك، ومن المؤكد أن السلطان سليم كان سيواجه المزيدَ من المخاطِرِ إن لم يتخلَّصْ من خطرِ أخيهِ الأكبرِ.

لقد اتخذ السلطان سليم قرارًا بمهاجمة أخيه الأمير أحمد، فاستدعَى ابنَه الأمير سليمان المتواجد في مدينة "كَفَه" بِشِبْهِ جزيرةِ "القِرِم"، وأمر بتعيينه وكيلًا له على العرش.

وقد شعر السلطان بفرحةٍ كبيرةٍ عندما رأى السفينةَ التي تُقِلُّ ابنَه الأمير سليمان قادمةً من جانب البحر الأسود بينما كان يتشاور مع رجال البلاد بشأن قضايا الدولة، فأمرَ بالإعدادِ لاستقبالِ ابنِهِ الأميرِ الذي انتقلَ إلى

القصر من خلال مراسم استقبالٍ شاركَ بها أركانُ الدولة كافّة، وعندما وصلَ إلى القصر، احتضَنَهُ والدُهُ السلطان شوقًا له؛ إذ خفّفَ عنه هذا اللقاء ثقل المشاكلِ التي يواجِهُها منذ أشهر، ولو بشكلٍ مؤقَّتٍ.

وخرج السلطان سليم في غزوة إلى الأناضول يوم التاسِعِ والعشرين من يوليو/تموز (١٥١٢م) بعدما أوكل ابنه الأمير سليمان على العرش، وما إن سمع الأمير أحمد، -الذي كان يتصرف في الأناضول كحاكِمٍ وسلطان مطلَقٍ- بِخروجِ أخيهِ السلطان في غزوة ضدّه حتى بدأ يُغيّرُ مكانه باستمرارٍ، وكان السلطان سليم يتلقّى رواياتٍ مختلفة حول مكان أخيه الأكبر، فأرسلَ جزءًا من قوّاتِهِ لتعقُّبِهِ، وفي نهايةِ المطافِ أرسلَ الأميرُ أحمد خطابًا إلى السلطانِ سليم عندما وجدَ نفسَهُ محاصَرًا، قال فيه:

> "...لقد طالَبْتم بالجلوس على العرش مكانَ المرحومِ والِدِنا، وأنا أيضًا طلبتُ المنصبَ نفسه، وقد أرادَ اللهُ ﷻ أن يكونَ العرشُ من نصيبِكم، وفي الوقتِ الذي تصغرونني فيه سنًّا؛ فإنكم قد كافَحْتُم لدعمِ دولتِنا، وكان يتوجّبُ على كِلينا أن نَتَّحِدَ ونتجنّبَ العداء والصراعات وخسارة الأموال والرجال، والآن لا يليق بسمعتي ولا بسمعتكم أن ألجأ إلى الشام أو الشرقِ برفقةِ أبنائي، لأن هذه الوضعيّة ستُفْضِي إلى انتشارِ الفسادِ، ما أرجوهُ هو أن تمنحونني ولاية "قَارَامَانْ" لِأَحْكُمَها وأنا تابعٌ لكم ما حييتُ، ولتنتهي هذه المعارضة والعِناد".

لقد أيّد السلطانُ ورضيَ عن كلامِ أخيهِ الواردِ في بدايةِ الخِطابِ، لكنّه لم يرضَ عن طَلَبِهِ بمنحِهِ ولاية "قَارَامَانْ"، لأنَّ هذهِ المدينةَ كانت قلعةً لمعارضي الدولة العثمانيّة، ولو كان الأميرُ أحمد قد تقدَّمَ بِطَلَبٍ آخر فربما كان السلطان قد قَبِلَهُ، لكن إصرارَهُ على طلبِ منحِهِ ولاية "قَارَامَانْ" كان مبشِّرًا بوقوعِ حوادث جديدة، فأرسل السلطان ردَّهُ في خطابٍ قال فيه:

"ما يلزم المؤمن هو الخضوعُ لله والسعيُ لِنَيلِ رِضاهُ، ومعلومٌ أن هذه الدنيا فانيةٌ، وإذا كان الأمر كذلك، فلا داعيَ للتَّسَبُّبِ في نشرِ الفسادِ والفِتَنِ لتدميرِ الدولة من أجلِ أيّامٍ نعيشُها في هذه الحياة الدنيا".

وأخبره السلطان سليم بأنه إذا أرادَ العيشَ في سلامٍ ووئامٍ في أيِّ قُطرٍ إسلاميٍّ خارج حدودِ الدولةِ العثمانيّة، فإنه لن يَبقى بينهما أيُّ عداءٍ، بل إنه سيخصِّصُ له راتبًا شهريًّا، ولن يتركَهُ يحتاجُ إلى أحد، وحذّره من الوقوعِ تحتَ تأثيرِ أفكارِ مُرَوِّجي الفِتَنِ والساعين لنشرِ الفسادِ في الأرض، وإلا فإنه لن يتراجعَ عن تنفيذِ حكم اللهِ فيهِ.

وفي النهاية غادرَ الأميرُ أحمد إلى خارجِ حدودِ الدولةِ العثمانيّة، وبينما كان السلطان سليم في "أَنْقَرَه"، وفدَ إليها الأمراءُ الذين يحكمونَ السناجقَ المختلفة لِيُعْلِنُوا تبعيَّتَهم له.

كان ما يبدو في الظاهر أنه لا توجدُ أيُّ مشكلةٍ تلوحُ في الأُفُقِ، غير أن السلطان وصله -عندما كان في طريقهِ من "أَنْقَرَه" إلى "بُورْصَه"- خبرٌ يفيدُ بأنَّ الأميرَ أحمد قد عاد وشنَّ هجومًا على "أَمَاسْيَا" وأَسَرَ حاكِمَها، وفي تلك الأثناءِ أُعْدِمَ الصدر الأعظم "قوجا مصطفى باشا" الذي كان يلتقي الأمير أحمد ويحرضه على أخيه السلطان.

كانت لدى السلطان سليم أهداف كبيرة، وكان يلزمه في البداية تحقيقُ الاستقرارِ والأمنِ الداخليّ لدولتِهِ من أجلِ إنجازِ هذه الأهداف، كما كان يجبُ ألا تشهد العاصمةُ أو الأناضول أيَّ فِتَنٍ جديدةٍ أثناءَ خروجِهِ في غزواتٍ بعيدة، فدخل في صراعات مع الأمراء، وكان واضحًا أن الصراعات التي حدثت في سبيل الوصول إلى العرش، وفي مقدِّمتها الصراعُ الذي

حدثَ في عهدِ والدِهِ، قد تسبَّبَتْ في مقتلِ العديد من الأشخاص وإضعافِ الدولة، ولهذا السبب رَسُخَ لدى العثمانيين لِقرون تَلَتْ تلك الحقبة مبدأُ ألَّا يكونَ للسلطانِ شريكٌ أو منازعٌ على العرش.

كان السلطان سليم يحمل شكوكًا في قلبه تجاه إخوته الأكبر منه، فأمر بكتابة خطابات تدعوهم إلى محاولة اعتلاء العرش على لسان أنصارهم، وكان هدفه من ذلك التصرُّف هو معرفةُ ردِّ إخوتِهِ على هذه الدعوة، فجاءت الردودُ بالإيجابِ على خطاباته، وكان إخوتُهُ الأمراءُ يُسيطِرُ عليهم حبُّ التمرُّدِ عليه وإسقاطِهِ واعتلاءِ العرشِ مكانه، وهو ما لم يتركْ أمامه الكثير من الخيارات.

ولقد جرى أطولُ فصلٍ من فصولِ صراعِ السلطةِ مع الأمير أحمد، وبعدما تخلَّصَ منه، شعرَ السلطان بالحزنِ بدلًا من أن يفرحَ، واغتمَّ كثيرًا بسببِ وصول الأمر إلى هذه الدرجة، حتى إنه أقام "مأتمًا" لأخيه.

لقد تخلّص السلطان سليم في بدايةِ عهدِهِ من كلِّ إخوتِهِ وأبنائهم الذين كان من الممكن أن يتسبَّبوا في نشرِ الفِتَنِ، وأثبتَ للجميع أنه يضعُ كلَّ شيءٍ في اعتباره من أجلِ بقاء الدولة واستقرار نظام الحكم، ولم يكن لديه وقتٌ للدّخول في صراعٍ على العرش مع إخوتِهِ في حين يحدِّقُ بدولَتِهِ خطرٌ كبيرٌ من الناحيتين الدينيّة والسياسيّة في الشرق -أي الدولة الصفويّة- وقد ضحّى بإخوتِه حتى لا يُضحَّى بإخوةِ آخرين.

وكان هذا الحلُّ هو أكبر قضيّةٍ واجهت جميع الدول التي يحكمها شخصٌ واحدٌ، وكانت دُوَلٌ عدّة قد أوجدت حلولًا وصلت حتى إلى قتْلِ النساءِ، غير أنّ السلطانَ سليم أوجد حلًّا مناسبًا له؛ إذ يجبُ تقييمُ هذه التطوُّرات وفق ظروف ذلك العصر لا وفقَ ظروفِ عصرِنا الحاليّ.

الحرب بين الأخوَين: "الأمير سليم" و"الأمير أحمد".
[في اليمين يظهر الأمير سليم وجنوده]. (سليم نامه، *83b*)

الحملة على الشرقِ

بعدما وَأَدَ السلطان العثماني الجديدُ الفِتَنَ المحتملة التي تُهدِّدُ العرشَ؛ غادرَ مدينة "بُورْصَه"، ووصل إلى إسطنبول مرورًا بشبهِ جزيرةِ "جَلِيبُولو (*Gelibolu*)"، ومكثَ في العاصمة عدة أيام، ومن ثم عيّن حكامًا جددًا في سناجق الأناضول، لا سيما المناطق التي كان يحكمها الأمير أحمد وأبناء سائر إخوته الآخرين.

وأسند إدارة سنجق "مَانِيسَا" إلى ابنه الأمير سليمان المتواجد في مدينة "كَفَه" بشبْهِ جزيرة "القِرِم"، انتقلَ بعدها من إسطنبول، العاصمة الثالثة للدولة العثمانية، إلى "أَدِرْنَه"، العاصمة السابقة للدولة والتي كان يحبُّها أكثر من إسطنبول، وفي "أَدِرْنَه" أعدّ العدَّةَ للخروجِ في غزوات جديدة، كما تابع التطورات التي تحدث في الغرب، وفي تلك الأثناء كانت أوروبا تموجُ بالحركات الإصلاحيّة، واعتبر السلطان أن هذه الوضعية تعتبر فرصة قُدِّمت إليه على طبقٍ من فضّة من أجل التخلُّصِ من الخَطَرِ الذي يُهَدِّدُ دولتَه من الشرق، فقضى فصلَ الشتاء بأكمَلِهِ في "أَدِرْنَه".

وكان أهم الملفّات المطروحةِ أمام السلطان الجديد هو خطر الشاه إسماعيل الصفوي الذي تسبب في حدوث تمرُّداتٍ وصراعاتٍ أفضت إلى أحداث كبيرة في الأناضول على مدار عشرِ سنوات، وذلك من خلال قلبِ نظام الحكمِ في الأناضول رأسًا على عقب والتسبُّبِ في إخلاء القرى وتهجير سكّانها، وكان التركمان في مدن "قَارَامَانْ" و"أَنْطَالْيَا (*Antalya*)" و"مَرْسِينْ (*Mersin*)" يدعمون الشاه الذي بدأ يلقى دعمًا كذلك من الفئات المتضرِّرَةِ جرَّاء التصرُّفات الفظّةِ لِبعض الإداريّين العثمانيين وفرضهم ضرائب باهظة،

وكان السلطان قد لَحَظَ هذا الخطر عن كَثَبٍ خلال فترةِ إمارتِهِ الطويلة في "طِرَابْزُونْ" فيما بين عامي (١٥٠١-١٥١٠م)، كما كانت نيرانُ الفتنة التي أشعَلَتْها ثورات "شَاهْ قُولُو" و"نوري علي خليفة" في الأناضول تُحتِّم على السلطان سليم اتخاذَ التدابير اللازمة في أسرع وقتٍ لِوَقْفِ تهديدِ الصفويّين الدينيّ والسياسيّ.

وتروي مصادرُ التاريخ العثماني بوضوحٍ تام ما كان يفعله الشاه إسماعيل؛ إذ تُشيرُ إلى أنه كان يظلم -بشكل غير مسبوق- سكَّان المناطق التي استولى عليها من أجل فَرْضِ مذهبه الشيعي عليهم ويُجْبِرُهم على ذلك، كما لم يعترِفْ بحقِّ الحياة لأولئك الذين ظلوا على مذهبهم السني، ونرى نماذج لهذا الظلم في المذابح الجماعية التي ارتكبها نظام الشاه في مدن "أصفهان" و"فارس" و"يَزْد" و"كِيرْمَانْ" و"خراسان"؛ إذ تعرَّضَ سكَّان تلك المناطقِ ذات الأغلبيّة السّنّية إلى مجازر بشعةٍ لأنهم لم يتحوّلوا إلى المذهب الشيعي الذي كان يعتنقُهُ الشاه.

ولِفَهْمِ خطورةِ هذه المسألة، يروي المؤرِّخ العثماني "ابن كمال" -الذي عاصر تلك الحقبة- أن جيشَ الشاه إسماعيل قتلَ من قبيلة "آقْ قُويُونْلُو" في "تَبْرِيز" وحدها ما بين أربعين إلى خمسين ألف (٤٠٠٠٠ - ٥٠٠٠٠) شخص، وأنه بسطَ نفوذَهُ على المدينة بسهولةٍ تامة، كما ارتكب مجازر وحشيّة بِحَقِّ سكّانها من التركمان دون أن يفرِّقَ بين الرجال والنساء والشباب والأطفال، وينقل "ابن كمال" أن مقابر المدينة نفسها لم تَسْلَمْ من هجمات جيش الشاه الحاقِدِ، كما يروي أن الشاهَ قتلَ أُمَّه بِيَدِهِ والتي هي ابنةُ "حسن خان"، لقد قتلها لأنها عارَضَتْهُ، وكان المؤرِّخُ التركيّ المعاصرُ "فريدون أَمَجان" -الذي يُعْتَبَرُ أوَّلَ كاتب سيرةٍ ذاتيّة علميّة عن السلطان

ياووز سليم-[٩] قد لاحظَ أن المؤرِّخَ الرحالةَ الإيطالي "جيوفاني ماريا أنجيوليلو (*Giovanni Maria Angiolello*)" (ت: ١٥٢٥م)، الذي كان معاصرًا لتلك الحقبة، قد كرّر المعلومات التي أوردها "ابن كمال" بعبارات مشابهة بشكلٍ عجيب، وقد أكَّد "أَمَجان" ذلك في كتابه.

فيقول أنجيوليلو:

> "...عاملَ الشاهُ إسماعيل خصومَه أبشعَ معاملةٍ، لدرجة أنه أمر جنوده بتمزيق أجسادِ معْظَمِ أهالي "تَبْرِيز"، ولم يفرّقْ بين كبيرٍ وصغيرٍ، وفي النهاية خضع سكّان تلك البلاد والمناطقِ المحيطة بها لأوامرِهِ، وارتدى سكان المدينة كافّة القبعات الحمراء التي تعتبر شعاره، وقد لقي أكثر من عشرين ألف شخصٍ مصرعهم في هذه المجازر، كما أمرَ الشاهُ باستخراجِ رفاتِ بعضِ أعيان المدينة وإحراقه، وأَمَرَ بِقَتْلِ والدتِهِ".

ولا ريب في أن توافقَ المعلومات التي قدّمها المؤرخان سالفا الذكر من المصادر الأولى، واللذان عاصرا الحقبة نفسَها لكنهما لم يلتقيا أو يسمع أحدهما عن الآخر قطُّ، يعتبرُ دليلًا واضحًا وجليًّا على المجازر التي ارتكبَها الشاه إسماعيل في "تَبْرِيز"، ويروي "أَمَجان" أن المؤرِّخَ الصفويَّ "حسن روملو" -الذي عاش في فترة قريبة من ذلك العصر- يُورِدُ معلوماتٍ حول وقوعِ مثلِ هذه المجازر، ويوردُ المؤرِّخُ الإيراني أنَّ جيشَ الشاه إسماعيل قتَلَ قرابةَ خمسة عشر ألف شخص من سكّان المدينة من المدنيّين العُزَّلِ ما بين كبير وصغير، عقب السيطرة على قلعة "قَارْشِي (*Karşı*)"، حتى إن بعضَ السادةِ المنتسِبين لأهلِ بيت النبي ﷺ احتموا بالجامع، لكن جنودَ الشاه قتلوهم بالرغم من قولهم إنهم ينحدِرون من نسلِ سيدنا علي رضي الله عنه،

(٩) أ. د. فريدون أمجان (*Prof. Dr. Feridun Emecen*): **السلطان ياووز سليم** (*Yavuz Sultan Selim*)، اللغة التركية، دار النشر: *Yitik Hazine*، الطبعة الثالية (٢٠١١م)، عدد الصفحات: ٤١٦. **(الناشر)**

صورة تقريبية لـ"الشاه إسماعيل"

وذلك بعدما أخبروهم بأنَّ: "الغزاةَ يَقتلُون جميعَ سكّان المدنِ التي يستولون عليها بالحرب، ولا يُفَرِّقون بين الكبيرِ والصغيرِ ولا بين الشريفِ والوضيع".

لم تسمح الحركة الصفويّة التي قادها الشاه إسماعيل بانتشار أي مذهب مخالف للمذهب الذي يعتنقه الشاه في المناطق التي سيطر عليها؛ إذ بادرت الحركة إلى تطبيق سياسة العنف من أجل إثناء السكان المحليين عن معتقداتهم وفرضِ المذهبِ الشيعيّ عليهم، وفي المقابل نرى أن العلويين عاشوا في حرِّيَّةٍ دينيّة وسلامٍ مجتمعيٍّ داخلَ حدودِ الأراضي العثمانيّة، ولا شك في أن هذه النقطةَ تُصَحِّحُ المعلومةَ المغلوطَةَ التي وصَلَتْ إلينا بشأنِ أن السلطان سليم الأوَّل أمرَ بِقتل أربعين ألف علويّ، ولهذا السبب

فَمِنَ المفيدِ تثمينُ هذا الموضوع في حالةٍ من الهدوء والإنصاف التاريخيّ، وانطلاقًا من هذه الفكرة، فمن الواضح أن محاولة استخراجِ الأحقادِ من التاريخِ وانتظار تحقيق مصلحةٍ من وراء هذه النقاشات وإذكاءِ نيرانِ العداءِ داخلَ المجتمعِ لن يصلَ بنا إلى نتيجةٍ سوى إفساد السلامِ الاجتماعي، وسنورِدُ في آخر هذا الكتاب الذي بين أيديكم معلومات أكثر تفصيلًا تتعلَّق بهذه التهمةِ المنسوبة إلى السلطان سليم.

لقد أدار الشاه إسماعيل أنشطته بحرفية عالية، وأخفاها، واستطاع خداع البدو الرحّل من التركمان، وبدأ يروّجُ لدعايةٍ شيعيّة من خلال شخصيّة "المهدي المنتظَرِ"، وكان هؤلاء الدعاة أو المروّجون الذين يطلق عليهم لقب "الخليفة" يترددون على المناطق التي يقطنُها التركمان ممن يحملون عقائدَ مشابهة في الأناضول، ويقدّمون إليهم الهدايا المتنوّعة، ويَعِدُونهم بحياةٍ أكثر حرّيّةً ورفاهية، وكان هناك بعض الجماعات التركمانية التي كانت تابعةً -قبل دخولِ الإسلام إلى وسط آسيا- لزعماءَ دينيّين يُعرّفون أنفسَهم بأنهم شكلٌ من أشكال حلولِ الإلهِ في جَسَدِ الإنسان، وكان هؤلاء التركمان يتسبَّبون في حدوث الفِتَنِ والاضطرابات، وبعدما اعتنقوا الإسلام واصلوا الاعتقاد بهذه العقائد، ومن ثم بدؤوا يتبنّون هذه المعتقدات التي روَّجَ لها رجالُ الشاه.

وثمة اختلافاتٌ كبيرةٌ بين المذهبِ الشيعيّ السائدِ في إيران والمذهب العلوي المنتشر في الأناضول، فالمذهب المنتشِرُ في إيران، فضلًا عن حبّ سيدنا علي ﷺ؛ فإنه يستنِدُ إلى كراهيةِ الشيخين أبي بكرٍ وعمر بن الخطاب ﷺ لأنهما تسبَّبا في إسقاطِ الإمبراطورية الفارسيّة، وإذا ثمّنَّا هذا الأمرَ في ضوءِ هذه المعلومات؛ يكون من الخطإ أن نُطْلِقَ لقبَ الشيعةِ على الفِئاتِ

التي كان يُطْلَقُ عليها "قِزْلْباشْ (*Kızılbaş*)"[١٠] أو "الروافض" في الأناضول، فالنظامُ العقديُّ لدى هؤلاءِ كان قد تشكَّل وفقَ الأخلاقيات الصّفويّة، وأصبحَ نوعًا من أنواع "الإسلام الشعبيّ".

لقد كان نكاح المتعة أو النكاح المؤقت، المنتشر لدى الشيعة، إجراءً إيرانيًّا آخر لم يقبل العثمانيون تطبيقه في دولتهم، وكان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ قد ألغى هذه العادة المنحرفة عندما فتح إيران، ولأن الإيرانيين لا يحبون هذا الخليفة ويفعلون عكس كل ما فعله، فقد أعادوا الحياة إلى هذا النوع من النكاح المحرم تمامًا في الإسلام، وهم بهذا النوع من النكاح المؤقت يصبغون الزنا بصبغة الدين على حسب أهوائهم، وذلك بالرغم من كونه من الكبائر في الإسلام.

وبخلاف نكاح المتعة، كان الزواج العادي كذلك مصدر خلاف بين العثمانيين والإيرانيين، وبالرغم من أن التدابير الصارمة والمناسبة التي اتخذها السلطان سليم الأول قد حالت دون انتشار نفوذ الصفويين السياسي داخل الأراضي العثمانية، فإن التأثر الثقافي استمر كذلك بحُكْم جِيرَة الدولتين، ولقد حظر العثمانيون زواج الفتيات التركيات من الإيرانيين من أجل الحيلولة دون انتشار الأفكار والثقافة الصفوية الشيعية في الأناضول، ويذكّرنا هذا الحظر بالحكم الشرعي الذي ينص على عدم تزويج المسلمات بغير المسلمين، وطُبّقت قاعدة "لا لتزويج التركيات من الإيرانيين، ومَن يفعل ذلك يستحق العقاب"، واستمر تطبيق هذه القاعدة، بدلًا من تخفيفها، في العصور اللاحقة التي شهدت جهودًا للتحديث، حتى إن هذا الموضوع

(١٠) "قِزْلْباشْ": تعني ذوي الرؤوس الحمراء، وهي مجموعة من الجنود الشيعة الذين عينتهم الدولة الصفويّة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، وقد كان يُقْصد بها السنة العثمانيون كاسم ساخر، ولكن لاحقًا أخذت كعلامة شجاعة من قِبَل الصَّفَوِيّين. (المترجم)

جرى تناوله في اللوائح القانونية التي صيغت في القرن التاسع عشر، وقد استمر هذا الإجراء حتى سقوط الدولة العثمانية وإعلان قيام جمهورية تركيا عام (١٩٢٣م).

لقد كان الشاه إسماعيل قد استأذن السلطان بايزيد الثاني لعبور الأراضي العثمانية عام (١٥٠٧م) من أجل الإغارة على قبيلة "ذي القادر"، وفي عام (١٥١٠م) هزم الشاه "خان الأوزبك محمد الشيباني"، وقتله وأرسل رأسه إلى السلطان بايزيد الثاني من أجل إعلامه بالنصر، وكان هذا التصرف يعني احتقار السلطان العثماني، وكان السلطان سليم قد شهد هذه الواقعة عندما كان أميرًا، وكان يفكر دائمًا في حماية اعتبار الدولة العثمانية، ولهذا فشخصيته لا تتحمل استصغار قدر دولته في أي وقت، وكانت هذه الواقعة من العناصر التي أفسدت علاقاتِ الدولتين ببعضهما.

وبينما كان السلطان سليم يتابع هذه القضايا الاقتصادية والسياسية، كان يستفتي علماء الدين ويسألهم عن الجانب الشرعي لهذه القضايا، وكان يسعى لإكساب كل خطوة يخطوها الصبغة الشرعية.

وقد نشر علماء الدين فتاوى بشأن ضرورة خروج السلطان سليم في غزوة ضد الدولة الصفوية، وكانت هذه الفتاوى تنص على أن ما يقترفه الشاه إسماعيل وأتباعه ليس له أدنى علاقة بالدِّين الإسلاميّ، بل إن ما يقترفونه يعني أنهم خرجوا عن الدين بالكليّة، كما صدرت فتاوى تكفّر مَن لا يقبل بخلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل (أبو بكر وعمر وعثمان) ﷺ، وكذلك أولئك الذين يعترفون بعدم انتسابهم إلى المذهب السنّي.

لم يستعجل الشاه إسماعيل لعدم معرفته بنتيجة الصراع بين أبناء السلطان بايزيد الثاني لخلافته على العرش، كما أنه لم يرسل أي رسول

من أجل التهنئة باعتلاء السلطان سليم العرش، وكان هذا التصرف مخالفًا للعادات الدبلوماسية السائدة في تلك الحقبة، وكذلك كان إشارة على العداء بين الدولتين، وعندما عَلِم الشاه أن السلطان سليم قضى على خطر أخيه الأكبر الأمير أحمد وتخلص منه، لم يظهر أي علامة على صداقته للسلطان الجديد.

ولقد ساءت العلاقة بين الدولتين العثمانية والصفوية أكثر بسبب دخول الأمير مراد بن الأمير أحمد تحت حماية الشاه إسماعيل الذي استقبل الأمير العثماني في شتاء عام (١٥١٣م)، وأسند إليه إدارة منطقة من ولاية فارس، وقد أرسل أمير منطقة "مَالَاطْيَا (*Malatya*)" التابعة للدولة المملوكية خطابًا إلى البلاط العثماني قال فيه إن الشاه إسماعيل كلّف الأمير مراد برفقة "دَوْ علي سلطان (*Dev Ali Sultan*)" بالإغارة على أراضي الأناضول، وتشير بعض المزاعم إلى أن الأمير مراد حاول إقناع الشاه بأنه إذا هاجموا الأناضول فإن سكان تلك المنطقة سيخضعون لهم، ولتحقيق هذا الهدفِ تقدَّمَ حتى موقع يقال له " جُكُورْ سعد (*Çukursaad*)" يُرافِقُهُ ألفُ رجلٍ، وأما الشاه فكبحَ جماحَ الشاب المتحمِّسِ، وأصدر تعليمات جديدةً تفيدُ وجوبَ انتظاره وعدم التقدّم أكثر.

لقد أرسل السلطان سليم مبعوثًا إلى الشاه إسماعيل يطلب تسليم الأمير مراد، غير أن الصفويّين قتلوا الرسول العثمانيّ، ما يعني أن السلطان لن يسامحهم أبدًا، هذا فضلًا عن أن الشاه أرسل "نور علي خليفة"، ووجَّهَهُ بطريقةٍ مباشرةٍ من أجل حشدِ الأنصارِ في الأناضول، وعندما تسبَّبَ هذا الشخصُ في وقوعِ تمرُّداتٍ دَعَمَهُ الشاهُ، فكان هذا الفعلُ خيرَ دليلٍ على النيّة السيّئة للشاه إزاء الدولة العثمانية في أثناء الصراع الذي كان دائرًا بين أبناء السلطان "بايزيد الثاني" لخلافتِهِ على عرشِ الدولة.

ووقَعَتْ حادثةٌ مشابهةٌ لحادثة "نور علي خليفة"؛ إذ أرسل الشاه خطاباتٍ سرّيّةً إلى قبيلة "بني تُورْجُوتْ (*Turgut*)" عَقِبَ فترةٍ قصيرةٍ من اعتلاءِ السلطان سليم عرشَ الدولة، وطلبَ الشاه في خطاب أرسله بتاريخ الثالث والعشرين من مايو/أيار (١٥١٢م) من "موسى تورجوت أوغلو" أن يرسل "أحمد قَارَامَانْلِي" إلى هناك وأنه يطالبه فيه بأن يتَّبعه للتحرك معًا، وهذا الخطاب محفوظ اليوم في أرشيف قصر "طُوبْ قَابِي" بإسطنبول، وهو ما يُبرهِن على نجاح جهاز الاستخبارات في الدولة العثمانية، وكان رجال الاستخبارات العثمانيّون قد حصلوا على الخطاب قبلَ أن يَصِلَ إلى هدفه، فأرسلوه إلى السلطان سليم حتى يطّلع على ما فيه من معلومات.

لقد انتقلت عملية الإشراف على طرق التجارة الدولية الموصلة إلى الأناضول إلى الصفويين، الأمر الذي كان يعني خسارة اقتصادية فادحة بالنسبة للدولة العثمانية، وكان العثمانيون يعلمون كل شيء عن أنشطة الشاه مثل مساعيه لتوفير الأسلحة النارية من البندقية، وإرساله خمسة وفود من محترفي صناعة المدافع إلى أوروبا، وتشكيل تحالف ضد الدولة العثمانية.

وكان السلطان سليم يفكر في أن الطريق الوحيد للقضاء على خطر الإيرانيين هو الدخول في حربٍ ضدّهم؛ إذ دفعتْ تطوُّراتُ الأوضاعِ السلطانَ العثمانيَّ إلى حافَّةِ إعلانِ الحربِ، وفي الوقتِ الذي عزمَ السلطان سليم على الخروج في غزوةٍ ضدَّ الصفويّين، لم يكن الشاهُ إسماعيل يفكِّرُ في خوضِ حرب ضدَّ العثمانيين، بالرغم من التصرفات العدوانية التي كان يقوم بها.

ويمكن توضيحُ هذه الوضعيّة العجيبة على النحو التالي: في الوقت الذي كان فيه السلطان سليم يُعِدُّ للحرب؛ كان الشاه إسماعيل يُحاوِلُ دعمَ حليفِهِ "بَابُورْ (*Babür*)" من أجل استعادةِ مدينتي "سَمَرْقَنْد (*Semerkand*)" و"بُخَارَى (*Buhara*)"، لكنه لم يستطع الوصول إلى نتيجة، وعقب بعض

النجاحات الصغيرة التي حقَّقها، فقد هُزم في معركةٍ دخَلَها ضدَّ الأوزبك مع حلفائِهِ في موقعة "جُوجْدُووَانْ (*Gücdüvan*)" في نوفمبر/تشرين الثاني عام (١٥١٢م) وولى هاربًا يجرجر أذيال الهزيمة.

وعقبَ هذه الهزيمةِ ظهرَ خطرٌ جديدٌ يهدِّدُ كيانَ الشاهِ إسماعيل، فقد بدأ الأوزبك يتدفَّقون كالموجِ على "خراسان"؛ إذ أصبَحَتْ هذه الغارات تزعجُ الصفويّين.

وكأنَّ كلَّ ما سبقَ لم يكفِ لإزعاجِ الشاهِ، فخرجَ الأخُ غيرُ الشقيقِ للشاهِ "ميرزا سليمان"، وقادَ محاولةَ انقلابٍ للسيطرة على الحكم في "تَبْرِيز"، لكن الشاهَ تخلَّصَ من هذا التهديدِ وأجهضَ محاولةَ الانقلابِ هذه، وأعدمَ "سليمان".

وكان آخر شيءٍ يمكن أن يفكِّرَ فيه الشاهُ إسماعيل في ظلِّ هذه الظروف غير المستقِرَّةِ هي الحرب ضدَّ العثمانيّين، ولم يكن ينتظر أن يدخلَ في صراعٍ مع جيرانِهِ الأقوياء على الحدود الغربية -أعني العثمانيين- في حين كان أعداؤهُ ينتظرون الفرصة السانحةَ، وبالرغم من هذا فقد أسرعَ من وتيرةِ فعاليّاتِهِ ونشاطاتِهِ الراميةِ لإضعافِ قوى العثمانيين، وواصلَ تحريضَ أنصارِهِ كما أسلَفْنا.

وهكذا كان الشاهُ عازمًا على ضربِ العثمانيّين مستغلًّا اضطراباتِ دولَتِهم الداخليّة، لكنه كان يستطيع أن يخمِّنَ ماذا يُمْكِنُ أن يحدثَ له لو فشلَ في تنفيذ هذا المخطَّطِ.

ولما همَّ السلطان سليم بالخروج في الغزوة ضدَّ الصفويّين أرسلَ -قبل الغزوة- رسولًا إلى قصرِ الشاهِ إسماعيل لِطَلَبِ تسليمِ الأمير مراد، كما أخبرَ الشاه بأن ولاية "ديار بكر" انتقلت إليه عن طريق الوراثة، ومن ثم طالبه بإعادتها، وقد التقى مبعوثو السلطان سليم الشاهَ إسماعيل في "أصفهان"،

وكان السلطان سليم على علم باستخدام الأمير مراد التكتيك المطبق منذ العهد البيزنطي من أجل جعل العثمانيين في موقف محرج.

وهناك احتمالٌ كبيرٌ أن يكون السلطانُ سليم قد طلبَ إعادةَ ولايةِ "ديار بكر" إلى دولتِهِ كنتيجةٍ لقربِهِ من "مراد" المنحدِرِ من قبيلة "آقْ قُويُونْلُو"، والموجودِ في القصر العثماني، هذا فضلًا عن أن السلطان اصطحبَ مراد هذا معه في غزوة "جَالْدِيرَانْ"، وأراد من وراء ذلك البرهنةَ أمام الجميع على أن استيلاء الشاهِ على إرثِ دولةِ "آقْ قُويُونْلُو" غيرُ مشروعٍ.

رفضَ الشاه إسماعيل تنفيذَ مطالبِ السلطان سليم، وأخبره بأن الأمير مراد هو ضيفُهُ، وأنه لا يمكن تسليمُ ضيفٍ لجأَ إليه، فيما ردَّ بشكلٍ أكثر هدوءًا على مسألةِ الميراث، وشدّد على أن ولاية "ديار بكر" تُعْتَبَرُ حقًّا له حصلَ عليه عن طريقِ الفتحِ.

وقرَّرَ السلطان سليم التحرُّكَ فعليًّا لغزوِ أراضي الصفويّين، فاجتمعَ بثلاثةٍ من وزرائِهِ لوضعِ إستراتيجيّةٍ للغزوة، وبالرغم من أن الصدرَ الأعظمَ "هرسك زاده أحمد باشا" اعتذرَ عن حضورِ الاجتماعِ بسببِ المرض، إلا أن السلطان أصرَّ على حضورِهِ، فحضرَ إلى الديوان بصعوبةٍ بالغةٍ.

وشرح السلطان في هذا الاجتماع مجدَّدًا أسبابَ الخروجِ في هذهِ الغزوةِ، وشدَّدَ خصوصًا على أنه كيف يحتقر دولة الشاه إسماعيل، غير أن الباشاوات الحاضرين في الديوان لم يكونوا يُرحِّبون كثيرًا بهذه الغزوة، وأبلغوه أنهم يعتبرون الخروجَ في هذه الغزوةِ جاءَ مبكِّرًا في وقتٍ لم تهدأْ فيه الاضطراباتُ في الأناضول، هذا فضلًا عن وصولِ أنباء تفيد بأن فرسان "التيمار" غير راغبين في الخروج في غزوة في الوقت الحالي.

وفي الوقت الذي كان فيه الجنود مرتاحين أيام السلطان "بايزيد الثاني" بسببِ عدمِ الخروج في غزوات؛ إلا أنه حان وقتُ إفسادِ هذهِ الراحةِ في عهدِ خَلَفِهِ السلطان سليم، ومن المحتَمَلِ أن يكون الصدرُ الأعظمُ "أحمد باشا" قد أخذَ هذه الوضعيّة بعينِ الاعتبارِ، وأوصى السلطان باتّباع السياسات التي كانت متبعة أيام والدِهِ في الوقتِ الحاليّ.

لكن السلطان سليم تعصَّبَ كثيرًا لخِيارِ شنِّ الهجومِ وإعلانِ الحرب، لا سيّما وأنه كان يُدْرِكُ حجمَ خطرِ الصفويّين منذ أن كان أميرًا على "طِرَابْزُونْ"، فشرحَ للحاضِرِينَ خطورةَ الموقِفِ، وأصدرَ أوامرَهُ بالبدءِ بالإعداداتِ العسكريّة على الفورِ من خِلالِ الآراء التي تدعمُه.

obeikandl.com

التطوُّراتُ في الغربِ والاستعدادُ للغَزْوِ

في الوقت الذي حاول فيه السلطان سليم اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة التهديدات القادمة من الشرق؛ كان البابا في الغرب يدعو لِشَنِّ حملةٍ صليبيّةٍ ضدَّ الدولة العثمانيّة، وبالرغم من دعوة البابا لهذه الحملةِ؛ إلا أن العلاقاتُ بين المجرِ والإمبراطوريّة الرومانية قد شَهِدَتْ تطوُّرات بمناسبة اعتلاء السلطان سليم عرش الدولة العثمانية، وتحول هذا الانتعاشُ الدبلوماسي إلى دليلٍ على حسنِ نيّة كِلا الطرفين، ولقد رجا الإمبراطور "ماكسيمليان الأول (*Maximilian*)" ملكَ المجر "فلاديسلاف (*Vladislav*)" أن يُشرِكَهُ في علاقةِ الصداقة التي بينه وبين السلطان العثماني، وأرسل خطابًا إلى السلطان سليم بتاريخ ما بين الثاني إلى الثامنِ من فبراير/شباط (١٥١٣م) يهنِّئُهُ على اعتلاءِ العرشِ، ويُخْبِرُهُ بأَمَلِهِ في أن تستمرَّ علاقاتُ الصداقَةِ بينهما كما كانت في عهدِ والدِهِ، كما أعربَ الإمبراطورُ الرومانيُّ عن رجائِهِ في انضمامِهِ إلى وتيرةِ السلامِ القائمةِ بين الدولةِ العثمانيّةِ والمجرِ بواسطة ملكِ المجرِ الذي وصَفَهُ بالملِكِ الشقيقِ.

وكان من مبادئِ السياسةِ الخارجيّةِ الأساسيّةِ للدولة العثمانيّة ألا تتبنَّى العداء إزاءَ طرفٍ في وقتٍ تدخلُ فيهِ في حربٍ مع طرفٍ آخر، وكان مهمًّا للغايةِ أن تكونَ العلاقاتُ مع الغربِ جيّدَةً في وقتٍ يُحدق فيه بالدولة خطرُ "الشاهِ" من الشرق، وألا يطرأ أيُّ تهديدٍ من الغربِ في وقتٍ يستعدُّ فيه السلطان سليم للخروجِ في غزوةٍ شرقيّة، وكان السلطان ممتنًّا للتطوُّرات التي تشهدُها أوروبا.

فأرسل السلطان سليم خطابًا إلى ملك المجر "فلاديسلاف" بتاريخ الثامن من يناير/كانون الثاني (١٥١٤م) أعربَ فيه عن امتنانِهِ بزيارةِ الوفدِ الدبلوماسيّ برئاسةِ "بَارْنَابَاسْ بَلَايْ (*Barnabas Belay*)" من أجلِ مواصلةِ السلامِ القائمِ بين الدولَتَين، وقد أراحت هذه الحركةُ الدبلوماسيّةُ السلطانَ كثيرًا، ذلك أنه اعتبارًا من عام (١٥١٣م) كانت المناطق الحدودية تشهد تحرّكات مُريبَة، كما زادت الاشتباكاتُ الحدوديّة بمرور الوقت، وكذلك كانت دعوةُ البابا للخروج في حملة صليبيّةٍ ضدَّ الدولةِ العثمانيّة سببًا في خلقِ قلقٍ لدى السلطان من أيّ تهديدٍ يأتي من الغرب.

لقد كان بإمكان أيّ حملةٍ صليبيّةٍ تأتي من الغرب -بينما كان الجيش العثمانيُّ في طريقِهِ نحو الأراضي الإيرانية- استئصال شأفة العثمانيين، ولهذا السبب أولى السلطان سليم اهتمامًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى بتأمينِ حدودِهِ الغربيّة بينما كان في طريقِهِ لغزوةٍ شرقيّة، والآن أصبحت القضايا بين الدولة العثمانية والغرب ساكنةً هادئةً بعضَ الشيء من خلالِ مواثيقِ الصداقةِ، وصارت إيران هي الهدف الوحيد أمام السلطان.

وأكمل السلطان سليم استعداداتِهِ، وتحرّكَ من "أَدِرْنَه" إلى إسطنبول صبيحة يوم العشرين من مارس/آذار (١٥١٤م)، كما استدعى الأميرَ "سليمان" من "مَانِيسَا"، وأسندَ إليه عرشَ الدولة بالوكالةِ، ثم فرضَ حصارًا تجاريًّا على الصفويّين الذين كانوا يسيطِرون على الطرقِ التجاريّة، وفي مقابل ذلك أُغْلِقَت الحدودُ بين الدولَتين بالكاملِ، وحِيل دونَ عبورِ التجَّار، كما فتحَ السلطان سليم قناةَ اتصالٍ مع "الأوزبك" الذين هم ألدّ أعداءِ الصفويّين.

لقد زارَ السلطانُ سليم مسجد الصحابيّ الجليلِ أبي أيوب الأنصاري ﷺ وضريحه، ثم بعدَ ذلك زارَ قبرَي جدّهِ السلطان محمد الفاتح ووالدِهِ

السلطان "بايزيد الثاني"، وتكرَّمَ بالمالِ على القائمين على القبرَين، وقد أصبحَتْ هذه الزيارات عادةً لدى من جاءَ بعدَ السلطان سليم الأول؛ إذ سيُبادِرُ كلُّ سلطانٍ عثمانيٍّ قبلَ الخروج إلى الغزو إلى زيارة ضريح أبي أيوب الأنصاري ﷺ، ثم قَبري السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم الأول.

وانتقلَ السلطان إلى منطقةِ "أُوسْكُودَارْ" بإسطنبول، وأمرَ بإقامةِ خيمتِهِ في تلك المنطِقة، وعندما وصل إلى مدينة "إزميت"؛ أُلْقِيَ القبضُ على جاسوسٍ صفويٍّ يجمعُ المعلومات عن القوّات العثمانية، فأرسلَ السلطان سليم هذا الجاسوس كرسولٍ إلى إيران، وأرسلَ معه خطابًا إلى الشاه إسماعيل يدعوه للمرة الأخيرة إلى التوبة واتباع السنة النبوية المطهّرة، مخبرًا إيّاه بأنه لو فعل هذا فلن يبقى ثمة حاجةٌ للحرب، وإلا فإنه سيتحرك بجيشِهِ من أجلِ القضاءِ على هذا الظلمِ وتطبيقِ شرعِ الله.

لقد وصلَ السلطانُ سليم إلى مدينة "قُونْيَه" وسط الأناضول في شهر يونيو/حزيران (١٥١٤م)، وزارَ أضرحةَ "جلال الدين الرومي" (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) و"صدر الدين القونوي" (ت: ٦٧٣هـ/١٢٧٤م) وسائر حكام الدولة السلجوقية، وعندما وصل إلى "سِيوَاسْ"؛ أمرَ بإحصاء عدد جنودِهِ، وأعادَ قِسْمًا منهم؛ إذ كان السلطانُ يُرجِّحُ أن يحاربَ بجيشٍ أقلّ عددًا سهلِ القيادة مرنِ الحركةِ سريعِ التنقُّلِ، يتكوّن من وحداتٍ تستطيعُ القتالَ بشكل جيّد، وكان السلطان سليم يبذل جهدًا حثيثًا لتشكيلِ جيشٍ يستطيعُ عبورَ جميعِ أنواع العوائقِ الطبيعيّة بسرعة ومهارة، ولا يضمّ في صفوفِه إلا المهرة، ويُفضِّلُ الثلّة من هؤلاء على جيشٍ عرمرمٍ جرارٍ عديمِ الخبرة.

وفي تلك الأثناء أرسلَ الشاهُ إسماعيل خطابًا مليئًا بالإساءةِ والتهديدات، ومعه صندوق به أفيون وحجاب وملابس حريميّة، وكان "الشاه" يستفزُّ العثمانيّين كما فعل "تيمور لنك" في الماضي، وكان الأفيون يُشيرُ إلى أن الشاهَ يرى السلطانَ العثمانيَّ مدمنًا للمخدِّرات يظنُّ نفسَهُ شجاعًا لدرجة قتالِ القوّات الإيرانيّة!، وأما الزيُّ النسائيُّ والحجابُ فقد أُرْسِلَ بغرضِ الإهانةِ المباشرةِ لِشَخصِ السلطان، وكان يشيرُ إلى أن السلطانَ يُعْتَبَرُ امرأةً جبانةً.

وكان "الشاهُ" قد قَتَلَ الرسلَ العثمانيّين الذين كانوا قد أُرسلوا إليه، فبادرَ السلطانُ سليم إلى الردِّ بالمِثْلِ، وقد اتَّضَحَتْ ماهيّة الرَّدِّ الذي كان سيردُّ به العثمانيون على الإهانات التي وجَّهَها الشاهُ إليهم، ناهيك عن الفِتَنِ التي تسبَّبَ بها، وما خلَّفَتْهُ من إراقة لِلدِّماء.

لقد واصلَ الجيشُ العثمانيُّ تقدُّمَهُ، وكانت المشكِلة الأبرزُ التي واجَهَتْهُ في الطريقِ هي نقصُ الإمدادات في الطرق الممتدة من "أَرْزِينْجَانْ" غربًا إلى "تَبْرِيز" شرقًا، الأمر الذي أفضى إلى انتشارِ حالةٍ من السخطِ العام بين قادة الجيش وجنودِهِ، لم يكن الجيش الصفوي يظهرُ في الأفقِ، وكانت الشائعات المختلفةُ قد انتشرت بين الجنود العثمانيين بسبب طولِ مسافةِ السير، وفي الوقت الذي كان يبذل السلطان سليم جهدًا لإتمامِ إمداداتِ الجيش؛ كان يُحاوِلُ تشجيعَ جنودِهِ على الحرب، وقد ضمَّ بعضُ الباشاوات أصواتَهم إلى أصواتِ جنود "قَابِي قُولُو" ووافقوهم في الشكاوى التي شكَوها، واختاروا متحدِّثًا فيما بينهم، وهو أمير أمراء "قَارَامَانْ" وصديق السلطان منذ الطفولة "هَمْدَمْ باشا (*Hemdem Paşa*)" الذي كان يشغل أكثر الوظائف حساسية في الجيش.

اجتمع "همدم باشا" بالسلطان سليم، غير أن ردَّ فعلِ السلطان كان عنيفًا للغاية، ودفع الباشا حياته ثمنًا ومقابلًا لعدمِ تفكيرِهِ في أن السلطانَ الذي لا يتراجعُ عن قرارٍ اتَّخَذَهُ طيلةَ حياتِهِ لن يُغَيِّرَ فكرَته على الإطلاق، وقد خاطرَ السلطان حتى بالتضحيةِ بصديقِ طفولَتِهِ، وهو بذلك قد أوصل أهمَّ رسالةٍ إلى جنودِهِ وَوُزَرائِهِ بشكلٍ واضحٍ، فهذا طريقُ الموتِ الذي لا حياةَ فيه.

ووصل السلطان سليم إلى الحدود الصفوية، فأرسل خطابات إلى الشاه إسماعيل يدعوه إلى ميدان القتال في أسرعِ وقتٍ؛ إذ لم يكن السلطان ممتنًّا من الغموضِ والانتظارِ، وكان يعلم أن هذه الظروف ستتسبَّبُ في حدوثِ المزيدِ من المشاكِلِ، ولم تمر فترة طويلة حتى حدث ما كان يخشاه.

لقد كانت هناك مجموعةٌ من جنودِ المشاةِ من الإنكشارية وغيرهم ممن يحملون البنادق قد اهْتَرَأَتْ أحذيَتُهُم، فصارَ منهم من يسيرُ دونَ حذاءٍ، وبعد أن وصلَ الجنود إلى "أَلِيشْجِرْد (*Eleşgirt*)" قادمين من "أرضروم" تمرَّدوا قائلين:

> "ليس هناك أيُّ عدوٍّ، فنحن نسيرُ سيرًا طويلًا في أرضٍ قفرٍ خراب".

وكان الجنودُ يَرَوْن عدمَ ظهورِ جيشِ الشاه أمامهم وكأنه يطلب من السلطان سليم الأمنَ والاعتذار إليه، وكانوا يطلبون من السلطان سليم أن يعفو عنه، وقد خاطبوا السلطانَ كما ورد في المصادر التاريخيّة هكذا:

> "يأيُّها الحاكِم، لِتَدُرْ الدنيا بأمرِك، أنت ترعى جيشَكَ بكلِّ وحداتِهِ لِصَدِّ عدوِّكَ، لقد مرَّتْ ثلاثةُ أشهرٍ منذ أنْ خرجَ الجيشُ من الأناضول إلى هذه الديار الغريبة، أخرجتَ هذا الجيشَ اللامحدودَ من أجلِ القبضِ على الشاه إسماعيل، فلو كان لدى هذا الشاهِ النذرُ اليسيرُ

من الشجاعةِ لما كان قد تَرَكَ بلادَهُ في أيدي الأجانب واختفى، فلم يبقَ أيُّ أثرٍ له أو لِجَيشِهِ، وإلا لكانت أخبارُهُم قد وَصَلَتْ إلى حضرتِكم، وبما أن العدوَّ قد نَدِمَ على فعلتِهِ وطلبَ الأمانَ، فماذا لو أظهرَ حاكمُنا الجليلُ بعضَ الكرمِ...".

وعقب هذه الخطاباتِ التي أُلْقِيَت بصوتٍ مرتفعٍ؛ قال السلطان سليم:

"لم نَصِلْ بعدُ إلى المكان الذي نريدُ، ولا يمكن أن نرجعَ دون أن نواجهَ عدوَّنا، فحتى مجرَّدُ التفكيرِ في هذا يعتبرُ شيئًا سيِّئًا للغايةِ، لكن الغريبَ في الأمرِ أنه في الوقت الذي يضحّي رجالُ الشاهِ بأنفسِهم من أجلِ سادَتِهم؛ فإن هناكَ بعض فاتري الهمّة يُحاولون تثبيطَ هممنا ومساعينا لنعود أدراجنا بعدما وصلنا إلى هنا بغيةَ إعادةِ توجيهِ المارقين عن الدين إلى الطريق القويمِ، لكنّنا لن نرجعَ عن طريقِنا، وسنُكْمِلُ السيرَ حتى نَصِلَ إلى الأماكِنِ التي يجبُ أن نصلَ إليها بمساعدةِ من يُطيعون الأوامر، وأما من ضَعُفَتْ هِمَّتُهُ واشتاقَ إلى أهلِهِ ووَلَدِهِ فإنهم يسوقون هذه الحُجَجَ ويقولون إننا لن نسيرَ إلى ما هو أبعد من ذلك، فمن يفكِّرْ بهذا المنطق يعرفُ نفسَهُ، فإذا عادوا أدراجهم يكونون كالذي ارتدَّ عن الدين، فإذا كانت حجَّتُهُم أن العدوَّ لا يظهر في الأفق، فهذا هو العدوُّ في الأمام، إذا كنتم جنودًا فتحرَّكوا معي وواصلُوا السيرَ في هذا الطريق، وإلا فسأسيرُ بمفردي".

لقد هدّأت هذه الكلمات من روْع الجنود.

وينقل المؤرخ "خواجه سعد الدين أفندي" (ت: ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م) -وهو ابن "حسن جان" (ت: ٩٧٤هـ/١٥٦٧م) أحد رجال السلطان سليم المقربين-، أن السلطان أشار إلى الثقوب الموجودة في خيمته في تلك الأيام، وقال إن

سببها الرصاصات التي خرجت من بنادق جنود الإنكشارية الذين أرادوا العودة، وأن هؤلاء الجنود علَّقوا أحذيَتَهم على سنونِ رماحِهم تعبيرًا عن رغبتهم في عدمِ إكمالِ السيرِ، وكانت هذه الغزوةُ الطويلةُ أولى الغزوات التي خرجَ فيها السلطان سليم على رأسِ جيشِهِ؛ إذ كانت مليئةً بالآلامِ والمشاكلِ، لكن السلطان سيتَّخِذُ ويستخلِصُ العِبَرَ من هذه التجربة لِيَنْجَحَ فيما بعدُ في السيطرةِ على مفاصِلِ الجيش بالكامل.

وعندما أَخْبَرَ السلطان سليم جنودَهُ بأنه وَصَلَتْهُ معلوماتٌ استخباريّة بشأنِ الطريقِ الذي يسلُكُهُ الشاه إسماعيل للإغارةِ عليهم؛ زالتْ علامات التمرُّدِ التي انتشرَتْ بينهم، ذلك أن المعلومات الاستخباريّة التي أرسلها "شهسوار أوغلو علي بك (*Şehsuvaroğlu Ali Bey*)" الذي أرسله السلطان للحصول على معلومات بشأن الجيش الصفوي؛ كانت كافيةً لِتَغْييرِ الأجندةِ تمامًا.

ولقد كان هناك رجل يدعى شيخ أحمد، ينحدِرُ من قبيلةِ "آقْ قُويُونْلُو" التركمانية، يتجَسَّسُ في تلك الفترة لصالح الجيش العثماني، ويروي شيخ أحمد أنه التقى الشاه إسماعيل في مدينة "أُوجَانْ (*Ucan*)"، وأنه عرّفَ نفسه إليه على أنه رجلٌ مرسلٌ من جانب أمراء التركمان، ومن أجل إقناع الشاه أبلغه بأن جميع أمراء الروميلي والأناضول وجنودهما يحبُّونه ويحترمونه وينتظرون وصولَهُ، وقال شيخ أحمد للشاهِ: إن جيشكم ما إن يصل ويلتقي بالجيش العثمانيّ حتى يهرعَ الجنودُ العثمانيّون للانضمامِ إليكم، ولذلك فعليه التحرّك بأسرعِ وقتٍ ممكن.

وفي مقابلِ هذا التشجيعِ، هناكَ احتمالٌ يُشيرُ إلى أن الشاهَ إسماعيل تحرَّكَ بجيشِهِ من "أوجان" بعدما فكَّرَ في أنَّ مشاعرَ المحبَّةِ التي يتمتَّعُ بها في الأناضول عبر مريديهِ الذين هم على صلةٍ به، وأن أمراء الروميلي والأناضول وجنودَهم يمكن أن ينضمُّوا إلى جيشِهِ، وأما الأمر الأهمُّ في

هذا الشأن فهو خطرُ اهتزازِ صورةِ الشاهِ لدى مريديهِ الذين ينظرون إليه على أنه كيانٌ إلهيٌّ وتَضَرُّرِ مكانَتِهِ لديهم بإصرارِ السلطان سليم دخول الأراضي الإيرانية، ولم يكن لدى الشاه طريق للنجاة سوى مجابهة السلطان سليم الذي سارَ بجيشِهِ ليقاتِلَهُ، وذلك رغبةً منه في ألا يظهَرَ أمام مؤيّديه على أنه حاكمٌ جبانٌ.

وكان هناك أمرٌ آخر جرَّأَ شاه إيران على مهاجمة الأراضي العثمانية، ألا وهو معرفتُهُ بوجودِ جنودٍ يمتلكون وجهاتِ نظر دينيّة قريبةٍ من تلك التي يعتنقها فرسان التيمار الذين يُشَكِّلونَ أغلبيّة الجيش العثماني، وذلك بسبب التمرُّداتِ التي قاموا بها في الأناضول.

وكان الشيخ أحمد وغيرُهُ من مصادرِ الأخبارِ تُزَوِّدُ الشاهَ بمعلوماتٍ تفيدُ بأن هناك الكثير من مؤيديه في صفوفِ الجيشِ العثمانيّ، وكان كل ذلك يمنحُ الشاهَ جُرأةً على المضيّ قدمًا في مهاجمة العثمانيين ومجابهتِهِم.

وقد وَرَدَتْ هذه المعلومة كذلكَ في تقريرٍ عَرَضَهُ مبعوثٌ بندقيٌّ على مجلسِ شيوخِ البندقيّة، وكان المبعوثُ البندقيُّ يؤكِّدُ في هذه الوثيقةِ التي يُشدِّدُ عليها المؤرِّخُ التركيُّ المعاصر "فريدون أمجان" أن السلطانَ العثمانيَّ يمتلِكُ جيشًا متميّزًا، وأن جميعَ جنودِهِ مُسْتَعِدُّون لِلموتِ في سبيلِ تحقيقِ النصرِ، غير أنه ربما يكون هناك جنود غير راغبين في القتال ضمن صفوف الجيش العثماني بسبب انتسابهم إلى مذاهب قريبة من المذهب الصفوي الذي يعتنقُهُ شاهُ إيران.

وقد أشارَ التقريرُ إلى أن الشاهَ على قناعةٍ بأن جنودَهُ سيُحاربون حتى الموت لتعلُّقِهِم به لدرجة الحب.

وكان هناك المزيد من الأمور التي جرّأت الشاه إسماعيل على مواجهةِ السلطانِ سليم، هو أنّه إذا حَدَثَ نقصٌ في مُؤَنِ الجيش العثمانيّ في المناطِقِ

التي يَسيرُ فيها؛ فسيتأثَّرُ جنودُ السلطان سليم جرَّاء ذلك كثيرًا بما لا يُمكنُ مقارنته مع كمّية تأثُر جنود الشاه؛ نظرًا لكون العثمانيين غرباء في هذه الأرض.

لقد بادر الشاه على الفور إلى إصدارِ أوامِرِهِ بِنَهْبِ جميعِ المناطقِ الواقعةِ على طريقِ الجيشِ العثمانيّ من "أَرْزِينْجَانْ" في الأناضول وحتى "تَبْرِيز" داخل الأراضي الإيرانية، كما أصدرَ تعليماتِهِ بإتلافِ المحاصيلِ وتهجير أهالي هذه المناطق بالقوّة، وهو بذلكَ قد حاولَ قتلَ الجنودِ العثمانيّين بسببِ الجوعِ، كما أمرَ بإحراقِ جميع المراعي حتى لا يبقى شيءٌ تأكلُه الحيوانات.

وكان هناك شخص يُدعى "أُوسْطَاجْلُو محمد خان (*Ustaclu Muhammed Han*)" يُنَفِّذُ أوامرَ الشاهِ نيابةً عن الجيشِ الإيرانيّ، وبعد أن مسحَ المنطقةَ بأسرِها؛ وَصَلَ إلى مدينةِ "خوي (*Hoy*)" وانضمَّ إلى جيشِ الشاهِ، وإن كان الشاهُ قد أدركَ أن الشيخَ أحمد -الذي يُعتبَرُ رجلَ أحدِ أمراءِ قبيلة "آقْ قُويُونْلُو" التركمانية- يتجسَّسُ لِصالِحِ العثمانيّين، غير أنه لم يولِ اهتمامًا بالتأكُّد من صحّة الأخبار التي وَصَلَتْهُ حول احتماليّة كون هذا الرجل جاسوسًا؛ ذلك أنه صبَّ كلَّ تركيزِهِ على الانتقامِ من السلطان سليم، هذا فضلًا عن أنه بدأَ الإعداد لِلْحَرْبِ بينما كان في "أصفهان" عندما تسلَّمَ أوَّلَ خطابٍ من السلطان سليم، ثم أرسلَ أوامرَ يستجمع بها جميع قواتِهِ وأُمرائِهِ وجنودِه ويُجهّزهم للحرب.

واصطحب الشاه إسماعيل الشيخ أحمد حتى مدينة "خوي"، وبينما كانا هناك أرسله إلى مقرِّ قيادةِ الجيشِ العثمانيّ، وطلب منه تحريضَ الأمراء العثمانيّين لصالحه، وكانت آخرُ كلمةٍ قالَها الشاهُ للشيخِ أحمد هي أنه سيُلاقي الجيشَ العثماني في "جَالْدِيرَانْ".

وهناك بعضُ الخطابات المزيفة التي أُرسلت إلى الشاه، والتي ربما لم يبقَ لها قيمة كبيرة، لكنها ربما تكون ملفتةً لِلنَّظَرِ لِمعرفة التكتيكات المتبادَلة بين الطرفين، وكان موحًى في هذه الخِطابات أنها مرسلةٌ من قبلُ إلى الأُمَراءِ الأكرادِ والتركمان، وكانت تتضمَّنُ رسائلَ دعمٍ وتأييدٍ للشاهِ، ولا نعرِفُ إن كان الشاهُ قد صدقَ هذه الرسائلَ أم لا، لكنه ردَّ عليها وأعطى هذه الوثائق إلى الشيخ أحمد.

لقد تحرَّكَ شاه إيران بعد فترةٍ وبدأَ بالسيرِ للهجومِ على الجيش العثماني، ونما إلى مسامِعِ السلطان سليم تحرُّكُ الجيشِ الصفويّ، وعليه فقد انجلى الغموض الذي كان يحوم حول هذه النقطة، ولم يكن السلطان سليم يحبُّ الغموضَ، بل كان يُفضِّلُ أن يُصْبِحَ في وضعيّةٍ صعبةٍ على أن يواجِهَ وضعيَّةً يكتَنِفُها الغموض.

عبر الجيش العثماني مناطق (إيليشجرد-مرج أوتش كليسة-مجرى بزيرجان المائي-دانا سازي وقارابينار)، ثم وصلَ إلى صحراءِ "أُووَاجِيكْ (*Ovacık*)"، وبعدها وصلَ الجيشُ إلى تلال "جَالْدِيرَانْ" خلال يومين، وبينما كان الجيش في هذا الموقع شاهدَ بوضوحٍ تحرُّكات الوحداتِ الاستطلاعيّة لِجيشِ الشاه، وسيكون من الآن فصاعدًا لا صوت يعلو على صوت الأسلحة والبنادق، وكانت مسألة وقت ليس إلا أن تندلع معركةٌ ميدانيّةٌ يُجَرِّبُ فيها الطرفانِ جميعَ أوراقِهما الرابحة.

ووصلَ الجيشُ إلى مرتفعاتِ "جَالْدِيرَانْ"، وفي الوقت الذي كان قائدان يَثِقُ بهما الشاه إسماعيل يُجريان استعداداتِ الحرب؛ أعلنَ الشاهُ الصفويُّ خروجه في رحلةٍ لصيدِ طيور "السمان" في وقتٍ كانت الحربُ فيه على وشكِ الاندلاع! وذلك من أجلِ إراحة مريديه واستعراض شجاعتِهِ أمامهم، وإثباتِ أنه لا يخشى العثمانيّين ولا يهتمُّ بقوّات السلطان سليم.

على شفا الحرب

عندما لمح الجيش العثماني طلائعَ الجيشِ الصفويّ في "جَالْدِيرَانْ" اتَّخَذَ وضعيّة القتال وأعلنَ الجاهزية القصوى، لكن الجيشين لمّا يرى كلٌّ منهما الآخر حتى تلك اللحظة؛ إذ كانت بينهما مسافة تتراوح بين (٢٥٠٠ -٣٠٠٠) متر، وحدثَ كسوفٌ شمسيٌّ بينما كان الجيشُ العثمانيُّ يسيرُ في طريقِهِ صوب وادي "جَالْدِيرَانْ"، الأمر الذي رفع الروحَ المعنويّة لدى جيشِ السلطان سليم الذي اعتبر هذه الحادثة بشرى للنصر، وقضى الجيشُ الليلةَ التي سبَقَت المعركة وهو في حالةِ تيقُّظٍ وحذرٍ شديدين تحسُّبًا لأيِّ هجومٍ مفاجئ، وفي الوقتِ الذي خلدَ جزءٌ من الجيش للراحةِ بعدما وصلوا إلى المنطقة عقبَ رحلةٍ طويلةٍ؛ لم ينمْ الجزءُ الآخر تلك الليلة تقريبًا بالرغم من شعورِ أفراده بالتعبِ الشديد، وكان نظامُ الجيشِ يعتمد على أساسِ حمايةِ مركزِ الجيش الذي حُصّنَ جيّدًا، كما عُزِّزت قدراتُهُ بالمدافِعِ والجِمال.

اجتمعَ السلطان سليم بوزرائِهِ وقادةِ جيشِهِ لتقييمِ الوضع، وكان يجبُ أن يتمخَّضَ هذا الاجتماعُ عن اتخاذِ قرارٍ ما بخصوص الحرب، وكانت أهمُّ قضيّةٍ هي هل يتوجَّبُ عليهم إدخالُ الجيشِ في هذه الحربِ على الفورِ أم الانتظار ليومٍ من أجل إراحةِ الجنود الذين أصابَهم التعب بسببِ طولِ الرحلة.

وكان السلطان سليم يريد أن يَطَّلِعَ على وجهاتِ نظرِ المشاركين في الاجتماعِ قبلَ اتِّخاذِ هذا القرار الصعبِ والمصيريّ، فوجَّه سؤالًا إلى "بيري باشا"، الذي كان يتولّى في هذه الفترةِ منصبَ كبيرِ أمناءِ الدفاترِ، ليعرفَ

وجهةَ نظرِهِ بشأنِ القرارِ الذي يجبُ اتّخاذُهُ، لأنه قال له إن هناك من يُحِبُّون الشاه إسماعيل بين الجنود، ولو انتظروا ليلةً أخرى حتى يستريحَ الجنود فربما يُفْسِدُ الجواسيسُ الصفويّون عقولَ هؤلاء المتعاطفين مع الشاه، الأمر الذي سيتمخَّضُ عنه انضمامُ هؤلاء الجنود المخدوعين إلى صفوف الجيش الإيراني، وأوضح أن هؤلاء الجنود لو لم ينضمُّوا إلى صفوف الصفويين؛ فإنهم على الأقلّ لن يُقاتِلوا كما ينبغي، وأنَّهم سيُثبِّطون من عزيمةِ مَنْ يراهم من الجنود الآخرين، ممّا سيُفضي إلى نتائجَ سيّئة للغاية، وكان "بيري باشا" مؤيّدًا لِفِكْرَةِ أن يجري الهجومُ على العدوِّ دونَ هوادةٍ مع تكرارِ قولِ "الله الله".

لقد كان السلطان سليم يوافق "بيري باشا" الرأيَ، وكان الجيشُ قد قضى ليلةً عندما أقام في وادي "جَالْدِيرَانْ"، كما نام جنودُ القوات التي لم تستلِمْ نوبةَ الحراسةِ وأخذوا كفايتهم من الراحةِ، وأما الانتظارُ حتى مساء اليوم التالي والنومُ في ذلك المساءِ فهذا يعني إضاعة أربعٍ وعشرين ساعة دون أيّ فائدةٍ، وربما كانت هذه الوضعيّة لَتُشَكِّل خطرًا جادًّا على الجيش العثماني في وقتٍ اقتربَ فيه كثيرًا من عدوِّه، وأما الأنشطة التي تجرى من أجل أن يقضي الجنود العثمانيُّون ليلَتَهم كنصبِ الخيام وضبط شؤون مقرِّ قيادةِ الجيشِ فهي أشياء تُشَتِّتُ انتباهَ الجنود كثيرًا، وكان يمكن التغاضي عنها وعما يشابهها من التدابير الأمنية، هذا فضلًا عن أنه كان هناك احتمالٌ قويٌّ بشأنِ وجودِ فرسان داخل الجيش العثمانيّ يميلون إلى صفِّ الشاه، ومن ثم تحقيق التواصل مع هؤلاء الفرسان بواسطة رجال الشاه إسماعيل.

ولم يلتفت السلطان سليم إلى وجهات نظر بعض الوزراء الذي كانوا يقولون إن دخول الحرب بجنودٍ خَائِرِي القوى لن يُحَقِّقَ النجاحَ المرجوّ؛ إذ إنهم لن يستطيعوا القتال دون القدرة على ذلك، كما لم يلتفت السلطان

إلى أولئك الذين كانوا يدافعون عن فكرةِ خوضِ المعركة بعد الاستراحة، وبذلك أظهر خبرتَه الحربيّة، ولقد حدَّدَ السلطان إستراتيجيّة الحربِ بكل خبرةٍ ومهارة، وآثرَ الهجومَ في أقرب وقتٍ ممكنٍ للحصول على نتيجة، بالرغم من التعبِ الذي كان يسيطرُ على الجنود، وذلك لأنَّهُ متأكِّدٌ من أنَّ قوَّاتِ المشاةِ المدجَّجَة بالأسلحةِ الناريّة ستساهِم كثيرًا في تحقيق النصر.

لقد أسَّسَ الشاهُ إسماعيل إستراتيجيَّتَهُ الحربيّة لمواجهة جيشِ السلطان سليم على أساس السيطرة على مرتفعات وادي "جَالْدِيرَانْ"، ومن ثم وضع الجيش العثماني بين شِقَّي الرحى، فكان الشاه يثقُ بوحدات الخيّالة التركمانية التي تكِرّ وتفِرّ بسرعة، وكان يريدُ أن يهزَّ هؤلاء الفرسانُ السِّراع القوَّاتِ العثمانيّة ويُفرقوها، غير أنَّ أكبرَ خطإٍ ارتكبَهُ الشاهُ هو أنه لم يضع في حساباته أنه أمامَ داهيةٍ من دهاةِ الحرب وخبراءِ وَضْعِ الإستراتيجيات العسكريّة.

وفي الوقت الذي حسب فيه الصفويون أنهم سيفوزون بالمعركة بفضلِ فرسانِهم السريعين؛ لم يضعوا في حُسْبانهم وحداتِ الإنكشارية جيّدة التدرب، ولا قوّة وصلابة القوّات المركزيّة العثمانيّة، وعندما بدأت معركةُ "جَالْدِيرَانْ" الميدانية لم يخطر ببالِ الشاه إسماعيل أنه سيواجهُ نظامًا قتاليًّا جديدًا لم يرَهُ قبلَ ذلك.

وبينما جمع جواسيسُ الشاهِ -الذين كانوا موجودين في عددٍ من مناطقِ الأناضولِ وكانوا يتجسَّسون لِصالِحِ إيران- معلوماتٍ بشأن الجيشِ العثمانيّ، فَشِلُوا في جمعِ الدقيقِ من المعلومات حول المخطّطات العسكرية التي يضعُها السلطان سليم، ولم يستطيعوا الحصولَ على معلوماتٍ استخباراتيّة زيادةً عن الموضوعات التي كانت معروفةً للجميعِ؛ مثل استخدام العثمانيّين

للمدافع.

ولم يكن من الممكن أن يعرفَ الشاهُ إسماعيل أن النظامَ الجديد الذي سيستَخْدِمُه السلطان سليم سيكون إيذانًا ببدايةِ عصرٍ جديدٍ في تاريخ الحروب على مستوى العالم، وكانت الدولة العثمانية تستخدم المدافع في الحروب منذُ وقتٍ طويل، وسيحصل الجيش العثماني في هذه الحرب على نتيجةٍ وثمرةٍ من خلال طريقةٍ طبَّقَها السلطانُ محمد الفاتح جزئيًّا في معركة "أُوتْلُوكْبَلِي (*Otlukbeli*)" عام (١٤٧٣م)، ويشكّلُ أساس هذا التكتيك القوى المركزية المزوّدة بالأسلحة النارية الخفيفة القادرة على المناورة في الاتجاه الذي يريدُهُ الجيش بشكلٍ سهلٍ للغاية بفضل تعزيزِها بعرباتٍ متحرّكة.

وبالرغم من أن بعضَ الوزراء أبلغوا السلطان سليمًا بضرورة استراحة الجنود؛ فقد أظهرَ خبرَتَه الحربيّة وآثر خوضَ المعركةِ على الفورِ لاعتقاده بأنَّ الانتظارَ وتضييعَ الوقتِ سيتسبَّبُ في حدوثِ مشاكلَ متعدّدة؛ إذ كان واثقًا في إحرازِهِ للنصرِ بفضل الجنودِ المشاة المزوَّدين بالأسلحة الناريّة.

وكان هناك عامل آخر دفع السلطان سليمًا للتصرف على هذا النحو، ألا وهو وصول الشاه إسماعيل إلى وادي "جَالْدِيرَانْ" قبله، ولهذا السبب كان التفوُّق الإستراتيجيّ في صالحِ الجيشِ الإيراني.

ويرى كثيرٌ من المؤرِّخين أن الشاهَ إسماعيل أخطأ عندما وصل إلى "جَالْدِيرَانْ" لمواجهة جيش السلطان سليم، ويشيرون إلى أن الشاه كان من الضروري أن يواجهَ الجيشَ العثماني في المناطق الجبليّة في مدينة "خوي" بدلًا من مواجهتِهِ في موقعة "جَالْدِيرَانْ"، لا سيّما وأن الجيش العثماني كان قويًّا من الناحيتين التّقنيّة والقتالية مقارنة بالجيش الإيراني.

وأما السبب الأساسي لنزولِ الشاه بقوَّاتِهِ بشجاعةٍ إلى وادي "جَالْدِيرَانْ" لمواجهة الجيش العثماني الذي يمتلك قوَّةً كبيرةً جدًّا فهو اعتقادُهُ أن هناك عددًا كبيرًا من الجنود العثمانيّين يدعمونه، كما لَعِبَ دورًا كبيرًا في ترجيحِهِ المجيءَ إلى "جَالْدِيرَانْ" معرفَتُهُ أن أفرادَ الجيش العثمانيّ سيُصابون بالتَّعَبِ بعد مسيرةٍ طويلةٍ، وكان على قناعةٍ تامّة بأن العثمانيّين منهكي القوى لن يقوَوا على مقاومةِ الجيش الإيرانيّ، وكان من بين أكبر أخطائِهِ عدمُ وضعِهِ في حسبانِهِ الأسلحةَ الناريّةَ التي استخدَمَها خصمُه، بيدَ أن عامل الأسلحة النارية من مدافع وبنادق التي لم يضعها الشاه في حسبانه غيَّر سيرَ الأحداث بالكامل.

لقد كانت ثمة أسباب أخرى دفعت الشاه إلى مواجهة الجيش العثماني في "جَالْدِيرَانْ" وعدم انتظار مقابلته في "خوي"، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب مواجهته لعدوٍّ لم يقدّم له خيارًا آخر للنجاة سوى الحرب، إذ كان السلطان سليم يقومُ بحملاتٍ إستراتيجيّة مستمرَّةٍ ضدّ جيشِ الشاهِ، وكان يجرّ عدوَّهُ إلى ارتكابِ الأخطاءِ ويُجْبِرُهُ على خوضِ الحرب، كما في لعبةِ الشطرنج، وعلى ذِكرِ الشطرنجِ فلم يلعب السلطان سليم لعبة الشطرنج مع شاه إيران عندما كان أميرًا -كما روى المؤرخ "أوليا شلبي" (ت: ١٠٩٦هـ/١٦٨٥م)- لكن المعركة التي وقَعَتْ بين جيشيهما تبدو وكأنها لعبة شطرنج يلعبانِها معًا.

وكان يجب على الشاه التحرك بعدما شعرَ بأنَّهُ لو بقيَ قليلَ الحيلة سيخسرُ مكانَتَهُ لدى شعبِهِ، ولأنَّ انتظارَهُ مجيءَ العثمانيّين كالخوّافِ لن يناسبَ الوظيفةَ الإلهيّة (!) التي ينسبونها إليه ويدّعونها له، وتوقَّع الشاهُ أن يقاتلَ جنودُهُ بعشق واستماتةٍ في مواجهة الجنودِ العثمانيّين المتعَبين، وذلك من خلال اعتقادِ جنودِهِ الراسخِ وارتباطهم به حتى الموت؛ كلُّ ذلك جعَلَهُ

يصِلُ إلى وادي "جَالْدِيرَانْ" بثقةٍ كبيرةٍ كان يحملُها تجاهَ جنودِهِ من الفرسان الذين نالوا قسطًا من الراحة لا بأس به.

وعرض رجالُ الشاهِ فكرةَ مباغتَةِ الجيشِ العثمانيّ ما إن يصل إلى "جَالْدِيرَانْ" وهو لم يُعِدّ العدّة للهجوم، وكانت لديهم ميزة التفوُّقِ الإستراتيجيّ لِوصولِهِم إلى الوادي قبل القوّات العثمانية، وكان بإمكانِهم الهجوم في وقتٍ يتسلَّقُ فيه الجنودُ العثمانيُّون التِّلالَ وهم خائري القوى من طولِ السيرِ ومشقّة السفر، كما كان باستطاعتِهم مباغتة الجيش العثماني بينما كان ينزل من التلال إلى الوادي، وبالرغم من عدمِ وجودِ معلومات مؤكَّدةٍ بشأنِ سببِ عدمِ قَبولِ الشاه هذه العروض؛ فإننا نتوقع أنه لم يرغبْ بالمخاطرةِ لِعَدَمِ معرفتِهِ بالحجمِ الحقيقيّ للجيشِ العثمانيّ.

لقد فكَّرَ الشاه إسماعيل وقادةُ جيشِهِ في احتماليّة أن تنفيذ هجوم مباغت على الجيش العثماني الضخم لن يفضي إلى شيءٍ، بل ربما يؤدِّي إلى هزيمةٍ نكراء للقوّات الإيرانيّة.

ويُمكِنُ أن يكونَ هناك سببٌ آخر لعدم الهجوم ألا وهو كبرياءُ الشاه؛ إذ إنه أرادَ الانتصارَ ببطوليّةٍ في ميدانِ المعركةِ على خصمٍ كبيرٍ كان وبالًا وبلاءً عليه حتى عندما كان أميرًا في "طِرَابْزُونْ"، ولم يلقَ الشاهُ أن مباغتةَ عدوِّهِ تُناسِبُ شرفَهُ، بل فكَّرَ في أن مواجَهَتَهُ في معركةٍ ميدانيّةٍ بشرفٍ وعِزَّةٍ دون مباغتَةٍ أو خداع؛ سيزيدُ من المجدِ الذي سيُحَقِّقُهُ إذا انتصرَ عليه، فنحنُ أمام كبرياءِ حاكمٍ سيفضي به إلى النهاية تدريجيًّا، أضفْ إلى ذلك أن العثمانيّين، الذين يُتْقِنُون فنونَ القتال أكثر من الإيرانيّين؛ كانوا مستعدّين مسبقًا للهجمات المباغتة، ولهذا كان الجيش العثمانيّ قد اتَّخَذَ كلَّ التدابيرِ اللازمة لمواجهةِ هجومٍ كهذا.

إن المصادرَ التاريخيّة في تلكَ الحقبةِ بعيدةٌ عن تقديمِ معلوماتٍ شافية عن تعدادِ الجيش، كما تختلف الإحصاءات من مصدرٍ إلى آخر، ففي الوقت الذي تُشير فيه المصادر التاريخية العثمانية إلى أن تعداد الجيش العثمانيّ كان في حدود مائة وأربعين ألف (١٤٠٠٠٠) جندي؛ فإن المصادر الصفوية تزيد هذا الرقم وتقول إنه كان يتراوح ما بين مائتين ومائتين وعشرة آلاف (٢٠٠٠٠٠-٢١٠٠٠٠) جنديّ.

وبالرغم من وجود روايات مختلفة حول قوام الجيش الصفوي في المصادر التاريخية العثمانية، فإن هذه المصادر تشير إلى أنه كان يتراوحُ ما بين ثمانين إلى مائةٍ وخمسين ألف (٨٠٠٠٠-١٥٠٠٠٠) جنديّ، ولا يقدِّمُ إلا "ابن كمال" أكثرَ الأرقامِ المنطقيّة، فيقول إن الإيرانيين كانوا في حدود خمسة وأربعين ألف (٤٥٠٠٠) جنديّ، وتشير بعضُ المصادرِ الصفويّة إلى أن جيشَ الشاه كان قوامه عشرين ألف (٢٠٠٠٠) جندي.

جندي إنْكِشَارِيّ

لكن يُعْتَقَدُ في الواقع أن عددَ جيشِ الشاه كان حوالي خمسين ألف (٥٠٠٠٠) جندي، وإن كانت المصادر العثمانيّة أوضحت أنَّ عدد الجيش العثماني كان يفوق قوام الجيش الإيراني ضعفين، إلا أنّ هذا لا يتوافق

تمامًا مع الحقائق التاريخية، فبالرَّغم من أنّ قوامَ الجيشِ العثمانيّ يتفوَّقُ قليلًا على الجيش الإيراني؛ فإن هذا التفوُّقَ لا يرقى إلى أن يكون ضعفين، ويُعْتَقَدُ أن أصحَّ هذه الأقاويل تلك التي تشير إلى أن الجيشين تقاتلا في "جَالْدِيرَانْ" بجيشين قوامهما يتراوحُ بين (٤٠ و ٦٠) ألف جنديّ.

اتخذ الجيش العثماني وضعية القتال صبيحة يوم الثالثِ والعشرين من أغسطس/آب (١٥١٤م)، وكانت في مركز الجيش مدافع مربوطة ببعضها البعضِ بسلاسل خاصّة، وخلفَها يَقِفُ جنودٌ إنكشاريُّون يحملونَ الأسلحة الناريّة، وكانت هذه القوَّةُ تُمْطِرُ العدوَّ بوابل من النيران، كما رَكِبَ الجنودُ الذين يحملون البنادقَ فوق عرباتِ المدافعِ، وكان قلب الجيش العثمانيّ كالقلعة المتحركة بفضل ألفَي جنديٍّ مسلَّحٍ وخمسمائة عربةٍ مدفعيّة.

وكان السلطان سليم داهيةً مخضرمًا في المجال العسكريّ؛ إذ أخفى المدافعَ والجنودَ المسلَّحين الذين يُشَكِّلونَ القوَّةَ الناريّةَ لِلجيش، بقوَّةٍ تُسمّى "العَزَب"[١١] قوامها ثمانية عشر ألف جندي جعلها في المقدِّمة؛ إذ حالت هذه القوّات دون ظهورِ الأسلحةِ الناريّة الموجودة في الخلفِ، وكان جناحا المركز الرئيس للجيش يوجد بهما جنودُ الولايات من الفرسان، ولأن المعركة دارت رحاها على جانب شبه جزيرة الأناضول، فقد تولّى قيادةَ ميمنةِ الجيشِ أميرُ أمراءِ الأناضول "سنان باشا"، فيما تولّى قيادة ميسرةِ الجيشِ أميرُ أمراء الروميلي "حسن باشا".

وكان الجيش العثماني ينزلُ إلى الوادي وفقَ نظامِهِ القتاليّ، وأما الشاهُ إسماعيل فقد لاحظَ حديثًا أنه لن يستطيعَ مجابهةَ العثمانيّين، وكان يحاول

(١١) العزب (*Azab*): الاسم الذي أطلق على مشاة عساكر الأيالات في الدولة العثمانية حتى أواسط القرن السادس عشر الميلادي، وكان هناك نوع آخر من العزب، كانوا يستخدمون في القلاع للحفاظ عليها من الأعداء، وكان يطلق على خيالتهم فارسان (الفرسان). (سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض- (١٤٢١ هـ/٢٠٠٠ م)، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ص ١٥٤).

-وهو يشعر بالندم- الحصولَ على معلوماتٍ حولَ تنظيمِ الجيش العثمانيّ الذي كان يزحفُ هادرًا إلى أرض المعركة، كانت وحدات الطليعةِ العثمانيّةِ تنزلُ إلى أرضِ المعركةِ بانتظامٍ في السَّيرِ، وكانت قوّات "العَزَب" المكوَّنَةُ من الأتراكِ، والفرسانُ القادمون من الأناضول والروميلي وجنودُ الإنكشارية ومن خلفهم فرسان "قَابِي قُولُو" القادمون مع السلطان؛ يتقدّمون نحو أرض المعركة، وأما الشاه إسماعيل فكان يُتابِعُ في صمتٍ ودون تحرُّكٍ من مكانهِ نزولَ وزحْفَ الجيشِ العثمانيّ من على التلالِ إلى ساحة القتال.

وعندما رأى الشاه عظمةَ القوَّاتِ العثمانيّة؛ استدعى قادةَ جيشِهِ، وقال لهم: إنه لا يُمْكِنُ بأيّ حالٍ مواجهةُ جيشٍ كهذا وجنودُه في وعيِهم، فأمرَ بتوزيعِ الخمورِ عليهم ليحتسوها، ويشرحُ كتابُ "تاريخِ لطفي باشا" هذه الواقعة كالتالي:

> "أرأيتم العظمَةَ التي جاء بها سلطانُ الروم السلطان سليم بجيشٍ جرَّارٍ لمواجَهَتِنا!؟ إنّه لَمِنَ الصعبِ جدًّا أن يواجِهَ أيُّ جنديٍّ جيشًا كهذا وهو في وعيِهِ وإدراكه، فمن يحبّني ويتبعني عليه أن يحتسيَ الخمرَ حتى نستطيع النجاحَ في هذه المهمّة".

واعتقد الشاه إسماعيل أن الجنودَ المخمورين سيتمكَّنون من القِتالِ جيّدًا، ولن يُدْركوا أنهم أُصيبوا بجروح، وكان لديه تكتيكٌ آخر، ألا وهو إقحامُ العائلات في هذه الحرب ظنًّا منه أن وجودَ العائلاتِ بجانبِ الجنودِ سيجعل الجنود يُقاتلون بإصرارٍ أكبر حتى الموت من أجلِ حمايةِ أُسَرِهنّ وعائلاتهنّ، وهذا ما سيكفلُ له عدمَ فرار جنودِه من أرض المعركة.

وفي الوقت الذي حاول فيه الشاه إسماعيل تشجيع جنوده على الحرب عن طريق إعطائهم جرعة من الخمر حتى يفقدوا وعيهم تمامًا؛ خاطبَ

السلطان سليم للمرة الأخيرة جنودَه الذين توضَّؤوا واستعدُّوا للشهادةِ في سبيل الله بقولِهِ:

"من يُحَقِّقْ غيرةَ الإسلامِ وحمايةَ سيّدِ الأنامِ فهو شجاعٌ، ومن يولِّ دبرَه فمكانتُه أقلُّ من مرتبةِ النساء"، ثم بدأت فِرَقُ "المهتر" عزفَ نشيدِ الحربِ، وبعدها بدأَ ميدان المعركة يهتزُّ طربًا بأربابِهِ وصنادِيدِه.

جيش الشاه إسماعيل... وفيها يظهر الشاه وهو يوزع الخمر على جنوده قبل الحرب تشجيعًا لهم عليها. (سليم نامه، *124b*)

obeikan.com

معركة "جَالْدِيرَانْ" الطاحنة

وقعت الاشتباكات الأولى بين وحدات الجيشين الاستطلاعية، وعندما كانت الاشتباكاتُ الأولى تصبُّ في مصلحة العثمانيّين؛ ارتفعت الروح المعنويّة بين الجنود الأتراك، فيما شعر الشاه إسماعيل بالغضب الشديد إزاء هذه الهزائم المبدئيّة الصغيرة نوعًا ما، وبادَرَ على الفور إلى الزجّ بالقوَّاتِ الأساسيّة لجيشِهِ إلى ميدان القتال، وفي الوقت الذي يُفْتَرَضُ فيه أن يكون ميدانُ المعركةِ مكانًا للتصرُّفِ ببرودِ أعصابٍ؛ تسَرَّعَ الشاهُ في اتِّخاذِ قراراتِهِ، الأمر الذي شكل أول أسباب هزيمته، إذ شنَّتْ القوّات الإيرانيّة هجومًا بغرضِ التشويشِ على القوّات العثمانيّة الموجودة في الميمنةِ ومركز الجيشِ العثمانيّ، وكان هدفُ تلكَ القوّات هو الهجومُ بالجيش الأساسي على ميسيرة الجيش العثمانيّ كي يتشتّت شملُ الجيشِ العثمانيّ ويتوجّه نحو ميسرتِه لِيَصدَّ تلك الهجمات، ولقد نجحوا مبدئيًّا إلى حدٍّ ما في تنفيذ هذا المخطط.

ويُقدِّمُ لنا العديد من الكتّاب والمؤرّخين المعروفين بمشاركتهم في المعركة ضمن القوات العثمانية أو الذين عاشوا في تلك الحقبةِ وعاصروا أحداثها؛ معلوماتٍ قيّمة بشأنِ معركةِ "جَالْدِيرَانْ"، وبِحسبِ ما يرويه هؤلاء المؤرّخون، فإن الجيشَ الصفويَّ انتظرَ نزولَ الجيشِ العثمانيّ إلى الوادي وقتَ الشروق في الصباحِ، وبقيَ أفرادُ الجيشِ الإيرانيّ في مكانهم حتى وصول الجيش العثماني، وكانت المسافةُ بين الجيشين نحو ألفين وخمسمائة متر تقريبًا، وعندما تواجَهَ الجيشان مواجهة كاملة؛ ألقى السلطانُ سليم خطابَهُ الشهير على قادةِ جيشِهِ وجنودِهِ.

وبعد أن أنهى السلطان خطابهُ المُقْتَضَبَ؛ بدأت فِرَقُ "المهتر" عزفَ نشيدِ الحربِ بحماسٍ كبيرٍ حتى اهتزَّ ميدانُ المعركة، ولقد بدأَتْ المدافعُ والبنادِقُ المثبّتة على عربات المدافع العثمانيّة في إطلاق وابلٍ من القذائف والنيران دون تحديد الهدف، وهذا يُبَرْهِنُ على أن القوّات الإيرانيّة كانت تحت مظلة نيران المدافع العثمانيّة، وأن الجيشين لم تكن تفصل بينهما مسافةٌ كبيرةٌ، وكان القصف العشوائيُّ للجيشِ العثمانيّ هدفُه الوحيدُ هو إرهاب قوات العدوّ وإخافةُ حيواناتهم التي يمتطونها، ولقد أتى هذا التكتيكُ بثمره ومراده؛ إذ بدأَتْ الجيادُ الصفويّة في الهَلَعِ وإفسادِ النظامِ العام، وأما الجيادُ العثمانيّة فلم تكن تهتمُّ بأصواتِ المدافع والبنادِقِ التي كانت تتفجَّرُ بجوارِها، وكان سبب هذا هو أن الجنود العثمانيين كانوا يُعَوِّدونَ جيادَهم على هذه الأصوات عن طريق التدريب على استخدام المدافع والبنادق وهم بجانبهم.

وعندما كانت المدافعُ العثمانية تقصف الجيش الصفوي بقذائفها؛ دخلَتْ بعضُ القوّات الصفويّة الاستطلاعيّة في اشتباكاتٍ صغيرةٍ مع القوّات العثمانيّة، وفي تلك الأثناء انتقل الشاه إسماعيل لقيادَةِ الفرسانِ في الميمنةِ؛ إذ استهدفَ ضربَ جناحِ الروميلي للجيش العثماني، ولم يأخذ الشاه تهديدَ قوّات "العَزَب" الموجودة في المقدمة على محملِ الجدّ، فهؤلاء جنودٌ يسيرون في المقدمة دون ارتداءِ دروع ولا يحملون سوى الأسلحة البسيطة، واعتقدَ الشاهُ أنه بعد الهجوم الذي سيقوم به فإن جميع هؤلاء الجنود سيتفرقون في مواجهة الفرسان الصفويّين وسيفرُّون هاربين ليدخلوا وسط الجيش العثماني بخوفٍ كبير، كما أصدرَ أوامرَهُ بإرسال وحداتِ الفرسانِ لِمقارعةِ ميمنةِ الجيشِ العثمانيّ التي يقودُها أمير أمراء الأناضول "سنان باشا"، وبهذه الطريقة خطَّطَ الشاه لإلهاء مركز الجيش

العثماني بهجمات مزيفة، ووضع في حسابه أنه بالهجمات التي يشنها من كلا الجانبين سينتقل إلى الجانب الخلفي من الجيش العثماني ليضغط على مركزه.

وبادر السلطان سليم إلى تنفيذ تكتيك الدفاع على الفور لمواجهة هذا الثنائيّ من الهجوم المفاجئ ذي الاتّجاهين، ولقد حاولَ السلطانُ قدرَ المُستطاع سحبَ القوَّاتِ العثمانيّة التي تُهاجِمُ نحو مركزِ جيشِهِ المحصَّنِ بالمدافع والبنادق.

لقد تَمَوْضَعَ الجناحان الأيمنُ والأيسرُ للجيشِ العثمانيّ بمسافةٍ بعيدة عن بعضِهما البعض، ويُشير البعضُ إلى أن المسافة بينهما كانت في حدود ثلاثةِ آلاف متر، وكانت المعركةُ قد اشتدَّت في البداية ودارت رحاها على محور الجناح الذي يوجد به جنود الأناضول، فيما اشتدت ضراوتُها بعد ذلك في الجناح الذي يوجد به جنود الروميلي.

وأرسل الشاه أحد قادته، ويدعى "أوستاجلو محمد خان"، لمهاجمة جناحِ قوَّات الأناضول، فهاجمَ ذلك القائدُ بقوّات بلغ تعدادُها خمسة عشر ألف جندي الجناحَ الذي كان يقودُه "سنان باشا"، وفي وقتِ وقوع الاشتباكات بين الجانبين كانت قوّة صفويّة أخرى قوامها عشرون ألف جنديٍّ تهجم على جنود "العَزَب" الموجودين في جناح قوّات الروميلي، وبينما كانت القوّات الصفويّة تشنُّ هذين الهجومين؛ أظهَرَتْ وكأنّها تُهاجِمُ مركزَ الجيشِ العثماني، ثم حولت اتجاهها نحو جناح الروميلي، ويفهم من هذا الهجوم أن الهجوم الموجه نحو مركز الجيش ما هو إلا للتَّشويشِ والخِداع، وأنه كان يهدفُ إلى إخفاءِ الهجومِ الأساسيّ الذي ستشنُّهُ القوّاتُ الصفويّة ضدّ جنودِ الروميلي.

وتظاهرت الوحدات الصفوية التي كان يقودها الشاه إسماعيل شخصيًّا بالهجوم على مركز الجيش العثماني ونفذت مناورة مفاجئة وهاجمت جنودَ "العَزَب" المشاةَ، الأمر الذي تسبَّبَ في نشوبِ حالةٍ من الدهشةِ بين الجنود العثمانيّين، وفي مواجهةِ هذا الهجومِ غير المتوقَّعِ؛ لم تستَطِع القوات العثمانية الانضباطَ بشكلٍ كاملٍ أو إمطارَ الفرسانِ الإيرانيين بوابلٍ من السِّهامِ، وإلى أن استطاعوا تجهيزَ السِّهامِ كان الفرسان الصفويّون قد وصلوا إليهم بسرعة فائقة وسحقوا معظمَهم تحتَ أرجلِ الجيادِ، وقد سقطَ عددٌ كبير من قوَّات "العَزَب" شهداء في هذا الهجوم.

وجعل أمير أمراء الروميلي "حسن باشا" كلًّا من أميرِ سنجق "صُوفْيَا (*Sofya*)" "مَالْكُوجْ أُوغْلُو علي بَكْ (*Malkoçoğlu Ali Bey*)" وأخيه أمير سنجق "سيلستره (*Silistre*)" "طُورْ علي بَكْ (*Tur Ali Bey*)" -اللذَينِ يثق بهما- في مقدمة الجيش لِصَدِّ هذا الهجوم، إلا أنَّ هذين الأخوين البَطَلَينِ استشهدَا في تلكَ المعركة.

وبالرغم من أن هذه المعركة الدمويّة الطاحنة كبَّدَت الطرفين خسائر كبيرة؛ إلا أنَّ القوَّات العثمانية بدأت تتراجعُ بمرور الوقت، ولقد بدأ أمراء السناجق القادمون من ولايات الروميلي المختلفة يُشاركون في المعركة، لكن سيرَ الأحداثِ لم يتغيَّرْ كثيرًا، فبدأ يسقط الواحد منهم تلوَ الآخر شهداء، ولقد قاومَ أميرُ أمراءِ الروميلي "حسن باشا" في مواجهةِ الهجمات الصفويّة حتى النهاية، حتى إنه توجه بنفسه صوب الشاه إسماعيل وبدأ يقود جواده نحوه، وفي تلك الأثناء أُصيبَ بضربةِ رمحٍ دخلت من صدره وخرجت من كَتِفِهِ، وكانت هذه أكبر إصاباتِهِ، وبخلافِ ذلك أصيب في سبعة عشر مكانًا متفرِّقًا من جسدِهِ، وبالرغمِ من أنَّ رجالَهُ نقلوه على الفور من ساحة المعركة وحملوه إلى خيمة السلطان، إلا أنه ارتقى شهيدًا مجيدًا.

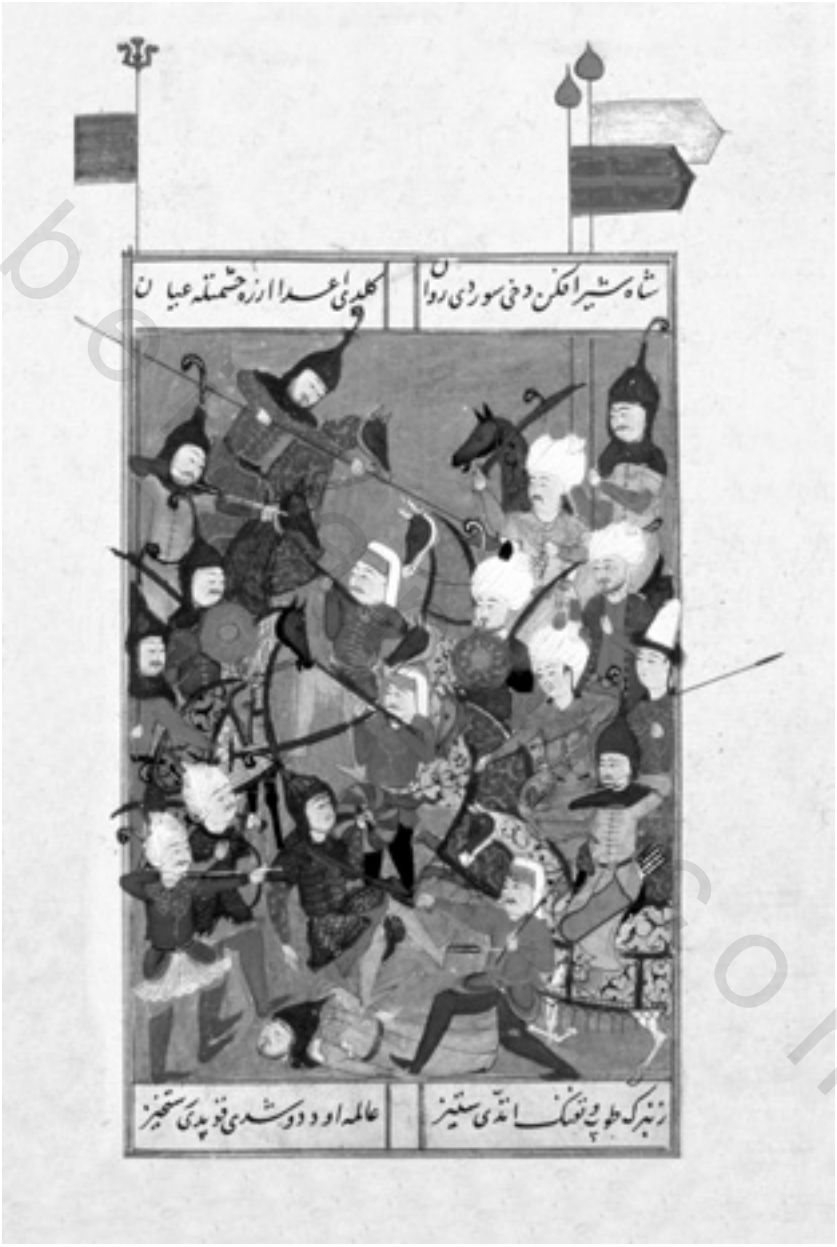

معركةُ "جَالْدِيرَانْ". (سليم نامه، *131b*)

لقد أصبح جناح قوات الروميلي بدون قائد، فعندما استشهد أربعة عشر قائدًا من قادة الجناح، بمن فيهم أمير الأمراء "حسن باشا"؛ كان يُتَوَقَّع أن يتفرَّقَ الجنودُ ويبدؤون بالهروب، لكنهم لم يفعلوا ذلك بل واصلوا القتال، وكان التكتيكُ الأساسُ الذي اتبعوه يستندُ إلى تشكيلِ سدٍّ منيعٍ إلى أن تَصِلَ المساعدات، ولقد استمرَّ القتالُ في هذا الجناحِ حتى انتصَفت الشمسُ في قبّة السماء.

ولم تستطع القوات الصفوية التي يقودها "أوستاجلو محمد خان" أن تفعلَ شيئًا في مواجهةِ جنودِ الأناضولِ الذين كان يقودُهم أمير أمراء الأناضول "سنان باشا"، ولم يستطيعوا تكرارَ النجاح الذي حقَّقَهُ الجناح الآخر للجيش، وكان هناك سدٌّ مكوَّنٌ من عربات المدافع المربوطةِ بالسلاسلِ أمام قوات سنان باشا لانتظاره الهجوم المباشر ضد قواته، وأُصدرت تعليماتٌ صارمةٌ إلى المدفعيّة ألا يُطلِقوا قذائِفَهم إلا بأمرٍ شخصيٍّ منه.

تكتيكاتٌ حربيّةٌ جديدةٌ

كانت الوضعية التي أصبح عليها جنود الروميلي تظهرُ أنه لا ينتظر أن يشن الشاه إسماعيل هجومًا كبيرًا، وكان التوقُّعُ العام لدى العثمانيّين مرتكزًا على أن المعركةَ الأساسيّة ستجري على جانبِ جناحِ قوَّات الأناضول، كانت المعركةُ ستجري بين قوّات الأناضول والصفويين، وكان جنود الروميلي سيقدمون الدعمَ والمساندة فقط، لكنَّ هذا التخطيطَ الخاطئَ أفضى إلى مباغتةِ جنود الروميلي وهم ليسوا مستعدِّين للقتال، وإلى تكبيدِهم خسائر كبيرة، ولقد فُهِمَ أن جناحَ الأناضولِ كان مستعدًّا لِخوضِ المعركة، واستطاعَ "سنان باشا" سحبَ الفرسان الصفويّين الذين هاجموا جناح الأناضول إلى المكان الذي يوجد به المدافع وإيقاعهم في الفخّ، ونجح في تفريق القوات الإيرانية بدعمِ نيران المدافعِ والبنادِقِ الكثيف الذي أمرَ جنوده بإطلاقِهِ من فوق العربات.

وتزعزعتْ وحداتُ الجيشِ الصفويّ التي كانتْ ستهاجم هذا الجناح بسببِ القصف النيرانيّ الكثيف، وانقطعَ الاتصالُ تمامًا بين الجنود، ومن ثمَّ وقعتْ مواجهاتٌ وجهًا لوجهٍ بينهم وبين الفرسان العثمانيّين، ولقد هُزِمَتْ القوّات الصفويّة بعد فترةٍ قصيرةٍ بعدما تعرَّضت وحداتُها للاهتزاز بسببِ قذائف المدفعية العثمانية، وبالرغم من أن العثمانيين انتصروا في المعركة التي وقعت في هذا الجناح، إلا أنهم فقدوا الكثير من القادة، وتشيرُ المصادرُ التاريخيّة إلى أن "سنان باشا" بادرَ خلال المعركة إلى السيرِ بنفسه على فَرَسِهِ بنفسِهِ لمهاجمةِ "أوسطالجو" أحدِ قادةِ القوّاتِ الصفويّة، وأسقطه من على حصانه برمحٍ قذفَهُ به، وبعدما سقط من على جوادِهِ أجهز عليه الجنود.

وأما الجنود الصفويون الذين هجموا في المعركة التي دارت رحاها في هذا الجناح فقد غادروا المكان وانضموا إلى وحدات الشاه.

واستمرَّت المعركةُ الشديدةُ بين جناحي الجيشِ العثماني والقوّات الصفويّة حتى العصر، وكبّد الطرفان بعضَهما خسائرَ فادحة، ولم يكن السلطان سليم قد أقحمَ حتى تلك اللحظة مركزَ جيشِهِ في المعركة، بل احتفَظَ به إلى حينِهِ، وكان يُتابِعُ سيرَ المعركة التي تدور رحاها على كلا جناحي جيشه، وكانت القوَّات المركزيّة قد دخلت في معركةٍ قصيرةٍ خلال هجومٍ استعراضيٍّ قام به الشاه، لكنّ قوات الشاه تجاوزتهم للذهاب إلى قتال جناح الروميلي كما أسلَفنا، وبعد مدَّةٍ وصل خبرٌ إلى مقرِّ قيادة الجيشِ مفادُهُ أن قوات "حسن باشا" في وضعيّة صعبةٍ، وأن جناحه على وشكِ الانهيارِ، فأصدر السلطان سليم على الفور تعليماته بدعمِ هذا الجناح، فجرى توجيهُ مجموعةٍ من جنودِ الإنشكاريّة المسلحين بالبنادق إلى هذا الجانب.

لقد بادر جنود الإنكشارية إلى نصبِ ستارٍ من النيران بشكلٍ سريع للغايةِ؛ من خلالِ إطلاقِ النار من بنادِقِهم، الأمر الذي أدهشَ الفرسانَ الصفويّين وجعلَهم يتفرَّقون، وأما الشاه إسماعيل الذي لم يكنْ يشعرُ بالقلق من هذا النوع من التعزيزات فكان -في الواقع- يُحاوِلُ إضعافَ القاعدةِ المركزيّة للجيشِ العثمانيّ من خلال إرسالِ المزيدِ من الجنودِ، وبهذه الطريقةِ يكون قد وجدَ لِنَفْسِهِ ثغرةً لمهاجمة مركز الجيشِ التركي.

واستطاعت الهجمات التي شنَّها جنودُ الإنكشاريّة المسلحون بالبنادق القادمون لتقديم المساعدةِ صدَّ هجومِ الصفويّين على الجناح الأيسرِ، كما أصبحَ الجنود الصفويون الذين تجمعوا عند المركزِ الرئيسِ للجيشِ غير

قادرين على التحرُّكِ من مكانهم بسببِ النيران الكثيفة، عندئذٍ حاولَ الشاهُ الحفاظَ على تجمُّعِ جنودِهِ في مكانٍ واحدٍ بعدما بدؤوا يتفرّقون، وشنَّ هجومه الأخير على مركزِ القوّات العثمانيّة من إحدى الثغرات، ونجحت القوّات الصفويّة في الالتفافِ من جانب الجيشِ العثماني بحركةٍ مفاجئةٍ، لكنها لم تستطعْ العبورَ إلى الطرفِ الخلفي للجيش العثماني بسبب أمتعة السُّلطان والجنودِ المتروكةِ هناك وأثقالِ الجيشِ والبغالِ المربوطة ببعضها، ولقد لاحظَ الجنودُ العثمانيّون أن الصفويّين يحاولون السيرَ إلى الطرف الخلفي للجيش، فبادروا بالعودة إلى ذلك الطرف وفتحوا نيرانًا كثيفةً على الجيشِ الصفويّ لِيَتَمَكَّنوا من تفرقةِ الشاه إسماعيل وجنوده، ويشبَّهُ هذا الهجومُ الذي قام به الشاهُ بِلاعِبِ الشطرنجِ الذي يتسبَّبُ في موتِ ملكِهِ بهجومٍ عشوائيٍّ من جانِبِهِ، وبحسبِ ما تنقلُهُ المصادرُ التاريخيّة العثمانيّة؛ فإن الأثقالَ التي كانت موجودةً وسطَ الجيشِ العثمانيّ كانت تحولُ دون حتى مرور الرياح ناهيك عن إمكانيّة مرورِ قوّاتِ العدوّ، ولقد كبّد هذا الهجومُ الشاهَ خسائرَ كبيرةً؛ إذ فقدَ قادةَ جيشِهِ وجنوده في هذا الهجوم، وأُصيبَ في ذراعِهِ بطلقٍ ناريّ من جنودِ الإنكشاريّة، إلا أنه استطاع الهروب من المكان الذي حوصرَ بِهِ بشقِّ الأنفُسِ.

وتشير المصادر التاريخية الإيرانية إلى أنه بخلاف حاملي البنادق في مركز الجيش العثماني؛ فقد فتح نحو ألف جندي إنكشاريٍّ النيرانَ من بنادِقِهِم صوبَ الجيشِ الصفويّ من ربوةٍ عالية... حاولَ الشاهُ إعادةَ تنظيمِ صفوفِ جيشِهِ تحتَ النيرانِ الكثيفةِ للجيشِ العثمانيّ، إلا أن جميعَ محاولاتِهِ باءَتْ بالفَشَلِ؛ إذ كان من المستحيلِ أن يقاوَمُ جيشُ السلطانِ سليم الذي يَعْتَبِرُ الانضباطَ أحدَ قوانينِ القِتالِ لديهِ إلى جانبِ امتلاكِهِ للأسلحةِ الناريّة المتطوِّرة في ذلك الزمان.

وكان تشكيلُ جنودِ الإنكشاريّة المسلَّحين بالبنادقِ خطًّا ناريًّا متحرّكًا من فوق العربات في أثناء المعركة واقعةً نادرةَ الحدوثِ في ميادينِ المعاركِ، وقد طوَّرَ العثمانيّون نظامَ الطابورِ الذي طبَّقه المجريّون قبل ذلك وجعلوه مناسبًا لقوّاتهم، واستطاعوا بفضل هذا التكتيكِ القضاءَ على فعاليات أعدائهم.

ولقد استطاع الشاهُ الهروبَ من ساحة المعركة بصعوبةٍ بالغةٍ عقبَ هذا الهجومِ الذي نفَّذَهُ الجيش العثماني، وبعد انسحابِ الشاهِ واصلَ جنودُهُ القتالَ لِفترةٍ بسبب تواجد أُسَرِهم في ميدان المعركةِ، لكنّهم لم يستطيعوا تحمُّلَ القتال أكثر وفشلوا في تحقيق أيّ انتصارٍ على القوات التركيّة.

وعندما حلَّ المساء على ميدان "جَالْدِيرَانْ" كان الجنودُ الصفويّون الباقون في ميدان المعركة إما قتلى أو مصابون، لكنَّ أُسَرَ معظمِهم حوصرت داخلَ خيامهم، حتى إن إحدى زوجات الشاه إسماعيل وقعَتْ في الأسر، وتُشير العديد من كتب التاريخِ إلى أنَّ هذه المرأةَ هي "تَاجْلُو خَاتُونْ (*Taçlu Hatun*)"، إلا أنها في الحقيقة "بَهْرُوزَه خَاتُونْ (*Behruze Hatun*)"، ذلك أن المؤرخ العثماني الشهير "خواجه سعد الدين أفندي" ينقلُ في أَحَدِ كتبِهِ ما سمعه من والده حول أن "تاجلو خاتون" سقطت في وقت المعركة الشديدة في يد ابن "مسيح باشا"، فمنحَتْهُ مجوهرَاتِها وتوسَّلَتْ إليه أن يُطلِقَ سراحَها، فعطفَ عليها وأطلق سراحها بالفعلِ.

لقد أصدرَ السلطان سليم أوامرَه إلى قادَتِهِ عقب انتهاء الجزء الساخن من المعركة، مفادُ هذه الأوامر أنه يُحْظَرُ تعقُّبُ الجنود الصفويين المنسحبين والهاربين وعدم مدِّ أيديهم على الممتلكات الصفويّة الباقية في أرض المعركة.

وكان السلطان محقًّا في قلقِهِ هذا، وكان بذلك يُحْبِط آخرَ مخطّطات الشاهِ العسكريّة، وكان الشاهُ قد اعتقدَ أن الجنودَ العثمانيّين سيَخْرُجونَ بأيّ حالٍ من خلفِ العَرَباتِ لتعقُّبِهِم، وأنه لو عاد وهاجمَ هؤلاء الجنود فربما يُحَقِّقُ نصرًا عليهم، كان السلطان سليم مدركًا لهذه الفكرة، وفكَّرَ في أنَّ انسحابَ الإيرانيّين ربما يكون حيلةً حربيّة، ولهذا أمر بعدمِ تعقُّبِ المنسحبين من الجيش الصفوي، وقد أفسدت هذه الخطة آخر مخططات الشاه.

وقد أمر السلطان سليم جنوده بعدمِ نهبِ ما تبقّى من الصفويّين من ممتلَكات، وكان سبب ذلك خشيتَه أن يتعرَّض جيشُهُ لهجومٍ مباغتٍ من جانب القوّات الصفوية في أثناء تشتت انتباههم بجمع الغنائم، لكن عندما وصلَتْ أخبارٌ من المخبرينَ والعيون العسكريّة المنتشرة في المكانِ تُفيدُ بأنَّ الصفويّين تفرقوا بالكامل؛ جمعَ العثمانيون ممتلكات الصفويين من أرض المعركة.

لقد سجَّلَ التاريخُ حالةً تاريخيّةً نادرةً عندما جعل الشاه إسماعيل جنودَه يجلبون أُسَرَهُم إلى أرض المعركة حتى يحاربوا بشكلٍ أفضل، الأمر الذي عرَّضهم للخطرِ الحقيقيّ، وكانت تعليماتُ السلطان إزاءَ التعامل مع النساء والأطفال الموجودين في أرض المعركة واضحةً بِعَدَمِ إلحاقِ الضرَرِ بأيّ واحدٍ منهم، ثم أصدرَ أوامرَهُ بإطلاق سراحهم.

وكانت معركة "جَالْدِيرَانْ" من أجمل النماذج التي تبرهن على مفهوم الحرب لدى الدولة العثمانية، وتظهر هذه المعركة أن السلطان سليم وضعَ تكتيكًا لِيَصِلَ إلى النصرِ من خلال إقحامِ قوّات المركز في المعركةِ وليس قوّات الجناحين التي كانت مهمّتُها هي سحب قوّات العدوّ إلى المركز،

وكانت قوّات الجناحين تُهاجِمُ العدوّ أحيانًا وتنسحب أحيانًا أخرى؛ لِتُضلِّلَ قوّات العدوّ بمناوراتٍ متعدّدة وتجعلهم يتخيّلون أنهم حقّقوا نصرًا مبكِّرًا، وأما الهجوم الأساسي الذي قضى على العدوِّ فكان يأتي من الجنود الموجودين بقلب الجيش الذين كانوا يقفون كالقلعة المتحرِّكة بعدما سحبوا جنود الجناحين من أمامهم، فجنود المركز هؤلاء المجهَّزون بالأسلحة النارية هم الذين كانوا يقومون بالضربةِ القاتلةِ، ولم يفهم الكثير من المؤرِّخين هذا التكتيك القتاليّ الذي اتبعه السلطان سليم في معركة "جَالْدِيرَانْ"، حتى إنهم استخدموا عبارات تُشيرُ إلى أن المعركةَ وكأنها انتهت بالتعادل (!)، بيدَ أن المعركة انتهت بالنصر المؤزر للعثمانيين، وفرَّ الشاه إسماعيل يجرجرُ أذيالَ الخزي والعار.

لقد خاض السلطان سليم شخصيًّا ثلاث معارك قتاليّة (جَالْدِيرَانْ، مرجدابق، الريدانية)، ليكون بذلك أكثر سلطان عثمانيّ يخوضُ المعارك بنفسِهِ؛ فبدلًا من أن يعتمدَ السلطان على الوصول إلى النتيجة في المعركة بواسطة الفرسان كأعدائِهِ؛ استخدمَهم كجزءٍ من تكتيكِهِ القتاليّ، وقد استطاعَ السلطان سليم الوصولَ إلى نتائج حاسمة بالأسلحةِ الناريّة في تلك المعارك.

وكانت معركة "جَالْدِيرَانْ" أول معركةٍ في تاريخ المعارك العالميّة يُحَدِّدُ جنودُ المشاة المسلحون بالبنادق نتيجتَها بشكلٍ مباشِرٍ، علمًا بأن البندقيّةَ لم تُستخدَمْ للمرة الأولى في عهد السلطان سليم؛ فعلى سبيل المثال استُخْدِمَتْ البنادق في عهد السلطان "محمد الفاتح" في معركة "أُوتْلُوكْبَلِي" التي وقعت بين العثمانيّين وقبيلةِ "آقْ قُويُونْلُو" عام (١٤٧٣م)، لكن كانت معركة "جَالْدِيرَانْ" هي أولى المعارك التي أثرت فيها الأسلحة النارية المحمولة إلى هذه الدرجة، وكان هذا التكتيك إضافةً مهمّةً للسلطان سليم في تاريخ المعارك العالميّ.

وبحسب المعلومات التي تنقلها المصادر التاريخية، فقد تكبّد الجيشان العثماني والصفوي خسائر قريبة من بعضها في معركة "جَالْدِيرَانْ"، وبالرغم من اختلاف هذا الرقم من مصدر إلى آخر؛ فإن الخسائر الإجمالية كانت في حدود خمسة آلاف شخص.

وكانت معركة "جَالْدِيرَانْ" هي أول معركة يسقط فيها هذا الكمُّ والعددُ الهائلُ من الضحايا من مستوى أمراء السناجق والقادة العسكريين، وهذا إن دل على شيء فيدل على أن تلك المعركة كانت صعبةً وشديدةً وحاميةَ الوطيسِ للغاية.

ولم يترك السلطان سليم شهداء جيشه في ميدان المعركة، بل أمر بجمع جثامينهم وإقامة مراسم لهم وحفر أضرحةٍ جماعيّةٍ لِدَفْنِهم، وقد دُفِنَ جميعُ الشهداء العثمانيّون في مدفن جماعي مصحوبين بالأدعية، كما أمر السلطان بتشييدِ شاهدٍ للقبر محفور عليه تواريخ استشهاد الجنود العثمانيين، وبعد إتمام مراسم الدّفن قرأ الفاتحة وغادر قافلًا.

النصب التذكاري لمعركة "جَالْدِيرَانْ"

السلطان سليم الأول

ما بعدَ النصر

بانتصار القوات العثمانية في معركة "جَالْدِيرَانْ" حقق السلطان سليم انتصاره الأول في المعارك الميدانية التي خاضها بنفسه، وكان هذا الانتصار كأنه إشارة للانتصارات الأخرى التي سيحققها لاحقًا، وفي الواقع لا يذكر أي مصدر أن السلطان سليم تعرض للهزيمة في أي معركة بخلاف المعركة التي خاضها ضدَّ جيشِ والدِهِ، يُعتبر النجاحُ الذي حقَّقَهُ الجيش العثماني في معركة "جَالْدِيرَانْ" انتصارًا للتصميم العسكري للسلطان الجديد وصلابتِهِ وعدم تخلّيه عن الانضباط وصبرِه.

وكان السلطان قد أمر بنصب خيمته في ميدان المعركة، وأصدرَ تعليماتِهِ بتوزيعِ مكافآتٍ ماليّة على الجنود كدليلٍ على النصرِ، كما أمرَ في اليومِ نفسِهِ بإرسالِ رسالةٍ لإعلامِ ابنِهِ الأميرِ سليمان بالنصرِ الذي حقَّقَهُ في "جَالْدِيرَانْ".

لم تكن تلك السنوات بها نعمة الاتصالات الموجودة حاليًا، وكانت الأحصنةُ هي أهمّ وسيلةٍ لِتَبادُلِ الأخبارِ؛ إذ وصلَ خبرُ النصرِ إلى الأميرِ سليمان بعد أسابيع من تحقيقِهِ، كما أمر السلطان بإرسالِ خطاباتٍ إلى المماليك وخان "القِرِم" وأمراء "أفلاق" و"بوغدان" لإعلامِهِم بالنصر الذي حقَّقَهُ الجيشُ العثمانيّ وإطلاعهم على تطوُّراتِ الأوضاعِ.

ولقد ساهم هذا النصر في إثبات السلطان سليم أنه أكبرُ قوَّةٍ في العالَمِ الإسلاميّ للأصدقاءِ قبل الأعداء، وكان العثمانيون قد اشتهروا بالغزوات التي يخرجون فيها إلى الغرب، لكنهم هذه المرة تولّوا مهمَّةَ التصدّي للفِتَنِ التي يُمكِنُ أن تنشبَ في الدول الإسلاميّة في الشرق، وبِفَضْلِ هذا الانتصارِ

orekanal.com

تخلَّصَ العثمانيّون من الفوضى والغموضِ الذي تسبَّبَ به الشاه إسماعيل في الأناضول.

ولم يكتفِ السلطان سليم بهذا النصر؛ إذ نوى الخروج في غزوات أخرى على الأراضي الإيرانيّة، إلا أن الظروفَ ستُجْبِرُهُ على الخروجِ في غزواتٍ ناحية الجنوب.

ويروي المؤرخ الشهير والعالم الكبير في عهد السلطان سليم "إدريس بِدْلِيسِي" (ت: ٩٢٦هـ/١٥٢٠م) أن بعضَ العلماءِ والفضلاءِ والفنانين ممن اضطرُّوا للرِّضا بِظُلْمِ الشاهِ إسماعيل قد أطلق سراحهم بناءً على الأوامر الصادرة من قبل السلطان سليم وتخليصهم من ظلم الشاه.

ورأى السلطان سليم بعد مدَّةٍ الأمراءَ االمحلّيّين الذين جاؤوا للانضمام إليه، وكان "حاجي رستم" أحدَ الأمراءِ الذين جاؤوا لِتَقْدِيمِ فروضِ الطاعة والولاء للسلطان مع خمسين من رجالِهِ، غير أن السلطان أمر بحبْسِهِ، وبعد يومين أصدرَ تعليماتٍ صارمةً بإعدامِهِ هو ورجالُه، كما اتَّبَعَ السلطانُ الأمرَ نفسَهُ مع رجلٍ اسمه "خالد بك" قال إنه جاءَ للانضمامِ إليه، فأمر بتقديم مائدة غداء إليه هو ومائةٍ وخمسين من رجالِهِ وقَتَلَهم جميعًا في أثناءِ تناوُلِهِم الطعامَ، ولقد استغربَ من لا يعرفون السلطان جيّدًا من هذه التصرُّفات؛ إذ لم يكن من المفهوم قتلُ أشخاص أعلنوا ولاءهم له، غيرَ أن هذه المسألة فُهِمَتْ بعد ذلك، وفي الواقع كان هذا مخطَّطٌ آخر وضعَهُ الشاه إسماعيل الذي كان يريدُ تسلُّلَ رجالِهِ إلى داخِلِ الجيشِ العثماني من خلال التظاهُرِ بالولاءِ للسلطان سليم، وكانت تعليماتٌ قد صدَرَتْ إلى هؤلاء الرجال الذين تسلَّلوا إلى داخلِ الجيشِ العثمانيّ من الشاه بتنفيذِ عمليّاتِ اغتيالٍ ضدَّ السلطان والوزراء، لكن السلطان سليم كان منتبهًا جدًّا إزاءَ مثلِ هذهِ

الحِيَلِ الرخيصةِ، وقد فعلَ اللازمَ وأفشلَ مكائدَ هؤلاء الأمراءِ الذين كانوا يدعمون الشاه إسماعيل ويتسببون في العديدِ من التمرُّدات في الأناضول ويَنْهَبُونَ القرى والبلدات ويرتكبونَ المذابحَ ضدَّ السكّانِ المحلِّيين.

ووصل السلطان سليم إلى "تَبْرِيز" بعد مرور خمسة عشر يومًا من انتصارِهِ في موقعةِ "جَالْدِيرَانْ"، وأمرَ بتنظيف جامع السلطان حسن، وصلى فيه صلاةَ الجمعةِ، وخُطِبَت خطبة الجمعةِ باسمِهِ، وبينما كان في "تَبْرِيز" أمرَ باستدعاءِ ابن حفيد تيمور لنك "بديع الزمان ميرزا"، واهتمَّ به عن كثبٍ، وقال إنه يرغب في التخلُّصِ من "قِزْلْبَاشْ" الذين كانوا يشعلون نيران الفتن، وقد حزنَ السلطانُ سليم على حال ميرزا، وأخبرَهُ أنه سيُعِيدُهُ إلى العرشِ بعدما يفرض سيطرَتَهُ على دولة الهندِ والسِّنْدِ، كما عرضَ عليه اصطحابَهُ إلى إسطنبول؛ فَقَبِلَ "ميرزا" هذا العرضَ، وانتقل إلى إسطنبول.

وطاف السلطان سليم في "تَبْرِيز" ورأى قصرَ الشاه إسماعيل الشهير "هشن بهشت"، ولم يكن السلطان يحبُّ البهرجةَ والتفاخرَ؛ إذ كان يعيشُ حياتَهُ ببساطَةٍ، ولهذا لم يفضِّل الإقامةَ في ذلك القصر المشهورِ، وآثرَ الإقامةَ في خيمتِهِ التي نُصِبَتْ خارجَ المدينة، وبينما كان في تلك المدينةِ استدعى كذلك "حافظ محمد" والد "حسن جان" أحدِ أقربِ رجالِهِ، وكان السلطان يرغبُ دائمًا في أن يحيطَهُ الأشخاصُ ذوو المهارة العالية، وقد دعا حافظ إلى خيمتِهِ بعدما سمعَ كثيرًا عن شهرتِهِ بتلاوةِ القرآن بينما كان أميرًا، وعندما سَمِعَ صوتَهُ العذبَ وهو يُرتِّل القرآن الكريم؛ استدعاه لِلْخِدْمَةِ في القصرِ.

وقد قال في حديث أجراه مع حسن جان -أحد رجاله المقرَّبين- ما يلي:

السلطان سليم الأول يلتقي بـ"بديع الزمان ميرزا" (ت: ١٥١٥م) بعد معركة "جَالْدِيرَانْ".
[حيث يجلس "بديع الزمان ميرزا" في الشمال]. (سليم نامه، *140a*)

"لم نخرج في أيّ غزوةٍ برغبَتِنا، بل وُظِّفْنَا دائمًا بهذه التحرُّكات".

وكان الشاه إسماعيل يعلمُ قبلَ الحربِ أهمِّيَّةَ المدفع في المعركة، حتى إنه استورَدَ مدافع، وكما سنرى لاحقًا فإن المماليك كذلك استوردوا مدافع لمواجهةِ القوات العثمانية، لكن كان استيراد أحد الأسلحةِ شيءٌ ومعرفةُ استخدامِهِ تكتيكيًّا في ميدانِ المعركةِ شيءٌ آخر، ولم يكنْ الصفويّون والمماليك يمتلكون الخبرةَ الكافية لاستخدام هذا النوع من الأسلحةِ، وكانوا يعتقِدون أن المدافِعَ لا تُسْتَخْدَمُ سوى من أجل إسقاط الأسوار في أثناء حِصارِ القِلاعِ، غير أن البندقيّة كانت أكثر الأسلحة التي أرهقتهم أكثر من المدفع؛ إذ جعلَتْ البنادقُ التي استخدَمَها العثمانيُّون الجيشَ الصفويّ في وضعيّةٍ حَرِجَةٍ للغاية، ذلك أنهم لم يكونوا يعلمون قبل ذلك أنها تُسْتَخْدَمُ بهذه الطريقة في ميادين القتال.

ولم تكن في الجيش الصفوي وحدات مسلَّحةٌ بالبنادِقِ تستطيعُ مواجهةَ الجنود العثمانيّين المسلَّحين، كما لم يكن لدى الجنود الصفويّين أدنى فكرة حول كيفيّة الاستفادة من هذه الأسلحة الخفيفة الحديثةِ في المعارِكِ، هذا فضلًا عن أن إحدى الوثائق تُشيرُ إلى أن الشاهَ إسماعيل لم يُحاوِلْ إلا عقب معركة "جَالْدِيرَانْ" أن يُشكِّلَ وحدة من الجنود المسلحين بالبنادق، حتى إنّه عيَّنَ أحدَ القادة العسكريّين ليكونَ رئيسًا لهم، ووضعَ تحت إمرته وحدة من الجنود المسلّحين بالبنادق قوامها ألفا جندي.

وتتضمن المصادر التاريخية معلومات مثيرة حول استخدام الصفويّين للبنادق، وبالرغم من أن عشرين جنديًّا إنكشاريًّا سابقًا حاولوا تعليمَ الجنود الصفويّين استخدامَ البندقيّة؛ إلا أنه لم يستطع أحدٌ من الجنود الصفويّين استخدامَها بشكلٍ صحيحٍ، بل إن بعضهم أحرقَ وجهَهُ والبعضُ الآخرُ عينَهُ.

ولم تكن علاقةُ الصفويّين بالأسلحةِ الناريّة محدودةً بهذا القدر، وتشيرُ الوثيقةُ نفسها إلى أن الدولة الصفويّة حاولت استخدام المدافع وعرباتها التي تُسْتَخْدَمُ في المعارك الميدانيّة كما يفعل العثمانيون، وكان العثمانيّون قد تركوا مدفعًا وعربته في الوحل بسبب هطول الأمطار الغزيرة بينما كان الجيش يعبرُ نهرَ "أراس (*Aras*)"، فاستخرجه الإيرانيّون من الوحل وصنعوا مدفعًا وفقًا لنموذجه، وبهذه الطريقة استطاعوا تصنيع خمسين مدفعًا بعرباتهم، غير أن الوثيقة لا تبين مدى نجاح الصفويين في استخدام هذا النوع من الأسلحة.

obeikandl.com

أين سيقضون فصل الشتاء؟

أجرى السلطان عددًا من الاجتماعات مع وزرائه في "تَبْرِيز" من أجلِ تحديد السياسة التي سينتهجونها في المرحلة المقبلَةِ، ولم يكن السلطان سليم يسمح إطلاقًا بِعدم إتمام إنجاز أيّ عملٍ من أعمال الدولة، وبالرغم من تحقيق انتصارٍ في معركةِ "جَالْدِيرَانْ"؛ كان السلطان يعتبره غير كافٍ؛ إذ كان الشاه إسماعيل لا يزال على قيدِ الحياة وكان من الممكِنِ أن يتسبَّبَ في فتن جديدة.

وكان السلطان ينوي قضاء فصلِ الشتاء في "تَبْرِيز"، ثم حلّ القضيّة الإيرانية بالكامل مع حلول الربيع، وكان السلطان يُفكِّرُ في التقدُّمِ حتى خراسان، لكن الوزراء الذين الْتَقَاهم لم يكونوا يوافقونه الرأيَ؛ إذ تحدثوا معه حول المشاكل التي سيتسبب بها قضاء الشتاء في "تَبْرِيز"، وأفادوا بأن أكبرَ المشاكلِ التي سيواجهونها ستكون في توفيرِ المُؤَنِ، وكانوا يَرون أن تعداد الجيش كبيرٌ للغاية، وكان يجبُ توفير الأكل للجنود، فضلًا عن توفير العلف بأنواعه للحيوانات التي تحمل أثقالهم وكذلك الجياد التي لعبت دورًا حاسمًا في المعركة، بيد أنه لم يكن من الممكن توفير المؤن من المناطق المحيطة بالمدينة لأن الشاه أمر رجاله بإحراق الأخضر واليابس فيها.

ولقد عزا الوزراء ضرورة عدم الإقامة في تلك المنطقة إلى الجفاف الذي شهدته تلك المنطقة في ذلك العام، وتحدثوا عن صعوبة إقامة الجنود في ظل الإمكانيات المحدودة وأن الإقامة في مثل هذه الظروف ربما تقدم فرصة للشاه إسماعيل للهجوم عليهم.

وكان السلطان سليم يُفكِّرُ في أشياء مختلفة تمامًا، ولم يكن معجبًا بالكلام الذي يرويه وزراؤه، غير أنه شعرَ أنهم على حقٍّ، فلم تكن هناك إمكانيّة لِقضاء الشتاء في "تَبْرِيز"، وكان من الواضح أن الإقامة بالمدينة ستُفضي إلى العديدِ من المشاكل.

وكان لدى السلطان سليم دائمًا خطَطٌ بديلة، ولأنه كان يُفكِّرُ في قضاء الشتاء في مكانٍ قريبٍ لإيران إن لم يكن "تَبْرِيز"؛ فقد فتح أمام وزرائِه فكرة "قره باغ".

لقد تحدث السلطان في الاجتماع عن أن "قره باغ" تُعْتَبَرُ مكانًا يقضي فيه شاهات إيران فصل الشتاء، وقال لهم إن تلك المدينة يوجد بها القدر الكافي من الإمكانيات والمؤن التي تكفي لتغذية الجيش والحيوانات التي يستخدمها الجنود، مشيرًا إلى أن المدينة عامرةٌ بالمأكولات والمشروبات، وقال لهم إن "قره باغ" تُعتَبَرُ المكانَ الأمثلَ لِقضاءِ فصل الشتاءِ لأنّه يُمكِنُ توفيرُ المؤنِ من الأماكن القريبة منها في حالةِ مقابلةِ مشاكل في هذا الخصوص.

ولهذه الأسباب أعرب السلطان عن رغبتِهِ في قضاءِ فصلِ الشتاء في "قره باغ"، وطلبَ من قادَتِهِ تزويدَهُ بمعلوماتٍ حول المدينة لمعرفةِ وضعِها الحالي وما إذا كانت الظروفُ بها تسمحُ لإقامة الجيش بها في فصل الشتاء أم لا، وأخبرهم بِرَغْبَتِه في العودة إلى الأناضول لو لم تكن الظروف مواتيةً.

ولم يكن أيٌّ من الوزراء الذين الْتَقَاهم السلطان على درايةٍ بالمنطِقَةِ بقدر السلطان سليم الذي كان يعرف المنطقةَ جيّدًا منذ أن قضى فترةً طويلةً أميرًا في "طِرَابْزُونْ"، وكان وفق هذه المعلومات يرسمُ مخطَّطَ تحركات جيشِهِ، وعندما وصَلَتْهُ أنباءٌ تُفيدُ بِتَناسُبِ الإقامةِ في "قره باغ"، تحرَّكَ على رأسِ الجيشِ من "تَبْرِيز" قاصِدًا تلكَ المدينة، وفي تلك الأثناء اتَّبَعَ التقليد

الـذي كان يتبعـه جـدُّه عندمـا كان يصطحـب الشـخصيّات الذكيـة والعلمـاء إلى إسـطنبول عقب تحقيقِ الفتوحات، وفي هذا الإطار أمر السـلطان سـليم باصطجـاب العلمـاء والفنّانيـن ومهرة الحرفيّيـن الموجودين فـي "تَبْرِيز" إلى إسطنبول بغيةَ أن تكونَ عاصمةَ العلومِ والفنونِ وليست عاصمةَ السياسةِ فقط.

وعندمـا وصلَتْهـم أنباءٌ عن أنَّ الأوضاعَ تسـمحُ لإقامـة الجيش في "قره بـاغ"؛ سـار الجيـش في طريق "نَخْجِـوَانْ (*Nahcivan*)"، ثم عبـرَ من الأماكن القريبـةِ مـن حـدودِ "جورجيـا"، وبعد ذلك انطلـقَ في الطريـق الموصلة إلى "قـره بـاغ"، فـكان السـلطانُ يسـيرُ بجيشِـهِ من أكثرِ الطُّـرُقِ أمنًـا، وكان يقودُ السلطانُ جيشَهُ بنفسِهِ.

وكان مـن ضمـن الأشـياء التـي جَعَلَتْ السـلطان يرجّـح مدينـة "قره باغ" دون غيرها هو كونُ المنطقةِ الواقعةِ بها مناسبةً جغرافيًّا وأنها تقـع في مكان يمكـن فيـه توفيـر المؤن مـن أهل "جورجيـا"، أو المؤن التي يُمكـن أن تأتي بحـرًا عـن طريـق "طِرَابْزُونْ"، لكـن الجيشَ واجَهَ أمورًا لم تكن في حسـاب السلطان.

لقـد ظهـر السـخط المنتشـر بيـن الجنـود جيّـدًا عندمـا كانـوا يعبـرن نهر "أراس"، وكان هنـاك فيضـان فـي النَّهـرِ، ولهـذا السـبب انجـرفَ عـددٌ كبيـرٌ مـن الجنـودِ والحيوانـات في الميـاهِ، ولقد أُصيبـت الروحُ المعنويّـة للجنودِ بالإرهـاقِ بسـببِ سـقوطِ شـهداء بينمـا يعبـرون نهـرًا وليس فـي معركةٍ ضدَّ العـدوِّ، وإذا أَضَفْنـا إلـى ذلـك المجاعـةَ التـي انْتَشَـرَتْ علـى طـولِ الطريق؛ سنَجِدُ أنَّ مرجلَ الفتنةِ بدأَ يغلي بين الجنود العثمانيّين.

وشـعرَ جنـودُ الإنكشـارية بالغضبِ بسـبب سـقوط بعـض رفاقهم غرقى فـي النهـر، وهمـوا بمحاصـرة خيمـة السـلطان علـى شـاطئ النهـر بتحريضٍ

من بعضِ الوزراءِ والأمراءِ، وبدؤُوا يتظاهرون رافعين ملابِسَهم المهترِئَةَ وصنادِلَهم البالية بسببِ السيرِ على أسنَّة رماحِهم، وأعربوا بصوتٍ عالٍ عن رغبَتِهم في العودة إلى الأناضول، وبهذه الطريقة تلاشَتْ الفكرةُ التي وضعَها السلطان في عقلِهِ بقضاءِ الشتاء في "تَبْريز" أو "قره باغ" القريبتين من "إيران"، وبناء عليه؛ اتَّخَذَ السلطانُ -عن عدم رضًا منه- قرارًا بِقضاءِ الشتاءِ في مسقطِ رأسِهِ بمدينةِ "أَمَاسْيَا"، وإن كان السلطان سليم قد بدا وكأنّه أذعنَ ووافقَ على مطالبِ الإنكشارية في ذلك الوقت العصيبِ، فلم يكن مفهوم الدولة لديه يستند إطلاقًا إلى الخضوعِ لِمطالِبِ العسكرِ، وسنرى كيف أنه سيأخذُ بِثَأْرِهِ من هذه الحركة لاحقًا.

لقد بادرَ السلطان في البداية إلى إدخالِ بعضِ التعديلات على وظائف بعض الإداريّين، وعزلَ بعضهم من وظائفهم، وكان أمامهم طريقٌ صعبٌ للغايةِ ينتظِرُ الجيشَ العثمانيَّ حتى الوصول إلى مدينة "أَمَاسْيَا"، وكان ممّا أتعبَ الجيشَ كثيرًا مُشكلةُ نقصِ المُؤَنِ من ناحيةٍ ومن ناحيةٍ أخرى هطول الثلوج.

ولم تكن الثلاثةُ آلاف شاة التي أرسلها أميرُ "جورجيا" ولَا المؤنُ التي وَفّرَها الوزيرُ "بيري باشا" عندما ذهب إلى "بَايْبُورْت (*Bayburt*)" كافيةً لمؤونة الجيشِ العثمانيّ الكبير.

وهَجَمَ بعضُ الجنودِ العثمانيّين على القرى المجاورةِ بسببِ مشكلة المجاعة التي واجهوها، وعندما وصلت هذه الأنباءُ إلى السلطان الذي كان يتحرَّكُ دائمًا وفقَ الحقِّ والقانونِ؛ جن جنونه، فأمر بالعثور على من فعل ذلك من الجنود، وأصدر أوامره بإعدامهم أمام الجميع فورًا، فلم يكن لمن يأكل الحرام مكان في جيش السلطان سليم.

كما أمر السلطان بعزل الصدر الأعظم "هَرْسَكْ زَادَه أحمد بَاشَا (*Hersekzâde Ahmed Paşa*)" والوزير الثاني "دُوكَاكِينْ أُوغْلُو أحمد بَاشَا (*Dukakinoğlu Ahmed Paşa*)" من منصبيهما عن طريقِ هدمِ خيمتِهما فوقَ رأسيهما بعدما تصرَّفا بتهوُّرٍ وأظهرا قصورًا في السيطرةِ على شؤونِ الجنود، وحظرَ ارتداءَ قلنسوةٍ بيضاء باستثناء البوابين والإنكشاريين من أجل ضبطِ من تُسَوِّلُ له نفسُهُ اتّباعَ الشيطان لاحقًا، ولقد عرف الجنودُ حدودَ الحلالِ والحرامِ لدى السلطان من الآن فلاحقًا، ولقد انتهت الرحلة بوصولِ الجيشِ إلى "أَمَاسْيَا" مع نهاية شهر نوفمبر/تشرين الثاني.

وأرسل الشاه إسماعيل خطابًا يتضمن رسائل مراوغة بينما كان السلطان في "أَمَاسْيَا"، فَرَدّ عليه السلطانُ برسالةٍ قاسيةٍ للغاية تحثُّه على اتِّباعِ الواجبات الدينيّة.

وعندما كان السلطان يفكِّرُ في الإعداد لغزواتٍ جديدة عقبَ فصلِ الشتاء في "أَمَاسْيَا"؛ لاحظَ أن كادِرَهُ ليس مستعدًّا لهذه الخطوةِ، وكان رجال الدولة قد اعتادوا على السكون والهدوءِ الذي كان مهيمنًا على عهدِ السلطان بايزيد الثاني، ولهذا حاولوا كبحَ جِماحِ السلطان الجديدِ، لكن مهمَّتهم لم تكن سهلةً على الإطلاق.

لم يكن السلطان سليم هادئَ الطباعِ كما كان والده، ولم يكن يهتم بالقضايا الفرعيّة، وكان ينوي انتهاجَ سياسةٍ شجاعةٍ تهدف إلى التأثير في السياسات الأساسيّة للدولة بشكلٍ مباشِرٍ، وإذا جاز التعبير يمكننا القول إن العربات -وزراء السلطان- كانت عاجزة عن مجاراة سرعة القاطِرة -السلطان-، ومن ناحية أخرى كان هناك من يضعُ الحجارة على طريق القاطرة، وكان في مقدمتهم طبقةُ الإنكشارية.

وكان من المستحيل أن ينظر سلطان كالسلطان سليم بعين الرضا إلى الواقعتين اللتين تسبَّبَتْ فيهما الإنكشارية في طريق الغزوة وفي أثناء العودة منها لكنه آثر الصبر مؤقَّتًا، وكان يعلم أن السلطانَ الذي لا يُسيطرُ على جنودِهِ يفقدُ حكمَهُ لا محالةَ، وعقب الواقعة الأخيرة التي حدثتْ في "أَمَاسْيَا" اتَّخَذَ قرارًا بإثبات من يجب أن تكون دفة السفينة بيديه.

ولقد بدأَتْ الواقعةُ بتمرُّدِ الإنكشاريّة لكي لا يخرج الجيش في غزوةٍ جديدة على إيران، وكان السلطانُ مدركًا أنَّ بعضَ رجالِ الدولةِ هم الذين يحرضون الجنود، وكانت مجموعةٌ من متمرّدي الإنكشاريّة قد اقتحموا ليلًا منزلَي الوزيرِ "بيري باشا" الذي كان يقدّرُه السلطانُ كثيرًا وأستاذ السلطان الذي كان يحترمُهُ كثيرًا ولم يتخلّ عنه منذ أن كان أميرًا في "طِرَابْزُونْ" "حاليمي شلبي (*Halimi Çelebi*)"، ونهبوا ممتلكاتهما، واستطاع الرجلان أن ينقذا نفسيهما من بين أيديهم بشقِّ الأنفُسِ، وكان الإنكشاريّة قد تظاهروا بمعارضةِ تعيينِ "بيري باشا" وزيرًا وهو ليس من "الدّوشيرمه" بل من الطبقة البيروقراطيّة.

لم يكن السلطان سليم لِيَصْبِرَ على تدخُّلِ الإنكشاريّةِ -الذين يتمتَّعون بمكانةٍ مهمَّةٍ في الجيشِ- في شؤونِ عالَمِ السياسةِ، وتيقَّنَ السلطانُ من أن الصدرَ الأعظمَ "دوكاكين أوغلو أحمد باشا" هو الذي يقودُ هذه العمليَّةَ، ففرضَ عليهِ أقسى العقوباتِ، ولم تكنْ عقوبةُ الإعدام هذه تعني أن المسؤولين الآخرين عن تلك التطوُّراتِ سيبقون دونَ عقوبةٍ؛ إذ انتظرَ السلطانُ العودةَ إلى إسطنبول من أجلِ معاقبةِ الباقين.

على مشارفِ قلعةِ "كَمَاهْ"

عندما أرجأَ السلطانُ معاقبةَ أصحابِ الفِتَنِ حتى العودةِ إلى إسطنبول، اعتقدَ بعضُهُم أن السلطان أغلقَ ملفَّ هذه القضيّة؛ إلا أنه كان يعرفُ كيفَ وأينَ يتحرَّكُ، وكان يُدْرِكُ أنَّ طريقَ الغزوةِ ليس هو المكان المناسب لحلِّ هذهِ المسألة.

وكانت ثمة قضيّتان يجبُ حلُّهما أثناء التواجُدِ في "أَمَاسْيَا"، إحداهما قلعةُ "كَمَاهْ (*Kemâh*)" التي كانت تتمتَّعُ بأهمّيّة إستراتيجية وكان يسيطر عليها الصفويون، وثانيتهما العلاقات مع "ذي القادر أُوغْلُو علاء الدولة".

وكان السلطان يُحاوِلُ تطويرَ سياساتٍ جديدةٍ للتّعامُلِ مع العشائرِ المحلّيّة في الشرقِ، وكان يجهِّزُ البنيةَ التحتيّة اللازمة قبلَ أيّ غزوةٍ يخرجُ فيها ضدَّ الصفويّين في المستقبل، ولم يكن يرغبُ في أن يَتْرُكَ وراءَهُ أيَّ قضيّةٍ دون أن تُحَلْ قبل أن يخرج إلى الغزوِ.

وكان الجانب العثماني يتلقى أخبارًا تفيد بأن الجنود الصفويين الموجودين في قلعة "كماه" سيهاجمون الأراضي العثمانيّة مستغلِّين الميزةَ الإستراتيجيّة للقلعةِ، وفي الوقت نفسه دخلَ بعضُ الجنودِ الصفويّين في اشتباكٍ مع قوات الحرس الموجودة في مدينة "أَرْزِينْجَانْ"، وشنوا هجومين على قبيلة "بَايِنْدِيرْلِي (*Bayındırlı*)" الذين يُعتَبَرُون من مواطني دولةِ "آقْ قُويُونْلُو" القديمة التي تُعتبر آنذاك من الشعب العثماني، وقتلوا "بايندرلي حسن بك"، وأسروا عائلتَهُ وشعبَهُ.

وعقبَ هذه الأحداث وصلَتْ فرقةٌ من الجيش العثماني على الفور إلى "أَرْزِينْجَانْ" وشنّوا هجومًا ليليًّا على الجنود الصفويّين، وقضوا على معظمِهِم وأعادوا السيطرةَ العثمانيّة على المدينة.

ولقد أظْهَرَتْ التطوُّرات الأخيرةُ أن انتزاعَ قلعةِ "كماه" من أيدي الصفويّين أمرٌ مهمٌّ للغاية بالنسبة للدولة العثمانية، وكان بعضُ الأمراء العثمانيّين يقولون إنه يجبُ السيطرة على هذه القلعةِ في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ لِضَمانِ أمنِ مدينتي "بايبورت" و"أَرْزِينْجَانْ".

وفكَّرَ السلطان سليم في بدءِ الغزوةِ الشرقيّة التي سيخرج فيها في الربيع بالسيطرة على قلعة "كماه"، فأمرَ بِحَشْدِ الجنود، وكان يوجد مدفعان كبيران في قلعة "تُوقات (*Tokat*)"، فأصدرَ أوامرَهُ بِجلبِ هذين المدفعين لحاجةِ الجيشِ إليهما.

لقد جرى توظيفُ ألفي جنديٍّ من التركمان من أجل نقلِ الموادِ العسكريّة وتوفيرِها، وكذلك تم شراء ألفُ ثورٍ، وفي الوقت الذي كانت تجري فيه الإعداداتُ العسكرية للحِصارِ؛ أرسلَ السلطان وحداتٍ استطلاعيّة إلى قلعة "كماه"، ومن جانبهم أبلغ الجنود الصفويون الموجودون في القلعة هذه التطورات على الفور إلى الشاه إسماعيل.

وخرج السلطان سليم يوم التاسع عشر من أبريل/نيسان من مسقط رأسه في "أَمَاسْيَا"، ووصل إلى مشارف قلعة كماه يوم التاسع عشر من مايو/أيار، وكان سببُ ترجيحِهِ لهذه الرحلةِ التي استغرقت شهرًا متابعتَهُ لما يفعله الشاه إسماعيل في تلك الفترة.

وكان السلطان يحاول أن يفكَّ طلاسمَ العلاقة بين الشاه و"ذي القادر أوغلو علاء الدولة"، ووصل السلطان إلى "كماه" عبر "أَرْتُوكْ أُووَا (*Artukova*)" و"سِيوَاسْ" و"مَرْزِيفُونْ (*Merzifon*)" و"أَلْمَالِي (*Elmalı*)".

وكانت القوَّات الاستطلاعية التي أرسلها السلطان قبل ذلك إلى القلعة قد حاصرت القلعة، وعندما وصلَ السلطان ازدادَ الحصارُ على القلعةِ، فامتطى السلطان جوادَهُ وجالَ حول القلعةِ، ولمّا عادَ جمعَ جنودَهُ وخاطبهم بقوله:

"أريد أن يهتمَّ المجاهدون بفتحِ هذه القلعة انطلاقًا من بَرَكَةِ نيَّتِهِم الخالصة اعتبارًا من هذه الساعة التي تسطعُ فيها الشمسُ كالقنديل وحتى غروبِها وساعات الليل الأولى، وعليكم أن تدركوا أن المعركة إنما هي البسالة، ففي البداية أرغبُ من جنودي الشجعان أن يُلْقُوا ذراعَ الشجاعة على الأسوارِ كالحبالِ والسلالم، وأن يرفعَ أكابرُ ميدان المعركة أعلامَ البسالةِ على أبراج تلك القلعة".

وعقب إنهاء السلطان خطبته، وُجِّهَتْ فوَّهاتُ المدافِعِ والبنادِقِ صوبَ قلعةِ "كماه"، وبدأ قصفٌ عنيفٌ منذ ساعات الصباح الأولى و استمرَّ حتى وقت الظهيرة، وقد صعدت مجموعة من الإنكشارية إلى ربوةٍ عاليةٍ وبدأت تصطاد حراسَ القلعةِ من بعيد كالقنَّاصين، وكانت هذه الطريقة قد أفادت العثمانيين في معركة "جَالْدِيرَانْ"، وكذلك أفادَتهم في حصارِ قلعة "كماه"، واعتبارًا من بدءِ القصف سقَطَتْ القلعةُ في أيدي الجيشِ العثمانيّ في غضونِ ستِّ ساعات، ويُعتَبَرُ هذا دليلًا آخر يُظْهِرُ تفوُّقَ الجيش العثماني.

وبعد سقوط القلعةِ دخَلَها السلطانُ "سليم" على ظهرِ جوادِهِ، وأمر بصيانةِ القلعةِ والأسوارِ المهدَّمَةِ بفعلِ المدفعيّة العثمانيّة، كما أصدر تعليماتِهِ بإضافة أبراج جديدة لزيادة إحكامِ حمايةِ القلعةِ، وعيَّنَ أحدَ قادتِهِ قائدًا لها، وجعل تحت إمرته سبعمائة جنديّ إنكشاري، أقام السلطان في "كماه" ثمانية أيام، ثم واصلَ طريقَهُ، وكان هذا الفتحُ يعني بترَ إحدى أذرُعِ الصفويّين في الأناضول.

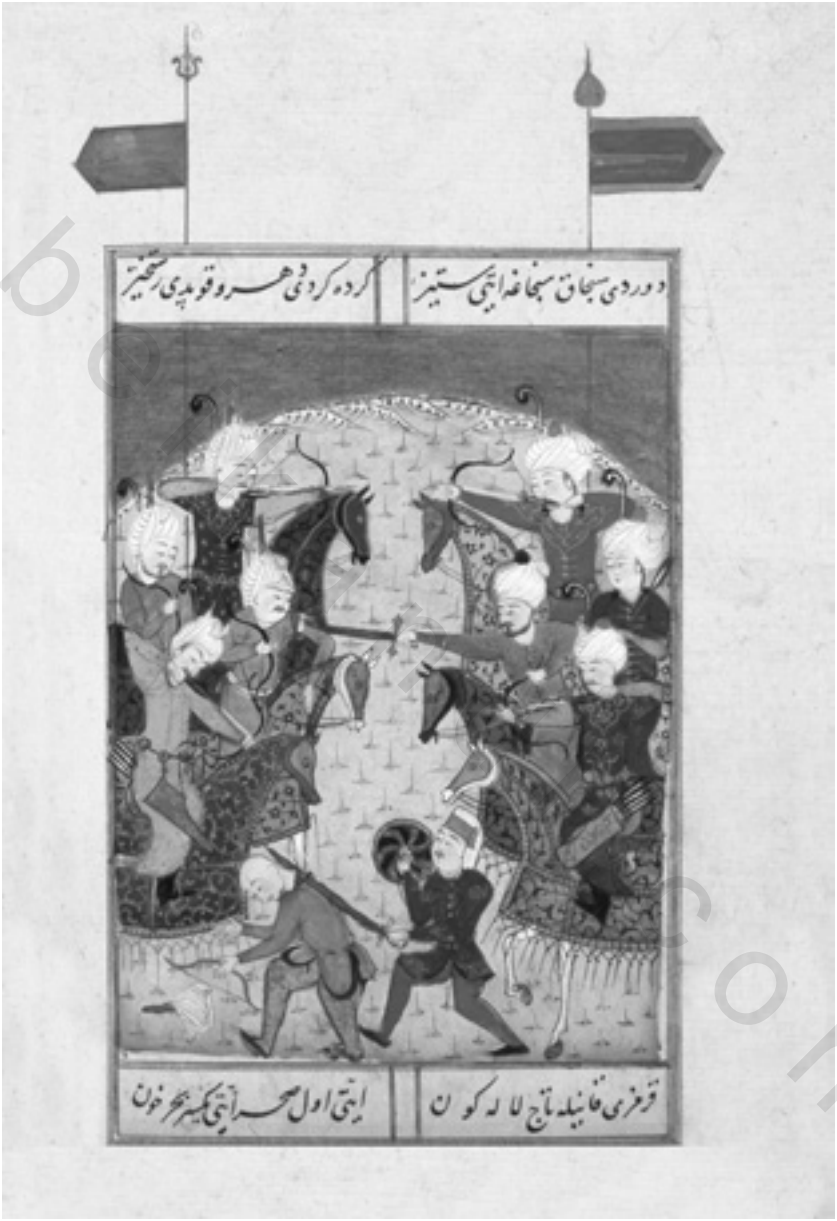

الحرب ضد الصفويين في أثناء فتح قلعة "كَمَاهْ". (سليم نامه، *176b*)

ضمُّ العشائرِ الكرديّة المحلّيّة إلى الدولة العثمانيّة

كان السلطانُ سليم يُدْرِكُ أنه لا يستطيعُ تحقيقَ جميع فتوحاتِهِ بالسيفِ، ولهذا أرسل أحدَ أكثرِ رجالِهِ الذين يثقُ بهم ويُدعى "إدريس بِدْلِيسِي" -وهو كرديّ الأصل- للتفاوض مع العشائرِ الكرديّة في شرقِ وجنوبِ شرقِ الأناضول، ولقد أفضَتْ هذه المفاوضاتُ إلى نتائج إيجابيّة، وأعلنَ العديدُ من العشائر الكردية تبعيَّتَها للسلطان العثمانيّ.

ونفهمُ ممَّا رواه "إدريس بِدْلِيسِي" في كتابِهِ الذي تناولَ فيه أعمالَهُ أن السلطانَ سليم بدأَ يهتمّ بهذه الأمور بينما كان في طريقِ العودةِ من "تَبْرِيز"، وبحسب ما رواه؛ فقد ذهبَ العالم الشهيرُ أولًا إلى "أرومية (*Urmiye*)"، وبدأ يوزّعُ على الأمراء الأكراد رسائلَ الفتحِ وخطاباتِ الدعوات التي تخبرهم بانتصارِ السلطان سليم في موقعة "جَالْدِيرَانْ"، أخذ "إدريس بِدْلِيسِي" العهدَ أولًا من عشيرة "بيرادوست (*Bıradost*)"، ثم حرّض مَلِك عشيرة "سُورَنْ (*Soran*)" للاستيلاء على مدينة "أربيل" الواقعة تحت سيطرة الصفويّين، عقبَ ذلك أعلن الكثيرُ من العشائر تبعيتهم للسلطان العثماني، ولقد انتشرت فعاليّات التبعيّة حتى إن العشائرَ الكرديّة استولَتْ على "أرومية" باسمِ الدولة العثمانيّة وشنت هجمات عدّة على الصفويين حتى مدينة "الموصل".

وقد ساهم "إدريس بِدْلِيسِي" في تحبيبِ العثمانيّين إلى العشائرِ الكرديّة في المنطقة، ثم ذهبَ إلى مناطق "حصن كيفا (*Hasankeyf*)" و"سعرد/ سيرت (*Siirt*)" و"بِدْلِيسِ (*Bitlis*)" و"خيزان" وعقد اجتماعًا مع خمسةٍ وعشرين أميرًا من أمراء الأكراد لإعلانِ التبعيّة للسلطان العثماني والحرب على الصفويين، وقد شارك في هذا الاجتماع حاكم "حصن كيفا" الذي نجا

بحياتِهِ من الشاهِ إسماعيل عقب معركة "جَالْدِيرَانْ"، و"مليك خليل أيوبي" وأمراء "بِدْلِيسِ" و"خيزان (*Hizan*)" وحكام "ساسون" و"نارمان" وغيرهم من الأمراء الآخرين، وقدَّمَ هؤلاء الأمراء وعودًا بأنهم سيتبعون دولة السلطان سليم وسيقدِّمُون الدعمَ اللازمَ له، وقالوا إنه لن يكون لأحدهم فضل على الآخر لأنهم جميعًا متساوون من ناحية المركز، وكان السلطان سليم ينوي اختيار واحدٍ من أمراءِ الأكرادِ لِيكونَ أميرًا للأمراء، غير أن الإجابة التي تلقّاها السلطان حول هذا الطلب كانت ملفتة للانتباه؛ إذ طلب الأمراء الأكراد أن يعين عليهم أميرًا عثمانيًّا ليكون إداريًّا يقودهم ويجمع كل العشائر الكردية في المنطقة تحت مظلَّتِهِ، ليكون ذلك هو طريق النجاةِ الوحيدُ من هذا المأزقِ، ولقد أعربَ الأمراء الأكراد عن هذا الطلبِ في العريضةِ التي أرسلوها بواسطةِ "إدريس بِدْلِيسِي" على النحو التالي:

"لقد بايعنا سلطانَ الإسلامِ بإخلاصٍ، وتبرَّأْنا من "قِزْلْبَاشْ" الذين ظهر إلحادُهم، ولقد أَلْغَينا البِدَعَ والضلالَةَ التي كانت تنشرها هذه القبائل، واخترْنَا مذهبَ أهلِ السنّة والمذهب الشافعيّ، لقد تشرَّفنا باسم سلطان الإسلامِ، وبدأْنَا نذكرُ أسماءَ الخلفاءِ الأربعةِ الراشدين في خطبة الجمعة، بَذَلْنَا جهودًا في الجهادِ، وانتظَرْنا طرقَ سلطانِ الإسلام، سمِعْنا أنه ذهبَ إلى ولاية "ذي القدرية"، وعليه أرسلنا مولانا "إدريس بِدْلِيسِي" إلى مقامكم، وأمنيتُنا جميعًا هي:

أن تساعدوا هؤلاء المساكين المخلصين المطيعين لكم، وإن مدننا قريبة من ديار "قِزْلْبَاشْ"، وهي جارةٌ لهم، بل إنها مختلطة معهم، ولقد أحرق هؤلاء الملاحدة ديارَنا وحاربونا على مدارِ سنوات، وننتظرُ منكم أن تُنْقِذُوا هؤلاء الأبرياء من ظلمِ هؤلاء الجائرين، لأنَّنا أحبَبْنا سلطانَ الإسلام، ولن نستطيع مقاومةَ هؤلاءِ بأنفُسِنا إن لم نتلقَّ مساعدتكم، ذلك لأنّنا الأكراد نعيش على هيئةِ عشائر وقبائلَ

منفصلةٍ، ولا نتّفق إلا على أننا نقر بأن الله هو الإلهُ وأننا من أمَّةِ محمد ﷺ، ولا نتَّفِقُ على أيّ شيءٍ آخر، ولقد جرت سنة الله على هذه الشاكلة، لكنَّنا نأملُ لو حصلنا على دعم من السلطان أن نقطعَ أيدي الظالمين من أعراق العربِ والعجمِ وأذربيجان، لا سيما وأن مدينة "ديار بكر"، مفتاح فتح الديار الإيرانية وعاصمة سلاطين قبيلة "آقْ قُويُونْلُو"؛ محتلّةٌ من قِبَلِ جنود "قِزْلْبَاشْ" منذ عام كامل، ولقد قتلوا أكثر من خمسين ألفًا من سكانها، فإذا وصل دعمُ السلطانِ إلى هؤلاء المسلمين، فلا شك أنه سيحقِّقُ ثوابًا أخرويًّا ومنافع دنيويّة جمّة، وسيصبُّ ذلك في مصلحة المسلمين كافّة، والفرمان الباقي هي عَتَبَتُكَ المباركة".

وبالرغم من ذلك نجحت كلُّ عشيرةٍ في طردِ الصفويّين من أراضيهم التي استولوا عليها.

كان "إدريس بِدْلِيسِي" يُعِدُّ التقاريرَ لإخبارِ السلطانِ بالتطوُّراتِ التي تشهدُها المنطقة، ويتحدَّثُ عن المدن التي انتزعتها العشائر الكردية من أيدي الصفويين، وبهذه الطريقة بدأت الجوامع الموجودة في المنطقة، بما في ذلك "الموصل" و"كركوك"، تقرأُ الخطبةَ باسمِ السلطان سليم.

وكانت سيطرة السلطان سليم على الكثيرِ من المدن بالمنطقة تُعتَبَرُ تطوُّرًا مهمًّا، لكنّه لم يكن كافيًا؛ إذ كان السلطان في حاجةٍ أكثر لإحكامِ سيطرتِهِ على إقليم شرقِ وجنوبِ شرقِ الأناضول، ولم يكن من الممكنِ أن تعتبر المنطقة تابعة للدولة العثمانية بالمعنى الكامل ما لم تبسط الدولة سيطرتها على مدينة "ديار بكر" التي تُعْتَبَرُ مركزًا للمنطقة.

لقد أوكلَ السلطان سليم أثناء العودة من "جَالْدِيرَانْ" مهمّة السيطرة على المدينة التي تُعْتَبَرُ المركزَ الأساسيّ لتركمان "آقْ قُويُونْلُو" إلى الزعيم

مراد الذي ينحدر من القبيلة ذاتها، لكنَّه هو والوحدات المرافقة له فشِلَ في عبورِ الأسوارِ المنيعةِ للمدينةِ، وبذلك فشل في إلحاق "ديار بكر" بالدولة العثمانيّة.

ورأى السلطان سليم أن السيطرة على قلعة "ديار بكر" لن تتم بالطُّرُقِ العسكريّة، فأرسل "إدريس بِدْلِيسِي" إلى المدينة من أجل السيطرةِ عليها، فالتقى هذا الأخيرُ بسكَّانِ المدينةِ وحدَّثهم بحديثِهِ الجميل، وأجابَ عن أسئِلَتِهم، وحاولَ كسبَ قلوبِهم، وفعلًا نجحَ في ذلك، وأقنعهم بالدخول تحتَ عباءةِ العثمانيّين.

وطَرد سُكَّان "ديار بكر" الصفويّين من المدينة بعدما اتبعوا نصائحَ "إدريس بِدْلِيسِي" وتوصياتِهِ، وأخبروه بأنهم على استعدادٍ لِقبولِ الإدارةِ العثمانيّة، وعندئذ بدأَتْ الجوامعُ في "ديار بكر" تذكرُ اسم السلطان "سليم خان" على المنابر.

لقد كان الشاه إسماعيل على علمٍ بما يحدثُ في "ديار بكر"، ولم يكن ليغضّ طرفَهُ عن سقوطِ المدينةِ -التي تُعْتَبَرُ مفتاحَ المنطقة- في أيدي العثمانيّين، فأوكلَ مهمَّةَ استعادة المدينة إلى قائدٍ يُدعى "قره خان"، وقد انضمَّت بعضُ العشائرِ والوحداتِ الصفويّة إلى "قره خان" بينما كان في طريقه إلى "ديار بكر"، وكان عددُهم في حدود خمسة آلاف شخص، وأما عدمُ احتشاد العشائر التي أبلغت السلطان سليم بتبعيتها لدولَتِهِ ومقاومتِها لـ"قره خان" وقواتِهِ فأظهرَ الاختلافَ الواقعَ بين العشائرِ بالمنطقةِ، ولم يستَطِعْ أحدٌ مقاومةَ الصفويّين إلّا سكّان "ديار بكر".

ولم تكنْ قوّات أهل "ديار بكر" كافيةً لِصَدِّ هجومِ الصفويّين، فأبلغوا السلطان سليم بأنهم لن يستطيعوا المقاومة أكثر من ذلك، وما إن وصلَتْ

هـذه الأنبـاء إلى السـلطان؛ حتى أمرَ بتشـكيلِ وحدةٍ عسـكريّةٍ لدعمِ المدينة على الفور، وأوكلَ قيادةَ تلكَ الوحدةِ إلى "حاجي يِيغِيتْ أحمد (*Hacı Yiğit Ahmed*)" الـذي ينحـدِرُ مـن "ديـار بكر"، وقد وصل هـذا الأخيرُ إلى المدينة ترافقـه ثلّـةٌ مـن القـوّات، واسـتغلَّ ظلمـةَ الليـل واختـرقَ الحصـارَ الصفويَّ ونجـحَ فـي دخول المدينة من جانبِ باب الـروم، وكدليلٍ على ذلك رُفِعَتْ الراياتُ العثمانيّة على أبراجِ القلعةِ، محاولين بذلك ترويـعَ القوّات الصفوية بهذهِ الحركةِ.

وقد أوصل "أحمد بك" رسـالة السـلطان سـليم إلى "إدريس بِدْلِيسِـي"، الذي كان متواجدًا بالمدينة في تلك الأثناء، ومعه كبارُ القوم في "ديار بكر".

وقـد قـال السـلطان في الخطاب إنه سـيخرجُ فـي غزوةٍ بحلـولِ الربيـعِ، وإن شـاءَ إيران السـافلَ أرسلَ مبعوثًا لِطَلَبِ العفوِ والإعرابِ عن ندمِهِ، لكن السـلطان لـم يقبـل هـذا العـذرَ والنـدمَ، معلِّلًا ذلك بـأن نيَّتَهُ إصـلاح أحوال المسلمين ومراعاة مصالـحِ أهل السنّة والقضاء على الكفرِ والإلحاد، ولهذا السبب فإنه لن يشفـعَ للصفويين.

وكانـت منطقـة شـرقِ الأناضـولِ تشـهدُ أحداثًـا سـاخنةً فـي الكثيـرِ مـن الأماكنِ، وقد وقـعَ كلُّ هذا بينما كان السلطان مشغولًا بحلِّ مسألَتَي "كماه" و"ذي القادر"، وقد علمت هذه الوقائـع السلطان شيئًا:

وهـي أنـه لـن يكـون مناسـبًا أن يخرج في غـزوة جديدةٍ ضـدَّ إيران دون فرضِ سيطرَتِهِ الكاملة على شرقِ الأناضول.

وكان السـلطانُ سـيصبُّ جميـعَ اهتمامِـهِ على قضيّـة شـرقِ الأناضـولِ عقـبَ حـلِّ مسـألةِ "عـلاء الدولـة" التـي يعتبِرُها أكبـرَ مشـكلةٍ تواجِـهُ دولَتَهُ، ليحـاول اسـتمالة الأمـراء الأكـراد فـي المنطقة وبسـطَ سـيطرتَهُ على المدنِ

والقِلاعِ التي تتمتّع بأهمّيّة إستراتيجية، وكانت هذه النتيجةُ مرحلةً مهمّةً من مراحل غزوتِهِ الجديدة التي يُفكِّرُ بالخروج فيها في المستقبل والتي سَتُسْفِرُ عن نتيجةٍ أكيدةٍ، وبينما كان السلطانُ متوجّهًا إلى إسطنبول من أجل إجراءِ التحضيرات وجمعِ القوَّةِ المادِّيَّةِ والمعنويّة من أجل الخروج في هذه الغزوة الجديدة؛ أرسلَ "بِيقْلِي محمد باشا" برَفْعِ حصارِ الصفويّين عن "ديار بكر" وبسطِ كاملِ السيطرةِ عليها؛ كونَها أهمَّ قاعدةٍ من أجل توفيرِ السيطرة في تلك المنطقة.

لقد اتَّحَدَ "بيقلي محمد باشا" بالوحداتِ التي جمعَها "إدريس بِدْلِيسِي" من الجوار تنفيذًا لأوامر السلطان، كما دعمه أميرُ أمراءِ "سِيوَاسْ" "شادي باشا" بخمسة آلاف جنديّ، وعقب اقتراب "بيقلي محمد باشا" من المدينة رفعَ القائدُ الصفويُّ "قره خان" الحصارَ عن المدينة وانسحب إلى "ماردين"، ودخلت الوحداتُ العثمانيّة "ديار بكر" في سبتمبر/أيلول من عام (١٥١٥م)، لكنها لم تمكث كثيرًا، إذ إنّها بدأت تستهدِفُ وتتعقَّبُ "قره خان" الذي ترك جزءًا من قواته في "ماردين" ثم فرَّ هاربًا ولاذَ بالفِرار، ولقد تردَّدَ الأمراءُ العثمانيّون في أمر حصار مدينة "ماردين".

وكان "إدريس بِدْلِيسِي" يقول: إنه من الضروري أن تُلْحَقَ "ماردين" بالأراضي العثمانيّة، وكان يُصِرُّ على هذه الفكرة، فاصطحب أمير "حصن كيفا" خليل بك ومعه خمسمائة جنديّ وذهب إلى ماردين، وعين أحد العلماء كواعظٍ، وأرسله إلى سكّان المدينة، وأخبرهم أنه في حالة تقديمهم فروضَ الطاعة والولاء فإن أموالهم وأرواحهم ستكون في مأمنٍ، وإلا فإن الجنودَ العثمانيّين على مقربةٍ من المدينة، وإن وصلوا إليها وهاجموا القلعة واستولوا عليها بالقوّة فإن أموالَ سكّانها وأرواحهم لن تكون في مأمنٍ على الإطلاق.

وقد حاول العثمانيُّون الاقترابَ من القلعةِ وإقناعَ أهلها دون تهديدٍ لإثباتِ حسنِ نيَّتهم، وكان هذا التصرُّف يُظهِرُ الاحترام الذي كانوا يُكنّونَهُ لـ"ماردين"، وإلا فإنَّ ما كان سيحدثُ عقبَ محاصرةِ أطراف المدينة هو إجبارُ أهلِها على الاستسلام وليس إقناعهم على التسليم طوعًا، ولقد اقتنع أهل المدينة، واستقبلوا بالترحاب الجنودَ العثمانيّين الذين دخلوا المدينة في أكتوبر/تشرين الأول من عام (١٥١٥م).

وهربَ الجنودُ الصفويّون المتواجدون في "مَارْدِينْ (*Mardin*)" إلى القلعة وأغلقوا الأبواب، فلم يستطع الجنود العثمانيّون السيطرةَ على الجزءِ الداخلي من القلعة التي دافع عنها الصفويّون بعنفٍ واستماتة، ولقد شهدت هذه الفترةُ واقعةً نادرةَ الحدوثِ في الجيش العثماني؛ إذ ظهر تعارض بين "شادي باشا" و"بيقلي محمد باشا"؛ إذ اصطحب "شادي باشا" ستَّ أمراء سناجق وخمسةَ آلافٍ من جنودِهِ وغادرَ المنطقةَ دون إخبارِ أحدٍ، وقال:

> "إن مهمتي كانت مرافقة محمد باشا حتى "ديار بكر"، وإني لم أتلقَّ أوامرَ من السلطان لتخطِّي هذه الحدود".

كما فشلَ "إدريس بِدْلِيسِي" في التوفيق بين "بيقلي محمد باشا" و"شادي باشا".

ولقد قرَّرَ "بيقلي محمد باشا" هو الآخر مغادرةَ موقعِ قلعةِ "ماردين" في اليوم التالي، وعندما انضمَّ الجنودُ الموجودون في المدينة إليه أُخْلِيَتْ "ماردين" من العثمانيّين، وما إن سمع الصفويُّون هذه الأخبار حتى جاؤوا وبَسَطُوا نفوذهم من جديد على المدينة، وعاد "محمد باشا" إلى "ديار بكر" وانتظر أوامر السلطان، وعندما وصلت هذه الأنباء إلى مسامع السلطان استشاطَ غضبًا وغيظًا، فعزلَ السلطانُ "شادي باشا" وسائرَ أمراء السناجق الذين كانوا تحتَ إمرتِهِ من مناصبهم لأنهم تصرَّفوا بشكلٍ خاطئٍ وتركوا

"مَارْدِينْ"، ولم يكتفِ السلطان بذلك، بل أمرَ بمجيئِهم إلى إسطنبول وأصدر تعليماتِه بِحَبْسِهِم ومعاقبتِهم.

وأسهمت الأحداث الأخيرة في إنهاء المرحلة الأولى من طريق السلطان سليم ليكون "فاتحًا للشرق"، وكان السلطان يعتقد أن القضية الصفوية لم تنتهِ بعد، وفكر في التوجه إلى الشرق من جديد، لكن أحداثًا لم تكن في الحسبان قد وقعت جعلته ينشغل بأهداف جديدة.

رجالات الدولة في الدولة العثمانية

الصراع مع إمارة "ذي القادر" التركمانيّة

كان مركز إمارةِ "ذي القادر" في مدينة "مَرْعَشْ"، وكان يرأسُها "ذو القادر" علاء الدولة جدُّ السلطان سليم الأول (والدُ والِدَتِهِ)، وكان جدُّهُ علاءُ الدولة قد وصلَ إلى عرشِ الإمارةِ بفضلِ العثمانيّين، غير أنهُ كان يُحاوِلُ الحفاظَ على كيانِ الإمارةِ عن طريقِ انتهاجِ سياسةٍ متوازنةٍ بين الدُّوَلِ العثمانيّة والمملوكيّة والصفويّة.

وكانت أخبارٌ قد وصلَتْ تُفيدُ بأنه كان يتعاونُ مع الشاهِ إسماعيل، وبالرغْمِ من تلقّيهِ دعوةً للمشاركة في معركة "جَالْدِيرَانْ" فإنه لم يشاركْ بها، كما لم يُرْسِل المُؤَنَ إلى الجيشِ العثمانيّ عقبَ تلك الغزوة بالرغم من طلَبِ الإدارة العثمانيّة ذلك منه.

لقد كان "علاء الدولة" ينظُرُ إلى العثمانيّين والمماليك على أنهم "دجاجات تبيض ذهبًا وفضّة"، فكان يسعى لتقوية علاقاته بالمماليك لمواجهة العثمانيين، ولم يكن يرغب بالدخول في الصراعِ القائِمِ بين الدُّوَلِ الثلاثِ الكبرى.

وأرسل السلطان سليم أميرَ أمراءِ الروميلي "خادم سنان باشا" لمهاجمةِ "علاء الدولة"، وما إن سمِعَ الأخيرُ بمجيءِ العثمانيّين حتى جمع أُمراءهُ في "تُورْنَا دَاغْ (*Turnadağ*)"، فأخبرَهُ بعضُ أكابرِ الإمارةِ بأنه لا فائدةَ من مقاومةِ السلطان سليم الذي لم يستطعْ حتى الصفويّون مقاومَتَهُ، وأعربوا له عن ضرورةِ طَلَبِ الأمانِ من الدولة العثمانيّة، لكنه لم يستَمِعْ إلى نُصْحِهِم.

واستطاعَ "سنان باشا" خلال فترةٍ قصيرةٍ أن يُفرِّقَ شملَ فرسانِ إمارةِ "ذي القادر"، وذلك بواسطةِ جنودِ الإنكشاريّة الذين يحملونَ البنادقَ ويركبون العربات، وذلك في يوم الثاني عشر من يونيو/حزيران عام (١٥١٥م)، وبعدَ تفريقِ شملِهم تواجَهَ الفرسان العثمانيّون بفرسانِ "ذي القادر"، فانهزمَ الأخيرون.

لقد فقدَ "علاء الدولة" الطاعنُ في السنِّ حياتَهُ خلال الاشتباكات التي شاركَ بها بالرغم من سنِّهِ المتَقَدِّمِ، وبعدما انتصرَ "سنان باشا" في هذه المعركة عيَّنَهُ السلطان سليم وزيرًا.

وأرسلَ السلطان سليم رسالةَ فتحٍ إلى السلطان المملوكي "قنصوة الغوري" (ت: ٩٢٢هـ/١٥١٦م) لِيُخْبِرَهُ بانتصارِهِ على إمارة "ذي القادر" التي كانت

"قنصوة الغوري"

تدعمُهُ، وكانت هذه الرسالةُ بمثابةِ بشرى الحروبِ التي ستخوضها الدولتان لاحقًا.

السلطان سليم في إسطنبول بعد غياب خمسة عشر شهرًا

استطاع السلطانُ سليم أن يعودَ إلى إسطنبول عقب خمسة عشر شهرًا تقريبًا من غزوتِهِ الشرقيّة، وقد استراح السلطان اثنا عشر يومًا حتى وقت انعقادِ الديوان الكبير الذي سيجري فيه تَقْيِيمُ الغزوة، وفي تلك الأثناء طاف بالمدينة من البرِّ على ظَهْرِ جوادِهِ ومن البحر على متن سفينة سلطانيّة، وخرجَ إلى الصيد في منطقتي "أُوسْكُودَارْ" و"جَامْلِيجَا (*Çamlıca*)"، وقد التقى يوم اجتماع الديوان بِكَبيرِ الإنكشاريّة والوزراء والقضاة العسكريّين، كما قَبِلَ مباركاتِ النصرِ التي قدَّمَها السُّفراءُ.

وأمرَ السلطانُ بتوزيعِ العطايا على العلماء والشيوخِ والفقراءِ في عواصِمِ الدولةِ العثمانيّة الثلاث؛ "إسطنبول" و"أَدِرْنَه" و"بُورْصَه"، وزارَ السلطانُ قبرَ أبي أيوب الأنصاري ﷺ، ثم ضريحَ جدِّهِ السلطان محمد الفاتح، ثم ضريح والده السلطان بايزيد الثاني، ودعا لهم.

كان للأمير سليمان مكانة خاصّة لدى والده السلطان، وقد استقبلَ الأميرَ سليمانَ عقبَ ثلاثةِ أيّامٍ من دخولِه إسطنبول، فقبّلَ الأميرُ يدَ والدِهِ السلطان، وقدَّمَ إليه الكثيرَ من الهدايا، كما استقبلَ السلطانُ معلِّمي ابنِهِ الأمير.

لقد حانَ الدورُ على أن يحلَّ السلطانُ المشاكلَ التي احتفظَ بها حتى عودتِهِ لإسطنبول، وكان تمرُّدُ الإنكشاريّة في "أَمَاسْيَا" هو أكثر الأمور المستعجَلَةِ، وكان يرى نظامَ الجيشِ واحدًا من أهمّ شروطِ خوضِ غزواتٍ جديدةٍ، فإمّا أن يُسيطِرَ على الجيشِ أو يسيطرَ عليه الجيشُ، وقد حان وقت الحسابِ مع الإنكشارية الذين أوصلوه إلى العرش ويريدون مقابل

ذلك التحكم فيه، وكان السلطان في كلِّ قضيّةٍ يسعى للعثورِ على الذي يَقِفُ وراءَ الأمورِ وليسَ من نفَّذَها، وقد ضغطَ على الوزراءِ في اجتماعاتٍ جمعتهُ بهم على التوالي حتى يعرفَ مرتكبي هذا الفعل، وكان الوزراءُ يخرجون من هذه الاجتماعات وقد تبدَّلَتْ ألوانُهم وذُهِلُوا وأصابَتْهم حالةٌ من البُؤْسِ، حتى إن السلطان طلبَ خروج القضاة العسكريّين من أحدِ اجتماعات الديوان، وبدأ يُوَبِّخُ الوزراءَ بشكلٍ عنيفٍ، وتروي المصادرُ التاريخيّة المكتوبة في تلك الفترة أن وجوهَ الوزراء كانتْ شاحبةً عابسةً عند خروجهم من اجتماعات الديوان.

وكان غضبُ السلطانِ على الإنكشارية قد وصلَ إلى أبعَدِ مستوًى له، وقال إنه سينزلُ عن عرشِهِ إن لم يعثرْ على من حَرَّضَهم على التمرُّد، وقد تسبَّبَتْ هذه الكلماتُ التي سُمِعَتْ للمرَّةِ الأولى في التاريخ العثمانيّ في حدوثِ صدمةٍ كبيرةٍ في أوساطِ الجيش والشعب.

وكان السلطان يعيش أيامًا صعبةً في تلك الفترة، كما قد هزَّهُ خبرُ وفاةٍ تلقَّاه؛ إذ وافَت المنيّةُ "بديع الزمان ميرزا" ابنَ حفيدِ "تيمور لنك" الذي كان يحترِمُهُ السلطانُ كثيرًا واصحَطَبَهُ معه إلى إسطنبول، وقد أَمَرَ السلطانُ بتنظيمِ مراسم تُشْبِهُ مراسمَ دفنِ السلاطين لهذا الرجلِ سليلِ الملوكِ.

محاسبةُ المتمرِّدين

أجرى السلطان اجتماعاتٍ مطوّلةً مع قادتِهِ من أجل إلقاءِ القبضِ على زعماءِ حركةِ تمرُّدِ الإنكشارية، وكرَّرَ عليهم أنه سيتنازل عن العرش إن لم يخبروه بالمحرِّضين على التمرُّدِ الذي حدثَ في "أَمَاسْيَا"، لكنه لم يتلقَّ الجواب الذي كان يريدُ، ولهذا ألغى جميعَ اجتماعاتِ الديوانِ والغضبُ يُسيطِرُ عليه، والشَّرَرُ يتطايرُ من بين عينيه.

واجتمعَ الإنكشاريّة وقرَّروا الاتّفاق على صيغةٍ موحّدة ونصٍّ للإجابة التي سيقدمونها إلى السلطان، وفعلًا أرسلوا إليه إجابةً قالوا فيها: "كلُّنا مُذْنِبُون في هذا الأمر، ونرجو الصفحَ من السلطان"، ولو أنَّ الإنكشارية قد ظهروا بأنهم قدَّموا اعتذارًا سابقًا إلى السلطان، إلا أنّهم بادروا إلى الاعتذارِ والاعتراف بالذنب على هذا المنوالِ بشكلٍ جماعيٍّ، وكانوا وكأنَّهم يتحدَّون السلطانَ.

لقد فَطِنَ السلطانُ إلى أنَّ الإنكشارية يحمون الفاعلين والمحرّضين الحقيقيّين، فزاد من ضغطِهِ عليهم، فجمع الإنكشاريّة من جديد، وبعدما فَهِمُوا أن السلطانَ سليم لا يُشبِهُ مَن سَبَقَهُ من السلاطين، أعطَوه أسماء زعماءِ حركةِ التمرُّدِ، وهم الوزير "إسكندر باشا" والقاضي العسكري "تاجي زاده جعفر شلبي" وقائد جنود الحدود "بَالْيَمَزْ عثمان آغا (*Balyemez Osman Ağa*)"، وقد كان سبب طول هذه التحقيقات أن اثنين من مرتكبي التمرُّدِ كانا عضوين بالديوان.

وسيطرت حالةٌ من الصدمةِ على السلطانِ بعدما رأى أنَّ الخيانةَ جاءَتْهُ من أقربِ رجالِهِ، فَرَغِبَ في معرفةِ السَّبَبِ، فسألَ "إسكندر باشا" أوّلًا عن سبب عدمِ إخبارِهِ بشيءٍ في حين معرفَتِهِ بكلِّ شيءٍ، فلم يجد الباشا جوابًا إلا النظر أمامَه، وعندما لم يُجِبْهُ؛ أخرَجَهُ لِنيلِ عقابه، ولما وَصَلَ دورُ السؤالِ إلى "عثمان آغا" لم يستطع قول شيء ولم ينبس بِبِنتِ شفةٍ، فَسُلِّمَ إلى الجلَّادِ، وسألَ السلطانُ قاضي العسكر "تاجي زاده جعفر شلبي (*Tacizâde Cafer Çelebi*)" عن الحكمِ الشرعيّ في شخصٍ جوَّزَ قتلَ مؤمنٍ بغيرِ حقٍّ، فأجابه بأن عقابَ هذا الشخصِ هو القصاص، فذكّر السلطان "جعفر شلبي" بالكلمات التي قالها بنفسه ضد بيري باشا، وقال إنه حاول قتل بيري باشا ظلمًا، ولهذا حرض الإنكشارية ضده، وبهذا يكون القاضي

العسكري قد اعترف بفعلته، ولم يحاول الدفاع عن نفسه، فسُلِّمَ إلى الجلّاد.

كان من المثير للدهشة أن يُبْعِدَ السلطانُ "بيري باشا" عن خدمَتِهِ بالدولةِ، رغمَ أنه لم يكن من كادِرِ التحريضِ على التمرُّد والحوادث التي شهدَتْها "أَمَاسْيَا"، بل إنه مظلوم، غير أن السلطانَ سليم فَطِنَ إلى أنه في الوقت الذي حاول فيه الصدر الأعظم إدارةَ الدولة بشكلٍ من الأشكال؛ كانت هناك صراعات جادّة على السلطةِ تنمو بين الفِرَقِ المؤيِّدَةِ سواءً لـ"بيري باشا" أو "تاجي زاده باشا" و"إسكندر باشا".

وقد نجحَ السلطانُ في التخلُّصِ من قوَّةِ الفريقين المتنافِسَينِ عن طريق قتلِ أحدِهما وإبعادِ الآخرِ عن منصِبِهِ، وبهذهِ الطريقة نجحَ في فرضِ قوَّتِهِ لِتَكونَ هي القوّة الوحيدة والمُطْلَقَة في الدولة، لكنه شَعَرَ بالحزن لفقدانِ رجل من رجالِهِ بقيمةِ ووزنِ "تاجي زاده جعفر شلبي".

عفا السلطان بعد عدَّةِ أيامٍ عن "بيري باشا" الذي عادَ من جديد إلى الديوان بصفتِهِ وزيرًا، وكان السلطانُ يشعرُ بالشكِّ بشأنِ دفاترِ الضرائبِ الخاصّةِ بِسنجق ابنه الأمير سليمان، فأرجأَ عودةَ ابنه الأمير بضعةَ أيام، وقد اضطرَّ مربّي ابنِهِ ودفتردَارُهُ لِتقديمِ حسابِ دفاترِ المصاريف إلى السلطان بِنَفْسِهِ.

وبحلول يوم الخامس والعشرين من أغسطس/آب (١٥١٥م) اندلَعَ حريقٌ في محلّ بائعِ عصائِر بالقربِ من السوقِ المُغْلَقِ بإسطنبول، ما أسفرَ عن ذلك عاصفة من الحرائق التي اجتاحت المدينةَ حيث إن أغلب أبنِيَتِها من الخشبِ، وبالرغم من كلِّ المحاولاتِ لم يستطِعْ أحدٌ السيطرةَ على الحريقِ، وقد عطَّلَ السلطانُ الديوانَ بسببِ الحريقِ، وسعى الوزراءُ وأركانُ الدولةِ وجنودُ الإنكشاريّة سعيًا حثيثًا لإطفاءِ الحريقِ الذي أسفرَ

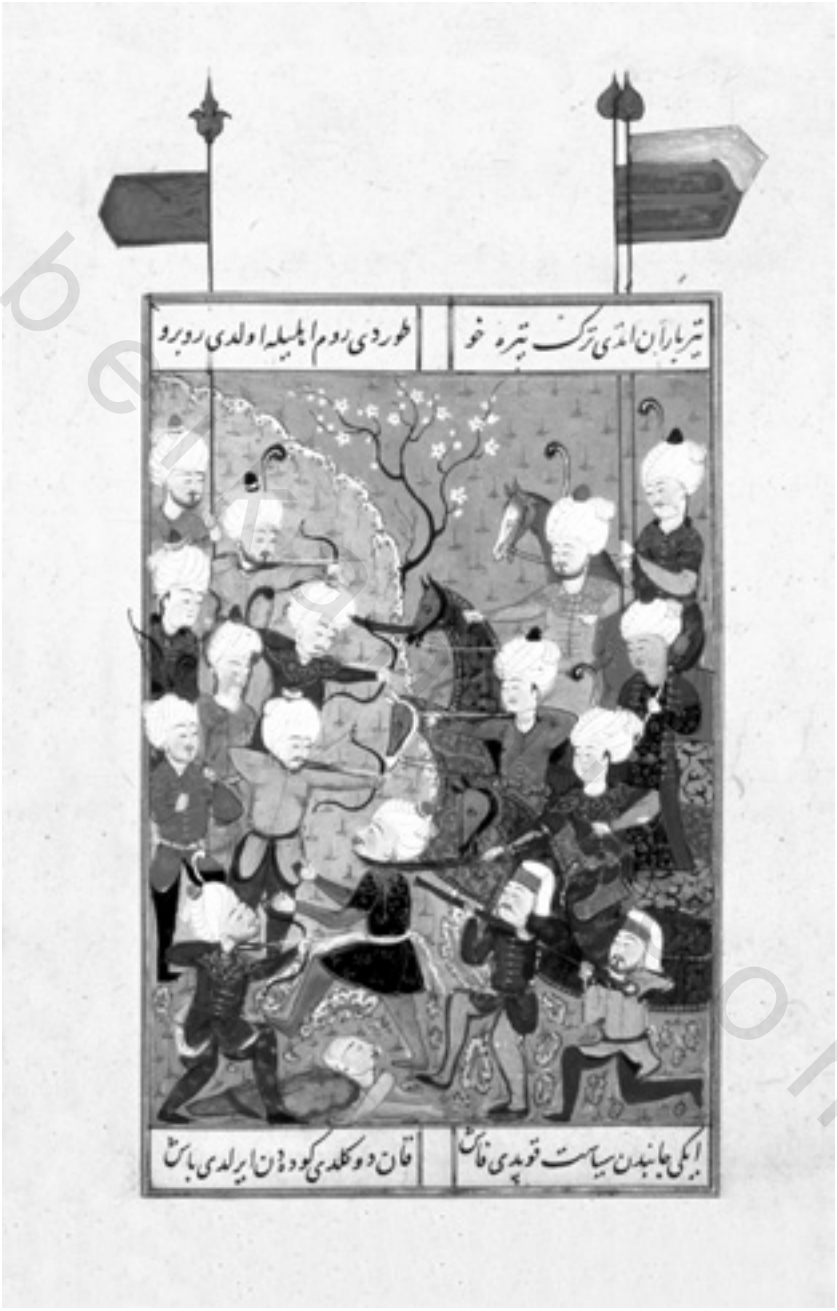

الصراع مع "علاء الدولة ذي القادر" التركماني (سليم نامة، *164b*)

عن وقوعِ خسائرَ فادحة، أعقبَ ذلك تشكيلُ لجنةٍ لِحَصْرِ الخسائرِ الناجمةِ عن الحريقِ، وقد أشرفَ الوزراءُ بأنْفُسِهِم على هذه العمليّة.

لقد حزنَ السلطان كثيرًا بسبب نشوبِ هذا الحريقِ؛ إذ كان يعتقدُ أن كلَّ واقعةٍ سلبيّةٍ تشهدُها دولتُهُ ناجمةٌ عن خطإٍ ارتكبَهُ، وتأثَّرَ كثيرًا بعدما ربطَ هذا الحريق بتعليماتِهِ بإعدام "تاجي زاده جعفر شلبي".

وبعد أن رأى السلطان المشاكلَ التي تسبَّبَ بها فراغُ منصبِ الصدرِ الأعظم؛ عيّنَ "هَرْسَكْ أُوغْلُو أحمد باشا" في هذا المنصب، وأخبرَهُ بأنه سيقضي فصلَ الشتاء في "أَدِرْنَه"، وفي تلك الأثناء وصَلَهُ خبرٌ كان ينتظرُهُ من "أوزبكستان"؛ إذ فتح خان الأوزبك "عبيد خان" جزءًا كبيرًا من إقليمِ "خراسان".

ومكثَ السلطانُ شهرين في العاصمةِ، وبعدها تحرَّكَ صوبَ "أَدِرْنَه"، ومن ناحيةٍ أخرى بدأَ الإعدادُ للغزوةِ الجديدة، وكان من ضمنِ أكثرِ التجهيزات الجديدةِ التي لفتَتْ الانتباهَ توسيعُ ترسانةِ الخليجِ في إسطنبول لإعدادِ أسطولٍ بحريٍّ جديدٍ وقويٍّ.

وكانت أكثر المسائل إثارة في تلك الأثناء هي قبول الصدر الأعظم تَوَلِّيَ المنصب، وفي معظم الأحيان يتنافس الوزراء فيما بينهم للوصول إلى هذا المنصب الذي كان يعني أن يكون صاحبُهُ الرجلَ الثاني في الدولة؛ فإن "هرسك زاده أحمد باشا" الذي عَيَّنه السلطان في هذا المنصب قال إنه كبير في السن وأعرب عن عدم رغبته في تولي المنصب، غير أنه تم إقناعُهُ بصعوبةٍ بالغة.

نحو غزوة جديدة

بينما كان السلطان في "أَدِرْنَه" كانَ يتابع الأخبار التي تَصِلُهُ من الغرب عن المجر ومن الشرق عن الصفويّين والمماليك، وقضى السلطان شهر رمضان في "أَدِرْنَه"، وفي تلك الأثناء جاءه نبأٌ يقولُ إن ابنَهُ سليمان رُزِقَ بِطِفْلٍ ذَكَرٍ، فكان أول حفيدٍ ذَكَرٍ للسلطان سليم، وقد اختاروا له اسم "مراد"، ما أدخل السرور إلى قلب السلطان الحادّ القاسي، وعقب هذا الخبر بثلاثة أيام وَصَلَتْه بشرى دخول العثمانيين مدينةَ "ديار بكر"، وأما الخبرُ السيّئُ الوحيدُ فكان خروجَ مدينة "مَارْدِينْ" عن سيطرةِ دولتِهِ، وعَقِبَ ذلك جرى اتّخاذُ العديدِ من التدابير.

وبحلول فصلِ الربيعِ أَمَرَ السلطانُ بكتابةِ رسائل إلى جميع أُمَراءِ السناجِقِ من أجلِ الاستعدادِ للغزوةِ الجديدةِ، وكان السلطانُ يُفَكِّرُ بالخروجِ في غزوةٍ جديدةٍ ضدَّ الصفويّين، فأمر جميع أمراءِ السناجقِ في الأناضول بالتجمُّعِ في "قيرشهير" في عيد "النَّوْرُوزْ".

وفي تلك الأثناء وصلَتْهُ أنباءٌ حول دخولِ رجالِ الشاهِ إسماعيل إلى "مَارْدِينْ"، فيما يتقدَّمُ الشاهُ نحوَ "بغداد"، فتقرَّرَ دفاعُ أميرِ أمراءِ "ديار بكر" عن المدينةِ في مواجهةِ احتمالِ دخولِها من قِبَلِ الشاهِ، كما تقرَّرَ أيضًا ضربُ الجنودِ العثمانيّين لأراضي الدولة الصفويّة من ناحية "جُكُورْ سعد".

وعندما أصدرَ السلطانُ قرارًا نهائيًّا بالخروجِ في الغزوةِ؛ اهتمَّ كثيرًا بِعَقْدِ اتّفاقٍ مع المجرِ ضدَّ أيِّ خطرٍ يُهدِّدُ دولَتَهُ من الغربِ قبلَ أيِّ غزوةٍ يخرجُ فيها إلى الشرق، وذلك عملًا بمقتضى مبدإ تأمينِ حدودِ دولتِهِ من جهةٍ بينما سيخرُجُ في الجهة الثانية، وكانت مهمّةُ الأميرِ سليمان

في تلك الأثناء هي الدفاعُ عن "الروميلي"، فغادَرَ السلطانُ "أَدِرْنَه" للخروج في غزوةٍ إلى الشرق.

ونصبَ السلطانُ خيمتَهُ على مشارفِ إسطنبول، وكانَ أحيانًا ما يمكثُ في خيمتِهِ بمقرِّ قيادةِ الجيش، وأحيانًا أخرى في قصر "طُوبْ قَابِي" بإسطنبول، واهتمّ بكلِّ تفاصيلِ الغزوة التي سَيَخْرُجُ فيها.

وفي تلك الأثناء كانت الاشتباكاتُ مع الصفويّين في الشرقِ تتصاعَدُ، وقد انضمَّ المماليكُ كذلك إلى هذا الصِّراعِ، وكانت المنطقَةُ تشهدُ اشتباكاتٍ عنيفةً للسيطرةِ على "مَارْدِينْ"، وقد تعرَّضَتْ الوحداتُ العثمانيّةُ لهزيمةٍ غير متوقّعةٍ من الصفويّين.

أغضبَ هذا الخبرُ السلطانَ الذي لم يكنْ يضعُ اسمَ دولَتِهِ أبدًا إلى كلمةِ الهزيمةِ، وقد شاركَ الوزراءُ فقط في اجتماع الديوان الذي عقده يوم السادس والعشرين من أبريل/نيسان عام (١٥١٦م)، وقد استمرَّ الاجتماعُ منذ الصباحِ حتى المساء.

لم يهدأْ غضبُ السلطان الذي أسندَ مهامًّا جديدةً إلى رجالِهِ، فأمرَ بحبسِ بعضِ الوزراء الذين اعتقَدَ أنهم تصرَّفوا بإهمالٍ وقلّة مسؤوليّة، كما عزلَ الصدرَ الأعظمَ وعيَّنَ مكانَهُ "سنان باشا"، وقد عفا السلطان عن "بيري باشا" و"هرسك زاده" -اللذَين ألقى بهما في السجن- برجاءٍ من الصدر الأعظم الجديد، وفي اليوم التالي أرسلَ السلطانُ الصدرَ الأعظمَ "سنان باشا" على رأسِ جزءٍ من الجيش إلى "ديار بكر" لتقديمِ المساعدةِ، وقد وَدَّعَ السلطانُ الصدرَ الأعظمَ بِنَفْسِهِ، ثم خرج هو الآخر بعدَه.

وارتفعت وتيرة الحرب في "ديار بكر" ودارت رحى المعركةِ في أكثر من موقعٍ؛ فالقوّاتُ العثمانيّة أغلقت على نفسِها قلعةَ المدينةِ، ووصلَ أمراءُ

سناجقِ الأناضولِ إلى المدينة برفقةِ فرسانِهم من أجلِ تقديمِ الدعم لحاميةِ المدينةِ، كما حصلَتْ القوّات العثمانية على دعمِ الأمراءِ الأكرادِ في المنطقة، ومن ثمّ بادرت إلى مهاجمةِ القوّات الصفوية هناك، واستطاعت هذه القوّات العثمانية تحقيق الانتصارِ الكامِلِ في المعركة، وقد وَصَلَتْ بشائِرُ النصرِ أوّلًا إلى الصدر الأعظم "سنان باشا" الذي وصل مدينة "قيصري"، وبعد ذلك وصلت إلى السلطان سليم الذي كان في مدينة "آق شهير".

شهدت هذه الفترةُ وصول سفراءِ الدولة المملوكية إلى "همدان" ولقاء الشاه إسماعيل الذي تعهَّدَ لهم بإمكانيّة التعاونِ ضدَّ العثمانيّين إذا نفَّذوا بعض الشروط لصالِحِهِ، ومن ثمّ فقد بدأت الأحداثُ تُحَوِّلُ وجهةَ السلطانِ في غزواتِهِ نحوَ الجنوبِ بعد أن كان قاصِدًا الغربَ.

obeikandl.com

سلطان سلیم خان
غازی ابن بایزید خان

السلطان سليم في طريقه إلى مصر

كان السلطان سليم قد صبَّ كلَّ تركيزِهِ على المنطقةِ الشرقيّة مصدرِ الخطرِ، وبالرغم من أنه استطاع التصَدّي لِخَطَرِ الشاهِ إسماعيل بانتصاره في "جَالْدِيرَانْ" والتدابير التي اتَّخَذَها عقب ذلك؛ إلا أن هذه الحال كانت وضعيّةً مؤقتة، وكان من الممكن أن يتسَبّبَ الشاه في حدوثِ فوضى أكثر من سابقَتِها، ولهذا السبب كان على السلطان أن يكون حَذِرًا.

وقد أفسدَ الإجهازُ على إمارة "ذي القادر" عقبَ معركة "تُورْنَا دَاغْ" العلاقاتِ السيّئة أصلًا بين العثمانيين والمماليك؛ الذين كانوا يرونَ أنفُسَهم حماةً لهذه الإمارة.

وكانت العلاقات "العثمانية - المملوكيّة" قد شهدت بعضَ التوتُّرات بسبب توسيع السلطان "يلدريم بايزيد" أراضي دولتِه حتى مدينةِ "مَالَاطْيَا" ومحاولةِ السلطان محمد الفاتح صيانةَ المجاري المائيّة على طرق الحجّ.

وقد أصبحت الدولتان في مواجهة مباشرة بعدما انتهجت الدولة المملوكية سياسة الحماية لإمارتي "بني رمضان" وعاصمتها "آضَنَه (*Adana*)" وبني "ذي القادر" وعاصمتها "مَرْعَشْ" في عهدِ السلطان "بايزيد الثاني"، وبالرغم من ذلك؛ فعندما هدَّدَ البرتغاليُّون الأراضي المقدسة في الحجاز طلب المماليكُ الدعمَ من العثمانيين الذين نحَّوْا الخلافَ القائم بينهما جانبًا وأرسلوا جنودًا وأسلحةً وذخائرَ إلى المنطقة.

وعندما اعتلى السلطان سليم العرش حاول مواصلة الصداقة مع السلطان المملوكي "قنصوة الغوري"، وقد قَبِلَ السلطانُ رسالة المباركة التي أرسلها المماليك عندما وصل إلى سدّة الحكم، لكنه لم يتلقَّ منهم أيَّ

إجابةٍ على عرضهِ عليهم التعاون معه للهجوم على "الشاه إسماعيل".

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان سليم مُشْهِرًا سيفهُ ضدَّ كلِّ العناصرِ التي يُمكن أن تتسَبَّبَ في نشرِ الفِتَنِ داخلَ دولتِهِ، كان المماليكُ يحمون أبناءَ أخيهِ الأمير أحمد، ولم يكن يمكن أن يقبلَ السلطانُ سليم بهذه الوضعيّة.

وأما "قنصوة الغوري" فقد بدأَ يشعرُ بالقَلَقِ بسبب قضية إمارة "ذي القادر"، وبدأَ يُفَسِّرُ جميع تحركات السلطان سليم على أنها ضدَّهُ، وكان تغييرُ السلطان سليم وجهته بسرعة إلى الحدود الجنوبية بالرغم من إعلانه الخروج في غزوة ضدَّ إيران وحتى إرساله مبعوثين سرّيين إلى الشاه إسماعيل؛ قد فتح الباب أمام تبدُّلِ الأحداثِ بشكل لم يكن يتوقعه "الغوري".

وكان السلطان سليم يُفَكِّرُ فقط في التخلُّصِ من الشاه إسماعيل، وكان معلومًا أن مَن يحكمُ مصرَ يكون زعيمًا للعالَمِ الإسلامي، كما كانت السيطرة على طرق التجارة العالمية من الناحية الاقتصادية أمرًا جاذبًا للانتباه، لكن أهمَّ هدفٍ وَضَعَهُ السلطانُ سليم للسيطرةِ على مصر كان عجزَ المماليك عن توفيرِ الحمايةِ الكافيةِ للأراضي المقدّسة التي كانت تتعرَّضُ للتهديدِ النصراني بشكلٍ غيرِ مسبوق، وكان التهديد البرتغاليُّ يُقْلِقُ سكَّان مكّةَ المكرّمة والمدينة المنوّرة، وكان هذا القلقُ مسيطرًا على جميع بلدان العالم الإسلامي، فأرسل علماء مصرَ خطابًا إلى السلطان سليم يطلبون منه بسطَ نفوذِهِ على مصر وحماية الحرمين الشريفين، حتى إن هناكَ من زوَّدَ الرُّسُلَ العثمانيّين الذين وصلوا مصرَ برسائلَ سِرّيّة في هذا الإطار، وكانت هذه الوضعيّة تُجْبِرُ العثمانيين على حماية المنطقة بصفتهم المُخلِّصين والمُنْقِذين.

وينقلُ "خواجه سعد الدين أفندي" -أحد أبرز المؤرخين العثمانيين-

في كتابه "تاج التراويح" واقعةً سَمِعَهَا من والده "حسن جان" الذي كان ضمنَ كادِرِ الخدمة المقرب من السلطان سليم:

"يروي حسن جان رؤيا رآها آغا الباب "حسن آغا" وشعر بالحرج من شرحها؛ إذ رأى الآغا في منامِهِ أنه فتح البابَ عندما قَرَعَهُ أحدُهم، فإذا بعدد من الأشخاصِ يَرْتَدُون زيًّا عربيًّا ويحملون أعلامًا وأسلحةً، وكان الشخص الذي طرق الباب من بين هؤلاء الأربعة يحمل في يده رايةَ السلطان البيضاء، وقد عرّف نفسه بأنه الإمام علي ﷺ ومعه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وغيرهم من الصحابة ﷺ، قد أرسلهم الرسول ﷺ وبعث معهم رسالةً إلى السلطان سليم فحواها: "ليأتِ إلى الحرمين الشريفين، فقد قُدِّرَ له خدمتُهما"، وقد استمَعَ "حسن جان" إلى هذه الرؤيا، فنقلَها على الفور إلى السلطان الذي تلقّى الخبرَ الذي كان ينتظره، فقال السلطانُ لِحسن جان:

"... ألم نقلْ لك إننا لم نتحرَّكْ دون أن نتلقَّى الأمر، فآباؤُنا وأجدادُنا كانت لهم كرامات ونصيبٌ من الولاية".

لقد أصبح السلطان سليم لا يُفكِّرُ في إيران، بل يُفَكِّرُ في مصرَ؛ إذ آمنَ بأن مهمَّةَ حماية الأراضي المقدَّسة والمحافظة عليها قد أُسنِدَتْ إليه، وربما تكون هذه الرؤيا قد حَدَثَتْ أثناء الغزوة؛ إذ كان السلطان عندما خرجَ في الغزوةِ يُفكِّرُ في اتخاذِ التدابير لمواجهةِ الأحداث التي تشهدُها المنطقةُ الشرقية والقضاء على الشاه إسماعيل تمامًا.

وتروي المصادِرُ التاريخيّة لتلكَ الحقبةِ أن أميرَ أمراءِ "ديار بكر" "بِيقْلِي محمد بك" أَخْبَرَ القيادةَ العثمانيّةَ بتحرُّكاتِ الخانِ الصفويّ "قره خان" ضدَّ "ديار بكر"، وطلبَ المساعدةَ، فانطلقَ السلطانُ سليم على الفورِ من "أَدِرْنَه"، وثمَّةَ تأثيرٌ للتطوُّراتِ السياسيّة التي حدَثَتْ مع وصولِ السلطان إلى أطرافِ "أَلْبِسْتَانْ (*Elbistan*)" الحدوديّة في تحويلِهِ وِجْهَتَهُ من إيران

إلى مصر.

وبحسب المعلومات الاستخباراتية التي جاءَ بها أحدُ الجواسيس العثمانيّين، فإنَّ جيشَ السلطان المملوكي "قنصوة الغوري" وصلَ إلى "حلبَ الشهباء" بينما كان معه الأمير قاسم -أحد أبناءِ الأميرِ أحمد- وهناك تواصَلَ مع الشاهِ إسماعيل، وهو تطوُّرٌ يأتي على رأسِ الأسبابِ الظاهرةِ لتفكيرِ السلطانِ سليم بغزوِ مصرَ، وقال رجالُ "الغوري": لو استطاع السلطان سليم القضاءَ على الشاه إسماعيل فإن الدورَ سيحين على المماليك، ولهذا السبب فيجبُ أن يستعدَّ الجيشُ المملوكي وينتقل إلى حلب الشهباء، وبحسب هذه الفكرة فكان يلزمُ دحضُ القوّات العثمانية وتعزيزاتِها الموجودةِ في تلك المنطقة قبلَ وصولِ السلطان سليم، وقد اتَّبعَ "السلطانُ الغوري" هذا الرأيَ وسارَ نحو دمشق الشام، وعليه؛ أبلغَ الصدرُ الأعظمُ "سنان باشا" هذا الخبرَ إلى السلطان.

ويُثْبِتُ المؤرِّخُ التركي المعاصِر الأستاذ الدكتور "فريدون أمجان" بوضوحٍ، في أوَّلِ دراسةِ سيرةٍ ذاتيّةٍ للسُّلطان سليم؛ خطأَ المعلومة القائلةِ بأن السلطان سليم قد خطَّطَ لِغَزْوِ مصرَ منذ وقتٍ سابقٍ، وهي معلومةٌ تُورِدُها معظمُ الدراسات التاريخيّة التي تتناولُ عهدَ السلطان سليم، وبحسبِ هذه الدراسة، فإن الكتّاب الذين عاصروا ذلك العهد لا يتحدَّثون أبدًا عن خططٍ مسبقةٍ خطَّطَ لها السلطان سليم لفتحِ مصر، ويكتب "إدريس بِدْلِيسِي" الذي كان إلى جوارِ السلطانِ: إن السلطانَ خرجَ من أجل "فتح بلاد العجم...".

لقد كان "قنصوة الغوري" منزعِجًا من الحِصارِ والحَظْرِ التجاريِّ اللذَين كانا مفروضَينِ على حدودِهِ الشرقيّة، فأرسلَ خطابًا قبلَ أربعة أشهر من خروج السلطان سليم في الغزوة في مارس/آذار عام (١٥١٦م) يُخاطِبُه

فيه بقوله "يا بُنَيّ"، وشكا إليه الحظرَ التجاريّ، وأعربَ عن مخاوفِهِ من مهاجمتِهِ مصر برًّا وبحرًا، وقال:

"... الحمد لله أنا سلطانٌ من أهلِ الإسلام، ومَنْ يعيشُ تحتَ حكمنا هم مؤمنون موحِّدون وليسوا خوارجَ مثل الصفوي الشاه إسماعيل حتى يُصدِرَ العلماءُ فتوى بقتلهم...".

وأخبرَ السلطانَ سليمًا بضرورةِ استمرارِ الصداقةِ بين الدولتين المسلمَتَين السنِّيَّتَين.

ووصلَ الخطابُ إلى السلطان سليم في الوقت الذي أصدرَ فيه قرارًا بالخروجِ في غزوةٍ على مصر، وقد أجابَ السلطانُ سليم على "السلطان الغوري" مخاطبًا إيّاه بـ"يا والدي"، وأخبره بوضوحٍ أنَّ جميعَ التجهيزات العسكريّة التي يقومُ بها هي للخروجِ في غزوةٍ ضدَّ الشاه إسماعيل، وأبلغه بسبب اضطراره للخروجِ في غزوةٍ جديدةٍ إلى الشرقِ، مؤكِّدًا له أنه لا يحملُ أيَّة فكرةٍ لِغَزْوِ أراضي الدولة المملوكيّة، كما أخبره بأن الحدود الشرقيّة قد أُغْلِقَتْ بسببِ الخَطَرِ الصفويّ، وأنه لا أحد يعترض طريقَ من يأتون من حلب الشهباء أو الإسكندرية ولا يحملون بضائعَ شرقيّة، وذكّرَهُ بأنه إذا اعترضَ على هذه الحملةِ العسكريّةِ التي سيخرجُ فيها ضدَّ أعداء الدينِ؛ فسوف يلقاه وليفعل الله ما يشاء، وقال له أيضًا إن الإعدادات التي تجري في البحر هي في الأساس بقصدِ الدفاع، وطلبَ السلطان سليم في نهاية خطابِهِ الدعاءَ من "السلطانِ الغوريّ" وشعبِ الحرمين الشريفين.

وكان العثمانيُّون على علمٍ باللقاءات التي عقدَها "السلطان الغوري" مع الشاه إسماعيل، وقد كان سبب مغادرته للقاهرةِ هو عقدُ حلفٍ مع الشاه والحيلولةُ دون عبورِ الجيشِ العثمانيّ.

وغادرَ السلطانُ "قنصوة الغوري" القاهرةَ يرافقه الخليفة العباسي "المتوكل" وأكابرُ أمراءِ الدولةِ والأميرُ "قاسم" وقوّةٌ عسكريّةٌ قوامُها عشرون ألف مقاتل، ووصلوا إلى دمشق الشام، وعندما وصلَهُ نبأُ تحرُّكِ السلطان سليم من إسطنبول؛ وصلَ على الفور إلى مدينة حلب الشهباء القريبةِ من حدودِ الدولة العثمانيّة، وفي تلك الأثناء غادَرَتْ قوّاتٌ عثمانيّةٌ مدينةَ "قُونْيَه" متوجّهةً إلى مدينة "قيصري (*Kayseri*)".

لقد أَجْبَرَتْ هذه الوضعيَّةُ السلطانَ سليم على تغييرِ جميعِ خُطَطِهِ، إذ انتقلَ "السلطان الغوريّ" إلى الحدود، فتوجَّهتْ كتائبُ عثمانيّة إلى الحدود على الجهةِ المقابِلة، وإذا سُئِلَ "الغوري" عن الأسبابِ فسيقول: إن هدفه من هذا التحرُّك هو اتّخاذُ التدابير اللازمة في أسرع وقتٍ لمواجهةِ أيِّ هجومٍ عثماني محتمَلٍ، وردعُ السلطان سليم إذا فكَّر باقتحام الحدود المملوكيّة.

وتحرك الشاه إسماعيل هو الآخر بقوَّاتِهِ للانضمام إلى القوّات المملوكيّة؛ لكنه لم يستطعْ التقدُّمَ لأن الجنود العثمانيّين كانوا يُحكِمون السيطرةَ على المعابِرِ.

السلطان سليم يخرجُ في غزوةٍ جديدة

خرج السلطان سليم في الغزوة بعد خمسةِ أسابيع من خروجِ الصدرِ الأعظمِ "سنان باشا"، وقد مَنَحَ الاثنين اللذَين كان غَضِبَ عليهما في وقتٍ سابقٍ وعزلَهُمَا من منصِبَيهما "بيري محمد باشا" مهمّةَ المحافظة على إسطنبول و"هرسك زاده أحمد باشا" مهمّة المحافظة على "بُورْصَه"، وقبْل أن يلتقيَ السلطان بـ"سنان باشا" أمرَ حاكمَ سنجق "الهرسك" "أَوْرَنُوسْ أُوغْلُو (*Evrenosoğlu*)" وأمير "تِيرْحَلَا (*Tırhala*)" "سنان" بإنشاءِ جسرٍ فوق نهرِ الفراتِ، وقد طلبَتْ القيادةُ العثمانيّة إذنًا من الأمير المملوكيّ في "مَالَاطْيَا" من أجل تشييدِ الجسرِ، لكنه لم يسمحْ بذلك، وبهذا يكون قد حالَ دون عبورِ القوّات العثمانيّة، وقد أضرَّت هذه الحركةُ بالعلاقاتِ الجيّدة مع المماليكِ، وعندما وَصَلَ السلطانَ سليم نبأُ تحرُّكِ السلطانِ المملوكيّ نحو حلب القريبةِ من الحدود العثمانيّة وإرسالِه أوامرَ إلى أمير "مَالَاطْيَا" بِعَدَمِ السماح بعبورِ القوّات العثمانيّة من الأراضي المملوكيّة؛ اعتبرَ السلطان سليم هذه التصرّفات بمثابةِ إعلانٍ للعَداءِ الصريح.

وأرسل أمير "مَالَاطْيَا" المملوكيّ قاضيًا بصفةِ رسولٍ إلى "سنان باشا"، فأخبر هذا القاضي "سنان باشا" بأن السلطانَ "قنصوة الغوري" جاء إلى حلب الشهباء للإصلاحِ بين السلطان سليم والشاه إسماعيل، وترجّاه أن يعودَ إلى إسطنبول ويلتقيَ السلطانَ لِيُؤَجِّلَ الغزوةَ التي خرجَ فيها، كان هذا الرسولُ لا يعلمُ أبدًا أنَّ السلطانَ وصلَ حتى مدينة "أَلْبِسْتَانْ"، وقال لـ"سنان باشا" إنه يريد الذهابَ إلى إسطنبول كرسولٍ إذا أَذِنَ له بذلكَ، فَضَحِكَ "سنان باشا"، وقال:

"هدفُكَ إسطنبول! تعالَ لأصطحِبَكَ إلى السلطان سليم، فهو هنا!".

فتعجَّبَ الرسولُ كثيرًا، وارتَبَكَ للغايةِ عندما وجدَ نفسَهُ يقفُ أمام السلطان سليم، حاول الرسولُ المملوكيُّ السيطرةَ على ارتباكِهِ، وسلَّمَ رسالةَ "السلطان الغوري" إلى السلطان سليم.

لقد قرأَ السلطان سليم الرسالةَ، فتوجَّهَ بالكلامِ إلى الرسولِ وقال له ما معناه:

"من يريدُ أن يُصْلِحَ بين خصمَينِ لا يأتي بهذا العددِ من الجنودِ والسلاحِ، بل يجلسُ على عرشِهِ ويُرْسِلُ مبعوثًا ليوصِّلَ رسالَتَهُ، غير أن سلطانَك يريد أن يمنعَ مهاجمتي للشاه إسماعيل بغرضِ الصلحِ، فإذا كان الوضعُ كذلكَ؛ فلَقَدْ تخلَّينا عن هدفِ مهاجمةِ الشاه، وقرَّرْنا مهاجمةَ سلطانكَ الغوريّ".

فسألَ القاضي السلطانَ سليمًا:

"هل لديكم دليلٌ على العلاقةِ بين سلطانِنا والشاه؟".

غضب السلطان كثيرًا، وأمر باصطحاب القاضي المملوكي إلى قضاةِ العسكر الذين أثبتوا للرسولِ المملوكي أن الشاه أرسلَ مبعوثَينِ إلى "السلطان الغوري"، وذلك من خلال إحضار شهودٍ من أهل القرية التي نزل بها ذلكما المبعوثَانِ، وبعدَ أن أثبتَ السلطان سليم بالبراهينِ دعمَ "الغوريّ" للشاهِ؛ أعربَ السلطان سليم عن أنّه بالرغمِ من كلِّ شيءٍ فإنه يرغبُ في مواصلةِ السلام مع الدولة المملوكيّة.

وعبَر السلطان وادي "مَالَاطْيَا"، وأقام بالقُرْبِ من نهر "تُوهْمَا" ولم يُفْصِحْ عن هدفِ غزوته حتى يوم الثلاثين من يوليو/تموز.

تناول السلطان بعض الموضوعات مثل تحالُفِ المماليك مع الشاه إسماعيل وتهديدِ البرتغاليّين للأراضي المقدَّسة، فقال السلطان فيما معناه:

"ماذا يأمرُ الحقُّ سبحانه وتعالى في هذه الحالة؟".

أجابه من كانوا في الديوان بقولهم:

"المهمة الأولى للسلطان هي التخلُّصُ من الشوكِ الضَّارِّ في الطريق، ثم السير في الطريق الذي يحدِّدُه الله".

وبناءً عليه حدَّدَ السلطانُ حلب الشهباء لتكونَ الهدفَ الجديدَ لِغَزْوَتِهِ.

وقال السلطانُ في الديوان ذلك اليوم ما معناه:

"إنّ نِيَّتِي هي الخروجُ في غزوةٍ ضدَّ المدعوِّ بالشاه إسماعيل، بيدَ أن حاكم المماليك جاءَ بجنودِهِ إلى حلب لتقديمِ الدعم لهذا الكافر!...".

ويُذكَرُ أنّه عندما دخلَ الجيشُ العثمانيُّ منطقةَ "ديار بكر"؛ قال رؤساء العشائر:

"إن هناك معتديًا يسيرُ لِيَنْشُرَ الفساد".

فنهَضَ جميعُ الأمراءِ المشاركين في الاجتماع وقالوا:

"ينزل السلطان المملوكي إلى طريقِنا كقاطع الطريق، فإذا كان الأمر كذلك فننتَظِرُ قيادةَ السلطان سليم لنا لِنَقِفَ وراءَهُ وندعمَهُ في الحربِ ضدَّ السلطان المملوكي، ويؤيّدنا الله سبحانه وتعالى لِنَنْتَصِرَ على جيشِ العدوّ ونقضي عليه...".

أُرْسِلَ رجلٌ إلى إسطنبول لاستصدارِ فتوى من المفتي والعلماء حول ما إذا كان هناك مانعٌ دينيٌّ فيما يتعلّقُ بتغييرِ وجهةِ الغزوة أم لا، فجاءَ الجوابُ بإجازةِ الغزوةِ.

ويروي "إدريس بِدْلِيسِي" -أحد أشهر مؤرّخي عهد السلطان سليم الأول- أن الهدَفَ الأساسيَّ من الغزوةِ كان دخولَ أراضي إيران و"استئصالَ شأفةِ الزنادقةِ من طائفة "قِزْلْبَاشْ"، غير أنَّهُ عَقِب مَيلِ شراكسةِ مصرَ والشام إلى قطعِ الطريقِ أمام الجيشِ العثمانيّ المجاهِدِ؛ اتَّخَذَ السلطانُ قرارًا بتحويلِ مسارِ الغزوةِ إلى الجنوب بغيةَ القضاءِ على الطائفةِ التي تَسيرُ في طريقِ النِّفاقِ، ولقد أرسل السلطان "قنصوة الغوري" طلباتٍ إلى السلطان سليم لا يمكنُ قبولها، وذلكَ خلالَ آخر المحاولاتِ الدبلوماسية؛ إذ أفسدت هذه الطلباتُ العلاقاتِ بين الجانبين؛ ناهيك عن إصلاحها، لِتَنْتَهِي آمالُ السلامِ تمامًا بين الجانبين.

غادرَ السلطان وادي "مَالَاطْيَا" يوم الخامسِ من أغسطس/آب عام (١٥١٦م)، ووجّه جيشَهُ للسيرِ صوبَ حلب الشهباء، وقد أخذَ الجيشُ وضعيّةَ القتالِ، ونقلَ أثقالَهُ ومستلزماتِهِ إلى المؤخرة، ووُزِّعَت الدُّرُوع والأسلحةُ على جنود "قَابِي قُولُو"، فامتشَقَ الجميعُ أسلِحَتَهم، كان الجيش العرمرمُ هذا يُشْبِهُ من بعيدٍ "البحرَ الحديديّ"، ولقد أصبحَ من الصعبِ على الجندِ السيرَ بعدما اضطرُّوا لِحَمْلِ أسلحتِهم، وفي تلك الأثناء وصلَ نبأٌ يُفِيدُ بِفَتْحِ قلعةِ "بَسْنِي (*Besni*)"، وأرسلَ السلطان سليم خطابًا شديدَ اللهجة إلى "السلطان الغوري"؛ إذ قال فيه فيما معناه:

> "نحن نتحرك من أجل إحياءِ الشريعةِ الإسلاميّة، ولا نحمل نيّة سرّيّة، لكنك تدعمُ الملحِدِين، وإذا كان الوضع كذلك فعداوتُكَ تُصْبِحُ صريحةً، ولهذا السبب فقد اتَّجَهَتْ غزوتُنا صوبك، فنحن سنأتي لندخُلَ أراضيك ولِنُسَيطِرَ على مدنها، الآن نحن نقيم عند جدول "تُوجَاكْ (*Tucak*)"، فلو كان هذا يبدو سهلًا بالنسبةِ لك

وكانت لديك ذرَّةٌ من الحميّة فاستعدّ للقتالِ في أيِّ مكانٍ وبِغَضِّ النظرِ عن الظُّروفِ".

ووصل الجيش العثماني حتى مشارف "عنتاب (عينتاب)" -التي تتبعُ إداريًّا لمدينةِ حلب- فَنُصِبَ مقرُّ قيادةِ الجيشِ، وعُقِدَ اجتماعُ الديوانِ حتى صلاة المغرب لِوَضْعِ خطة المعركة، وفي الوقت نفسِهِ بادر الجنود إلى القيام بمناوراتٍ فيما بينهم وسعَوا لإتقانِ تكتيكاتِ المعركةِ، واستمرَّت الاستعدادات للقِتال كذلك في اليوم التالي، وجرت متابعة شؤون عَقْدِ الأَلْوِيَةِ للمرَّةِ الأخيرة، ووُزِّعَ الطعامُ على أفرادِ الجيشِ.

وفي اليوم الثالث لإقامةِ الجيش العثماني في مدينة "عنتاب" وصلَ جاسوسٌ وأخبرَ القيادة بأن السلطانَ المملوكيّ خرجَ من "حلب" وينتظر في وادي "مرج دابق" الذي يوجدُ به ضريح النبي داود عليه السلام، وبناءً عليه؛ نامَ معظمُ أفراد الجيش العثماني على ظهور جيادِهِم تحسُّبًا لأيِّ هجومٍ ليليٍّ يقوم به العدوُّ، وأما الآخرون فقد ناموا بأسلحتهم ومعداتهم.

بعض الأسلحة العثمانية

معركة "مرج دابق"

اِلتقت هاتان القوّتان العظيمتان في وادي "مرج دابق"، وكانت القوَّتان متكافِئَتان من حيثُ العدد، لقد كان الجيشُ المملوكيُّ بالكامل تقريبًا مكوَّنٌ من وحداتٍ من الفرسان الذين تلقّوا تدريبًا متميّزًا، غير أنهم لم يكونوا يمتلكون أسلحةً ناريّة؛ إذ كانوا مجهزين فقط بالأسلحة القاطعة والثاقبة التقليدية، وكان الجيشُ المملوكيّ يَثِقُ كثيرًا بِجيادِهِ الجيّدةِ وفرسانِهِ المدرَّعين أصحابِ المهارات العالية، وكان الجيشُ على علم بأن العثمانيين يستخدمون الأسلحة النارية، لكنه كان يعتقد أن هذه الأسلحة تنفع فقط في حصارِ القِلاع، وأنها ليس لها تأثيرٌ كبيرٌ في المعارك الميدانيّة، كما كانوا يعتقدون أن هذه الأسلحةَ لن تستطيعَ أن تفعلَ شيئًا في مواجهة هجمات الفرسان الخاطِفةِ التي ستنتشِر في مساحة واسعة من أرض المعركة، وأما أكثرُ الأشياء أهمية ممّا لم يأخذه المماليكُ بعينِ الاعتبارِ عن العثمانيين هو أنَّ الجنودَ المشاةَ العثمانيين الذين كانوا يحملون البنادقَ كان بإمكانهم تغييرُ مكانِهم وإطلاقُ النارِ بشكلٍ جماعيّ، وكان هذا الاحتمال هو من أكبرِ الأسباب التي أدَّت إلى خسارةِ المماليك للمعركة.

وكان قوام الجيش العثماني زهاءَ خمسةٍ وستّين ألف جنديّ، وكان عددُ جنود الإنكشارية فقط ثمانية آلاف جندي تقريبًا، كما كان الجيش يضم أربعةَ آلافِ فارسٍ، وكان بجوار السلطان عشرون ألفًا من فرسان الأناضول ومثلهم من جنود الروميلي، وقد انضمّتْ قوّات الأمراء المحلِّيّين إلى الجيش العثماني كقوَّةٍ احتياطيّة، وكانت في حدود ثمانية إلى عشرة

آلافِ جنديّ، وكانت الإنكشارية -التي كانت مهمتها الأساسية حماية حياة السلطان في السلم والحرب- تضمُّ ألفي جنديٍّ مُسلَّحٍ بالبنادِق، وكذلك ألفين من مهرَةِ الرُّماةِ.

وبالرغم من الروايات المختلفة الواردة في المصادر التاريخية حول عدد المدافعِ؛ فإنَّ الجيشَ العثماني كان يضمُّ حوالي مائةٍ وخمسين مدفعًا، ومن المحتمل أن تكون القيادةُ العسكريّة قد رجّحت نقل المدافع الخفيفة بسبب طول الطريق ولِكونِ المدافعِ الكبيرةِ ستُبطِّئُ سرعةَ الجيش في مثلِ هذه الغزوات.

وعقب صلاة صبحِ يوم الرابع والعشرين من أغسطس/آب (١٥١٦م) سار العثمانيّون إلى أرض المعركة، واتّخذوا وضعيّة القتال الكلاسيكيّة، إذ كان السلطانُ في وسطِ الجيش، وكان يحيطُ به جنود "قَابِي قُولُو"، وعن يمينهِ فرسان "قَابِي قُولُو" وعن يمينهم جنود "العلوفة اليمين"[١٢] المدرَّعون والشجعان الغرباء، وأما على يسار السلطان فكان يوجد جنود "العلوفة اليسار" والغرباء اليساريون، وأما أمام المنتصَفِ فقد اصطفَّ الإنكشارية ببنادِقِهم وأقواسِهم، وأما عن يسارهم فاستقر قاذفو المدافعِ، ولِضمان حمايةِ الإنكشاريّة واستخدامِهم للبنادقِ بشكل مريحٍ وضعَ عن يسارهم جنودَ الأناضول الذين يحملون الرماح وعن يمينهم جنود الروميلي، وكان أمام الإنكشارية المسلحين بالبنادق قاذفو المدافِعِ، وقد استقرَّت بهذه المنطقة كذلك أحمالُ الجيش، وكان مركزُ الجيش حصنًا حصينًا؛ إذ جرت حمايته بالمدافع الخفيفة المربوطة ببعضها البعضِ بالسلاسل والوحدات التي تحمل البنادق، كما أحاطت به قطعانُ الجمال.

(١٢) هم الجنود العثمانيون الذين يحصلون على راتب موسميٍّ وقد أُخذ الاسم من كلمة "علف الحيوانات" إذ كانوا يشترون بذلك الراتب علفًا لدوابهم التي يستخدمونها في الحرب ويتدبرون معيشتهم بما تبقى منه. **(المترجم)**

وكان على طرفي هذه القوات المرتكزة في المنتصَفِ جنودُ أميرِ أمراءِ الأناضول والروميلي ووحدات الأمراء الأكراد المحلّيّين، وكان انتظامُهم ليس بالتوالي وإنّما بالموازاة -أي ليسَ خلف بعضهم، بل كانوا جنبًا إلى جنب- وقد كان الجيشُ يبدو إذا ما نُظر إليه من أعلى نظرة سريعة وكأنه نصفُ هلال.

خاطبَ السلطان سليم جنودَهُ قبل المعركة مباشرةً بقوله:

"... يا أيُّها الشجعان، هذه هي اللحظةُ الحاسمة؛ فأروني شجاعتكم!".

لقد حمَّسَت هذه الكلمات الجنودَ أكثر فأكثَر، ووقفَ السلطان للدعاءِ من أجل انتصار جنوده.

ويذكر في كتاب "سليم شاه نامه"(١٣) أن الجيشَ خبَّأَ الفرسانَ السريعين على الجناح الأيمن كالفخِّ وأنهم هم من بدؤوا أول هجومٍ كاسح، وكانت المعركة قد بدأَتْ أوّلًا بضربات قصيرة قام بها الفرسان الموجودون في الطليعةِ والمقدِّمة، كما بادرت المدافع العثمانيّة بِقصفِ قذائفِها بغرضِ إرهابِ جنود المملوكي.

لم يتبادل الجيشان العثماني والمملوكي القتالَ ما إن واجه بعضُهم بعضًا، بل انتظروا قليلًا وسعى كلٌّ منهم لتقديرِ قوَّةِ الطرف الآخر.

ولأن المماليك يعرفون قوَّةَ الأسلحةِ الناريّة التي يمتلكُها العثمانيّون؛ لم يدخلوا في بدايةِ المعركة في مدَى تصويب العثمانيّين، بل آثروا تَسْييرَ خيولهم يمنةً ويسرةً من خلالِ مناوراتٍ متعدِّدةٍ وبعيدة، وحاولوا

(١٣) كتاب تأريخ بدأ تدوينه باللغة الفارسية المؤرخُ العثمانيّ "إدريس بدليسي" بأمرٍ من السلطان سليم، لكنّ إدريس لم يكمله إذ وافته المنية فأكمله ابنه أبو الفضل محمد أفندي. (المترجم)

أن يسحبوا الجنود العثمانيّين إليهم، وكانوا يهدفون إلى الابتعاد عن مركز الجيش العثماني وأن يضربوهم من الجنب ليشقّوا لأنفسِهم طريقًا داخل صفوف الجيش ثمَّ لِيُحاصروا الجيش من الخلف، وبهذه الطريقة يكونون قد ابتعدوا بطريقةٍ مباشرةٍ عن مركز الجيش المُحَصَّنِ بالمدافع والبنادقِ والأقواسِ، ليضمنوا بذلك تأمينَ قوَّاتهم، ويبادروا إلى شن هجمات خاطفة بشكل تدريجي من الجانب ليفتحوا لأنفسهم طريقًا داخل صفوف الجيشِ العثماني، وتُشيرُ المصادرُ التاريخيّة لتلك الحقبة أن المماليك حاولوا في هذه المعركة تطبيقَ تكتيكٍ حربيٍّ يهدفُ إلى فتحِ طريقٍ من كِلا جانبي الجيشِ العثماني وإلى إرهابِ الوحدات العثمانية واستغلال ذلك في تفريقِها وإفساد تنظيمها وتشتيتِ شملِها، وكانوا بذلك سيتمكَّنون من شقِّ صفوفِ العثمانيّين وتفريقِهم، فبدأَ المماليكُ أوَّلَ هجومٍ كاسحٍ من الجناح الأيمنِ بواسطةِ الفرسانِ السريعين، وأما القذائفُ التي قَصَفَتْها المدافع العثمانيّة تواليًا لإخافة المماليك فقد مَلَأَت الأجواءَ بدخان البارود.

لقد انخفضَت مسافةُ الرؤية بسببِ هذا الدخان، وفي تلك الأثناء بادرَ الفرسانُ المماليكُ إلى الهجومِ على أبعدِ طرفٍ في الجناح الأيمنِ للجيش العثماني، وقد انضمَّ إلى هؤلاء الفرسان القوات المملوكية الأخرى، وحينها بدأت معركة عنيفة بين الفرسان على الجناح الأيمن للجيش العثمانيّ، وكان الجناح الأيسرُ للجيش العثمانيّ كذلك يقاتلُ ضدَّ الهجوم المملوكي الضعيف، وقد حدثَ اضطرابٌ على الجناحَين بالجيشِ العثمانيّ في هذا الاشتباكِ الأوَّلِ، فأُرْسِلَ "سنان باشا" إلى الجناحِ الأيمن فيما أُرسِلَ "يونس باشا" إلى الجناحِ الأيسر في أكثرِ لحظاتِ المعركةِ حميّةً، وكان يرافقُهم فرسان "قَابِي قُولُو" والمشاة الذين يحملون البنادق.

وأرسل السلطان سليم قوّات تعزيزيّة للأجنحةِ، وكان يُخاطِبُ جنودَهُ بأعلى صوتِهِ بقولِهِ:

"اليوم يوم الجهدِ والحميّة، فلا يُمكِنُ لأحدٍ أن يفرَّ من أَجَلِهِ، ولا يمكن لأحدٍ أن يُنْقِذَ نفسَهُ عندما يحينُ أجلُهُ، فلو يُسِّرَتْ لنا الشهادةُ فالسعادةُ في الآخرةِ من نصيبِنا، ولو انتصرنا فالدولة مُلْكُنا في الدنيا، فالوقت وقتُ الحميّة، فلْنَبْذُلْ قصارى جهدِنا...".

وقد فُهِمَ تأثيرُ هذه الكلماتِ من خلال تمكُّنِ قوَّاتِ التعزيزِ من ضمانِ تثبيتِ أجنحةِ الجيشِ.

وفي الوقت الذي استمرَّتْ فيه الاشتباكات بين الفرسانِ على الجناحين الأيمنِ والأيسرِ؛ أمرَ السلطان سليم بتقدُّمِ جنودِ الإنكشاريّة الموجودين في المنتصَفِ نحو مركزِ المماليك من خلال نيران المدافع والبنادق السريعة، وكانت أصواتُ البنادِقِ والمدافعِ متواصلةً وهي تصمُّ الآذان وتصخُّ الأسماع، كانت عربات المدفعيّةِ تُقادُ بطريقةٍ متقاطعةٍ بشكلٍ لا تغلق المسافة التي بين كل عربة منها، وكان بجوارها يتقدَّمُ المشاة الذين يحملون البنادق وهم يطلقونَ النار، ويشبهُ هذا التكتيكُ التكيتكَ المستخدمَ اليومَ في عمليّات الاحتلال والاقتحامات التي تتم برًّا من خلالِ قوات المشاة التي تحتمي بالدبّابات، ولقد تفرَّقَتْ قوّات مركزِ الجيش المملوكيّ خلال فترةٍ قصيرةٍ، كما أصدرَ السلطان سليم أمرَ التقدُّمِ كذلك لجنودِ الخواصّ المشاة والفرسان الموجودين عن يمينه ويساره.

لقد نجحَ الهجومُ المفاجِئُ الذي شنَّتْهُ قوّات مركزِ الجيشِ العثمانيّ في تفريق فرسان المماليك الذين كانوا يهجمون من خلال تكتيكِ الكرِّ والفرِّ، وفي تمزيقِهم شرّ ممزَّق وبالرغمِ من شنِّ المماليكِ هجماتٍ على استحياء؛

لكنهم لم يستطيعوا تحقيقَ أيِ نصرٍ يُذكَر، فالقذائفُ المدفعيّة ونيران البنادِقِ للقوّات المركزيـة العثمانيـة أَجبرت حتى القوّات الخاصّة بحماية السـلطان "قنصوة الغوري" على الفرار نحو "حلب".

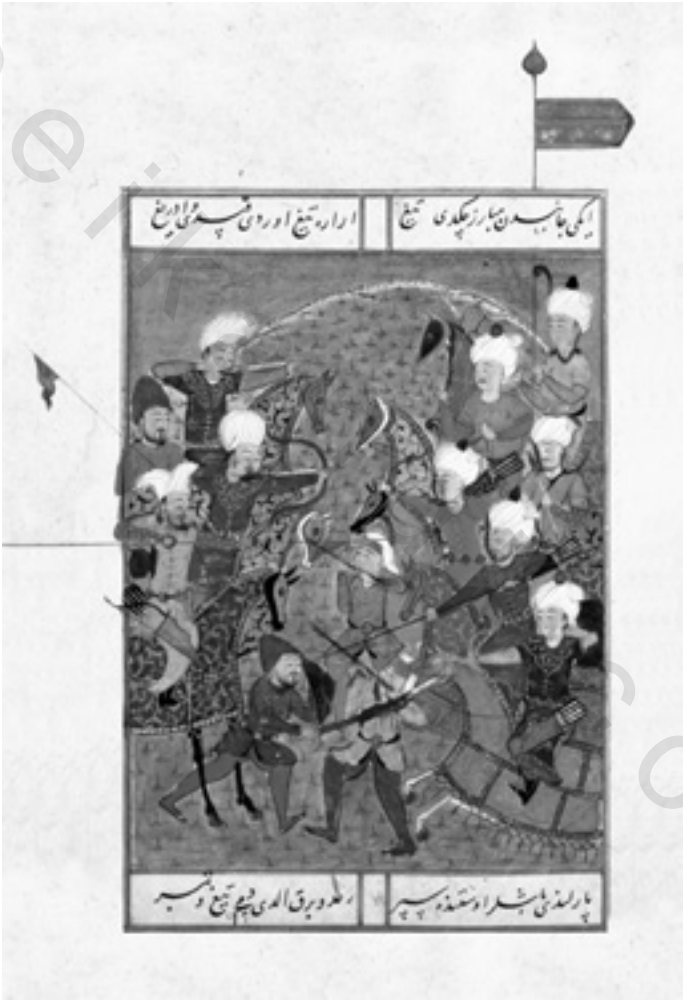

معركة "مرج دابق". (سليم نامه، *216b*)

ما بعد معركة "مرج دابق"

قيّم المؤرخ المصري "ابن زنبل الرمال" (ت: ٩٦٠هـ/١٥٥٣م) الحربَ من وجهةِ نظرِ المماليكِ، فيروي لنا تفاصيل معركةِ "مرج دابق" باختصارٍ على النحو التالي:

> "كان أهمُّ العناصِرِ التي واجَهَت العثمانيّين في "مرج دابق" قوَّةً من الشراكسةِ قوامُها ألفا جندي، وكان هناك فوضى عارمة في سائر وحدات الجيش، حتى إنه لم يكن واضحًا في بداية المعركة من سَيُهاجِمُ ومن سَيُدافِعُ، وقد شهِدَ الجيشُ أزمةً كبيرةً في هذا الأمرِ، والواقع أنّه لم يكن انتظامُ الجيشِ المملوكيّ جيّدًا بما فيه الكفاية، وقد انهار وتفكَّكَ بالكاملِ خلالَ المعركة، بَيدَ أنه لم يكن هناك أيُّ خلافٍ بين القوّات العثمانيّة، كان كلُّ جنديٍّ يعرف مهمَّته، ويتحرَّكُ بانضباطٍ كبيرٍ ومع بقيّة الجنود، هذا فضلًا عن أن السلطان سليمًا كان يسيرُ بجواده حتى يصل إلى وسطِ صفوفِ جنودِهِ، ويُمْسِكُ السلطانُ العثمانيُّ بسيفِ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ويمتدِحُ جنودَهُ باستمرارٍ، ويُشَجِّعُ قادةَ جيشِهِ، وأما الجنود الذين كانوا يرون سلطانَهم بجانبِهِم فقد كانوا يكتسحون المماليك كالفيضانِ الهائجِ".

لقد استمرَّ جزءُ الصراعِ الأساسيّ في معركةِ "مرج دابق" ثلاث ساعاتٍ تقريبًا، وانتَهت المعركةُ تمامًا وقتَ العصرِ، كانت هذه المعركة انتصارًا في الوقت نفسهِ لهدوءِ العثمانيّين وعدم تخلّيهم أبدًا عن الانضباطِ في المعركة، فالجيش يُنَفِّذُ الأوامر الصادرةَ لهُ حرفيًّا بغضِّ النظرِ عن الظروفِ هل هي في صالِحِه أو لا، ولا يستَسْلِمُ للخوفِ ولا يعرف الهلعَ أبدًا.

obeikandl.com

وكانت القوّات المركزيّة في الجيشِ العثمانيّ مكلَّفةً بحمايةِ مركز الجيش ومقرّ قيادَتِهِ، وقد غيَّرَتْ هذه القوّات سيرَ معركةِ "مرجِ دابق" تمامًا، فلقد اصطفَّت القوّات العثمانيّة في ميدان المعركة كالعادةِ لكنها انتصرَت بشكلٍ غير معتاد! وهذا يُظْهِرُ أن الجيشَ العثمانيَّ يتمتّعُ بالانضباطِ والقابليّة التي تُمَكِّنُهُ من تغييرِ تكتيكِهِ بشكلٍ مفاجئٍ بحسبِ طريقةِ هجومِ عدوه.

سقطَ "السلطان الغوريّ" عقبَ المعركةِ من على ظهرِ جوادِهِ وماتَ، وقد تلطّف السلطان سليم مع الخليفة العباسي الذي جاء مع المماليك وألبسه خلعةً خاصة منه عقب المعركة ثم اصطحبه معه إلى القاهرة.

وعقب هذه المعركة ألْحَقت الدولة العثمانية بأراضيها "سورية" و"لبنان" و"فلسطين"، وكان ذلك خطوةً مهمَّةً في طريقِ السيطرة على مصر، ولقد استندت السياسة التي انتهجَها السلطان عقبَ هذا النصر على بسطِ النفوذِ على المُدُنِ الكبرى بالمنطقة، وكان السلطان متردِّدًا حول ما إذا كان يريدُ التقدُّمَ أكثر أم لا.

لقد عقدَ السلطان أوَّلَ اجتماعٍ للديوان عقب الحرب، فسأل وزراءه عن الوضع في حلب، وفي تلك الأثناء التقى الوزير "يونس باشا" بأميرِ حلب التابعِ للمماليكِ "خاير بك" واصطحَبَهُ إلى السلطان، وقال هذا الأميرُ إن المماليكَ ذهبوا إلى مدينتي "حماة" و"حمص"، وإن هناكَ خلافًا ونقاشًا فيما بينهم حول من سيتولّى منصبَ السلطان خلفًا للغوري، ثم أعلنَ تبعيَّتَهُ للدولةِ العثمانيّة، وبهذه الطريقة يكونُ أحدُ القادَةِ المماليك قد دخلَ في الخدمةِ العثمانيّة.

ودخل السلطان "حلب" يوم الثامن والعشرين من أغسطس/آب (١٥١٦م)، ومكثَ بها أسبوعين، وخُطِبَتِ الجمعةُ باسمِهِ، وأجرى

تعييناتٍ مختلفةً بالمدينة، وشكَّلَ سناجقَ في المنطقةِ التي كان يُطْلِقُ عليها العثمانيّون اسمَ "ولاية العرب"، وجَرَتْ تعييناتٌ جديدةٌ في كلِّ سنجق، وأُلْحِقَتْ بالدولةِ العثمانيّةِ مدنُ "بَعْلَبَك" و"حماة" و"حمص" و"سِيسْ (*Sis*)" و"طرابلس" و"بِيرَه جِيكْ (*Birecik*)" و"طرطوس".

وأمرَ السلطان بعودةِ جنودِ أميرِ أمراءِ "ديار بكر" وقوّات العشائر الكرديّة إلى بلادِهِم لِقَضاءِ فصلِ الشتاء بعدما كانوا قد جاؤوا لتعزيزِ قوّاتِ الجيشِ، وذلك كتدبيرٍ وقائيٍّ في مواجهة أيِّ هجومٍ محتمَلٍ يشنُّهُ الصفويُّون على "ديار بكر"، وكانت هذه الفعاليّةُ تُظْهِرُ أن السلطانَ سليم كان يهدف في المقام الأول إلى التخلُّصِ من خطرِ الشاهِ إسماعيل أكثر من السيطرةِ على مصرَ.

لقد جمع السلطان الديوانَ في "حلب الشهباء" للمرّة الأولى، وتناقَشَ حولَ مخطَّطِ سيرِ العمليّة العسكريّة مع الوزراء والقادة والعلماء، واقترحَ عليهم فكرة السير نحو "دمشق"، وتحدَّثَ الديوان حول المعلومات الاستخباراتية المتوفرة، والتي تُوضّح أن كبار المماليك اجتمعوا لاختيار سلطانٍ جديدٍ في "دمشق" وأنهم يُفَكِّرون في الهجوم على القوات العثمانية، ولقد كان كلّ من "محمد بن السلطان الغوري" و"جانبردي غزالي" يتنافسان من أجل الوصول إلى عرشِ السلطةِ، كما ناقشَ الحضورُ الطلبَ الذي تقدم به ساكنو الأراضي المقدَّسَةِ من الحرمين الشريفين لتأمين طريق الحج، فَأَيَّدَ الحاضرونَ في الديوان فكرةَ السيرِ إلى "دمشق"، وبالرغم من إرسال جزءٍ كبيرٍ من الجيش إلى أماكنهم السابقة، فقد اتَّخَذَ السلطان قرارًا بمواصلة الغزوةِ.

وأرسل السلطان مبعوثًا إلى إسطنبول كذلك وأمرَ باستعداد الأسطولِ وإبحارِهِ فورًا في مياهِ البحر الأبيض المتوسط.

الجامع الأموي في "دمشق"

obeikan.com

السلطان سليم في "دمشق"

أمرَ السلطان سليم بإعدادِ مئاتٍ من أكياسِ الماءِ قبلَ تحرُّكِهِ إلى "دمشق" حتى لا يعانوا من العطش طوال الطريق، وبعدها تحرَّكَ برفقةِ اثني عشر ألف جنديّ من جنود "قَابِي قُولُو" فوصلوا أولًا إلى "حماة"، وكان أوّل ما فعله السلطان هناك أن زارَ ضريحَ الإمام زين العابدين ودعا هناك، ثم وصلَ الجيشُ بعد يومين إلى "حمص"، وبعد ثلاثة أيام إلى "دمشق"، غير أن السلطان لم يدخل المدينةَ، بل انتظر أن يضمنَ النظام العام، ثمّ دخلَ السلطانُ "دمشقَ" بعد اثني عشر يومًا.

وأعلنَ السلطانُ في أوَّلِ اجتماعٍ للديوان في "دمشق" إلغاءَ الإجراءاتِ المملوكيّة القديمة، وعيّن بعضَ الشخصيات في مناصبها، وفي اليوم التالي أمر بإحصاءِ أعدادِ جنود الأناضول والروميلي، وخصَّصَ لهم أماكن لِيُقيموا فيها في الشتاء، وكان هذا يعني انتهاء غزوة مصر.

وعندما وصل السلطان إلى "دمشق" كان أول شيء فعله أنْ أَمَرَ بالبحثِ عن ضريحِ "محي الدين بن عربي" (ت: ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) الذي أثَّرَ بأفكارِهِ في التصوّفِ العثمانيّ، لا سيّما وأنه عالمٌ كبيرٌ له تأثيراتٌ عظيمةٌ في تاريخِ الفكرِ الإسلاميّ والصوفيّ، ويُروى أن الشيخَ "أدبالي" (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) -معلِّم السلطان "عثمان غازي"- حصّل دروسًا من ابنِ عربي في "دمشق"، ويظهرُ الارتباطُ العثمانيّ بابن عربي أن "داود قيصري" (ت: ٧٥١هـ/١٣٥٠م) الذي كان من الشارحين الذين يُدَرِّسُون على الناس من مؤلَّفات ابن عربي هو أول كبيرٍ للمدِّرسين الرسميّين في الدولةِ العثمانيّة، وكذلك فإن تلميذَهُ "مُلّا فناري" (ت: ٨٣٤هـ/١٤٣١م) يُعْتَبَرُ

أوَّلَ شيخٍ إسلامٍ في تاريخِ العثمانيّين، غير أن قيمةَ هذا العالِمِ لم تُعرَفْ من قِبَلِ الدولةِ في ذلك الوقت، فَهُدِمَ ضريحُهُ بالكاملِ.

كان "ابنُ عربي" قد أوضَحَ في حياتِهِ أنَّ ضريحَهُ سيُدَمَّرُ؛ إذ قال:

"إذا دخلت السين في الشين يظهرُ محيِ الدين".

وبالرغم من أن أحدًا لم يُقِمْ علاقةً بين حرفي السين والشين في العصرِ الذي عاش فيه؛ إلا أنّه فُهِمَ بعد ذلك أن حرفَ "السين" يرمزُ إلى السلطان سليم وأن حرف "الشين" يرمز إلى الشام، وكان يقصدُ بهذه العبارة دخولَ السلطان سليم الشام، وبهذه الطريقة عُثِرَ على قبرِ هذا العالِمِ الصوفيّ الشهير في عهد السلطان سليم الذي أمرَ ببِناءِ ضريحٍ فوقَ قبرِهِ، ولا توجد معلوماتٌ مؤكّدةٌ بشأنِ كيفيّةِ الوصولِ إلى القبر، إلا أن "أوليا شلبي" يروي في كتاب "سياحتنامه" أنَّ السلطان سليمًا رأى ابنَ عربي في منامِهِ، وأن هذا الأخيرَ أبلغ السلطانَ بأن يمتطي جوادًا أسود، وأن هذا الجواد سيقودُه إلى مكانِ القبرِ، وأن السلطان فعلَ ما رآه في منامِهِ في الصباح، وأن الحصانَ أخذَ يحفرُ في مكانٍ ما، وبعد أن حفر السلطان ذلك المكانَ وجدَ حجرَ القبرِ بِنَفْسِهِ.

هل سيغزو السلطان سليم مصر؟

صلّى السلطان سليم أوَّلَ جمعةٍ في "دمشق" في الجامع الأموي، وقُرِئَتْ الخطبة باسمِهِ، ثم ذهبَ إلى رؤيةِ مصحفِ سيّدِنا عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وزار المكان الذي سينزِلُ فيه السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عند اقترابِ قيام الساعة(١٤)، كما طافَ بعددٍ من المقامات المقدَّسة بالمدينة.

وأراد السلطان لقاء "الشيخ محمد بدخشي" (ت: ٩٢٣هـ/١٥١٧م) الذي يُقيمُ في الجامعِ الأمويّ، ويُعْتَبَرُ أحدَ أكبرِ علماءِ العالَمِ الإسلاميّ، وواحِدًا من قادةِ الرأيِ في ذلك العصرِ، ففعلَ السلطان ما يليق به ولم يستدعِ الشيخَ إلى مقامهِ بل ذهبَ إلى زيارته بنفسِهِ.

فجلس السلطان في حضرة الشيخ بكامل الأدبِ في صمتٍ وسكون، وكان الشيخ صامتًا هو الآخر، واستمرَّ الصمتُ بُرْهَةً، وكان العثمانيّون قليلي الكلام لا يتكلمون إلا فيما يفيد فيَعُدّون إكثار الإنسان من الكلام عيبًا.

وعندما لاحظَ كبير الحكماء "آخي شلبي" هذا الصمتَ؛ بدأَ يتحدَّثُ عن المناخِ في الشام حتى يفتحَ طريقًا للكلام بين الطرفين؛ غير أن السلطان لم يكنْ يُعْجَبُ بهذا الكلام الفارغ، فنظر السلطان إلى "شلبي" نظرةً تنمُّ عن تضايُقِهِ لِيَصْمُتَ، ثمّ طلبَ الدعاءَ من الشيخ الذي أظهرَ تواضعًا جمًّا، وقال إن السلطانَ هو الجهة التي يستنِدُ إليها جميع المسلمين، وإنه هو الذي يُطلَبُ منه الدعاءُ.

وعندما طلب السلطان سليم الدعاء من الشيخ للمرة الثانية بإصرارٍ

(١٤) انظر: **صحيح مسلم**، الفتن، ١١٠؛ **سنن أبي داود**، الملاحم، ١٤؛ **سنن الترمذي**، الفتن، ٥٨.

obeikandi.com

ورجاءٍ؛ دعا له الشيخُ، وودَّعا بعضهما بعضًا بكاملِ الاحترامِ والأدبِ.

وعندما وصلَ السلطان إلى القاهرةِ رأى الشيخَ في منامِهِ، فكان يرتدي الزيَّ الذي كان يرتديه يوم أن التقاهُ السلطان؛ وقد حكى السلطان هذا الحلمَ إلى "حسن جان"، فأوّله بأن الشيخ قد مات، وكان السلطان يعرفُ أنه يجب تأويل الرؤى على الخيرِ، فغضب على "حسن جان"، وقال إن الرؤيا ستَتَحَقَّقُ حسبَ تفسيرِهِ، ولو حدث شيءٌ للشيخ فإنه سيربطُ ذلك بتأويلِهِ، وحينها سيستحقُّ العقابَ! فحزنَ "حسن جان" كثيرًا، وعندما جاء "حلمي شلبي" إلى حضرةِ السلطان في اليوم التالي قال له السلطان إن "حسن جان" يستحقُّ العقاب، وأنه أخطأَ في تأويلِ الرؤيا، ولو حدثَ شيءٌ للشيخ فمرده إلى تأويله الخاطئ.

ويقول "حسن جان" إنه أراد تحديدَ تاريخِ الليلة التي رأى فيها السلطان الرؤيا، وعلى حسب ذلك لو حدث شيءٌ للشيخِ فهل كان الحلم قبل ذلك أو بعد ذلك، ووفق ذلك يرى إن كان يستحقُّ العقابَ أم العفوَ من السلطان.

فأجابه السلطان بأن هذه طريقة مناسبة لمعرفة هذه النقطة، فكتبَ تاريخَ الرؤيا بخطِّ يدِهِ على ورقة، وبعدَ أيامٍ وصلَ وفدٌ من الرسلِ من الشام لينقلوا نبأَ وفاة الشيخ بعدما قال على فراش الموت: إن أهالي الشام يجب أن يسمعوا ويُطيعوا السلطان سليمًا، وأن الله قد أرسله ليخلِّصهم من أيدي الشراكسة، وطلب منهم أن يوصلوا سلامه ودعاءه إلى السلطان، كما كتبَ وصيَّةً مليئةً بالنصائحِ، وطلب تسليمها إلى السلطان.

وعندما استلمَ السلطانُ الخطابَ في خيمتِه، استدعى "حلمي أفندي" على الفور، ثم استدارَ إلى "حسن جان" وعاتبه على وفاة هذا الشيخ العزيز بسبب تفسيرِهِ لتلك الرؤيا.

فسأل "حسن جان" بشغفٍ عن يوم وفاة الشيخ؛ فضحك السلطان وأعطى الخطاب إليه ليقرأه، فقام "حسن جان" و"حلمي أفندي" بعملِ حسابٍ لِيومِ وفاة الشيخ حتى توصّلا إلى أنَّ ليلةَ وفاة الشيخ كانت موافقةً لليلةِ الرؤيا، ولهذا استحقَّ "حسن جان" العفوَ، وقد فسَّر هذه الحكاية على أنها إشارة إلى "كرامة السلطان"، وأخبره بأن رؤيته نفسها قد تحققتْ بالفعل.

وبينما كان السلطان سليم في الشام هطلت ثلوجٌ كثيفةٌ وأصبحَ الجوُّ باردًا، وقد فُسِّرَت هذه الحالة على أنها بشرى لأن ظروفَ الطريقِ ستكون مناسبةً خلالَ الغزوةِ الصعبةِ التي فكَّر السلطانُ بها.

لقد كان السلطان يخرجُ في جولات صيدٍ في الشام كذلك، وتحدَّثَ في هذهِ الجولاتِ حولَ موضوعِ غزْوِ مصرَ بشكلٍ مفصَّل ومطول، وتبادَلَ أطرافَ الحديثِ مع "إدريس بِدْلِيسِي" والصدر الأعظم "سنان باشا" اللذين كان يصطحبُهما في جولاتِهِ، وقد حصلَ السلطانُ على انطباعات أكبرِ رجالِ الدولة بشأنِ غزوِ مصرَ من عدمه، وفي الوقت الذي كان يُفَكِّرُ فيه في الغزوة الجديدة كان الجنودُ مرهقين أيما إرهاقٍ نتيجةَ المعاركِ المتواصلة والطويلةِ.

وبدأ الجنودُ في الشام يتحدَّثون عن أسبابِ عدمِ العودةِ إلى الأناضول والروميلي بما أن الغزواتِ قد انْتَهَتْ، وبدؤُوا ينتقدون نزولهم كضيوف في العديد من المدن الجديدة دون الاستقرار في مكانٍ معيّنٍ ويقولون:

"...لا نستريح في مكاننا إلا بضعة أيّام، فأيُّ سلطانٍ يرى هذا مناسبًا لجنودِهِ!...".

ووصلت هذه الكلمات إلى مسامعِ السلطان.

اقتنع السلطان سليم بشكاوى الجنود، فنوى العودة، لكنه رأى أنه من الضروري الانتظار لبعضِ الوقتِ لمتابعة الوضع القائم واستقبال الأخبار القادمة من القاهرة.

وأما المماليك فقد دخلوا في نقاش وجدال فيما بينهم بشأن من سيعتلي عرش الدولة عقبَ وفاةِ "الغوري"، وقد اتَّفَقَ الأمراءُ على اختيارِ ابن أخي الغوري "طومان باي" لِيَكون سلطانًا بعدما كان "الغوري" قد تركَهُ كوكيلٍ له، وعندما وصلَ هذا النبأُ إلى السلطان سليم زادت تردُّداتُه فيما يتعلَّقُ بغزوِ مصرَ.

القاهرة

لقد تناقشَ السلطان حول هذا الموضوع مع "إدريس بِدْلِيسِي" كثيرًا، ويحكي هذا الأخيرُ في أحدِ مؤلَّفاته أن السلطان أرسل قافلةً إلى الحرمين الشريفين، وفي تلك الأثناء نُصِّبَ "طومان باي" على عرشِ الدولةِ المملوكيّة، وبينما كانَ هذا يحدثُ سلَّمَ المماليكُ طريقَ الحجازِ إلى الأعرابِ من قاطعي الطريق، وأضاف أن المماليك كانوا واثقين من أن السلطان سليم لن

يستطيع مهاجمتهم لأن الطريق إلى مصر مُحاطٌ بالصحارى ولا تتوفَّرُ فيه أيُّ مصادر للمياه؛ إذ كانوا يقولون "لم يُجَرِّبْ أيُّ فاتحٍ هذا الطريق"، وفي تلك الأثناء حلَّ شهرُ رمضان، وبدأ السلطان ورجال الدولة والجنودُ بأداءِ شعائرِ الصيام في بلادِ الشام المباركة.

بدأتْ نقاشاتٌ جادَّة بين القادة حول الخروجِ في غزوة على مصر، وعبَّروا عن قلقِهم من هذه الخطوة، واعتقد القادةُ أنه من الصعب جمعُ الجيشِ وتجهيزُهُ في مكانٍ بعيدٍ للغايةِ عن الأراضي العثمانيّة في يومِ شتاءٍ قارس، وأعربوا للسلطانِ عن قَلَقِهم بشأنِ مخاطرِ الخروجِ في غزوة خطيرةٍ كهذهِ بعددٍ قليلٍ من خيرةِ الجنود، مشيرين إلى أنهم مترددّون بشأنِ أيّ معركةٍ تقعُ مع جيشٍ قويٍّ وكبيرٍ للغاية مثل الجيش المملوكي، واعتبروا أنه من المستحيلِ نقلُ الغِذاءِ والمياه في صحراء مترامية الأطراف، وقالوا إن المكانَ الذي سيقصدونه بعيدٌ جدًّا.

لقد شَهِدَتْ تلك الأيّام حدوثَ نقاشٍ غير معتادٍ في الديوان العثمانيّ؛ إذ بدأَ أميرُ أُمَراءِ الأناضول "زينل باشا" يتناقشُ مع دفتردار الأناضول "زَهْرِيمَارْ قَاسِمْ أَفَنْدِي (*Zehrimar Kasım Efendi*)" في حضرة السلطان بشأن الإعداد للغزوةِ الجديدةِ، وبدأ الجميعُ يشاهدهُما بِحِيرَةٍ كبيرةٍ، فلم يسمح السلطان باستمرارِ هذه المهزلة، فعزلَهُما فورًا من منصبيهما وعيَّنَ اثنين آخرين مكانهما.

ويمكن أن نعتبرَ أن هذه الحادثة التي حدثت في الديوان في حضرةِ السلطان علامةٌ أخرى على التوتّر الذي كان موجودًا أصلًا بين صفوف الجيش العثماني؛ إذ أظهر هذا النقاش المشاكلَ والمخاوفَ التي كانت داخلَ الجيش.

وكانت النقاشاتُ قد ركَّزَتْ على قِلَّةِ عددِ الجنودِ والمشاكلِ التي يُعانيها الجيش في الحصولِ على الدعمِ اللوجيستيّ والظروف المناخيّة، وعبَّرَ المُتناقِشون عن أنَّ هذه الأوضاع الخطيرةَ ربما تتسبَّبُ في هزيمةِ القوّات العثمانيّة.

لم يكن السلطان سليم لِيَرْضَى بِتَرْكِ المكاسِبِ التي حقَّقَها جيشُهُ في معركةِ "مرج دابق" من خلال استعادة المماليك لقوَّتِهم ولمِّ شملِهِم مرة ثانية، ولقد وَثِقَ السلطان بالمعلومات الاستخباراتيّة التي حصلَ عليها بأنَّ الأجواءَ داخلَ الجيشِ المملوكي مشحونةٌ بالتنافرِ والبغضاء، ففكَّرَ في أن بإمكانه التغلُّبَ عليهم بسهولة، فأصرَّ على قرارِ السَّيرِ إلى القاهرة، وقد سألَ السلطان سليم "شَهْسُوَارْ أُوغْلُو علي بَكْ" عن وجهةِ نظره حول هذا الأمر، وهو كان من أُمَراء "ذي القادر" والتحَقَ بعد ذلك بخدمة الدولة العثمانية.

ورأى "شهسوار أوغلو" أنه حين اتَّجَهَ السلطان سليم نحو "أذربيجان" دخل أراضي المماليك مضطرًّا، وأنه اضطر للسيطرة على هذه الأراضي لما وصلها، وأن مقاومة المماليك لم تنكسِرْ بعد، وأنهم اختاروا سلطانًا جديدًا، وأما الأمير المملوكي السابق "خاير بك" الذي أعلن تبعيته للدولة العثمانية فقال إن عدم سيطرة السلطان على جميع الأراضي المصريّة لا يليق به كسلطانٍ فاتحٍ؛ مشيرًا إلى أن الحرمين الشريفين في حاجةٍ إلى خدمته.

وأما السلطان سليم فكان ذا فكرٍ واعٍ وحنكةٍ عسكرية؛ إذ قال فيما معناه:

> "أعرفُ كلَّ ذلك، لكن أعلم أن "تيمور لنك" (ت: ٨٠٧هـ/١٤٠٥م) يُحارِبُ ضدَّ سلطان مصر "سيف الدين برقوق" (ت: ٨٠١هـ/١٣٩٩م)، وأعرف الصحراء في طريق القاهرة، كما أعرف أن "تيمور" وصلَ

إلى الشام لكنه لم يستطعِ السيرَ إلى مصر...".

فردَّ عليه "خاير بك" بقوله:

"يا حضرة السلطان، كما عبرَ الجنود المماليكُ بهذا العدد الكبير تلك الصحاري فأنتم أيضًا تستطيون عبورها بأريحية تامة".

واعتبر السلطان أن هذه الكلمات معقولةً، وتراجعَ عن رغبَته في العودة، وفي مواجهة إصرارِ "خاير بك" على غزوِ مصر أوضحَ الصدرُ الأعظمُ "سنان باشا" بأنه يجبُ الاكتفاء بمنطقة الشام اعتبارًا من "غزة"، مشيرًا إلى أنه في حالةِ غزوِ مصر والتعرُّض لهزيمةٍ فإن الجيش لن يكون في أمنٍ أبدًا، وأنه يجب وضع العشائر العربيّة الموجودة في المنطقة بعين الاعتبار، وقال إنه على قناعة بضرورة العدول عن هذه الفكرة انطلاقًا من كلِّ هذه الأسباب.

وبسبب اعتراض الوزراء والقضاة العسكريين خلال اجتماع الديوان الذي عُقِدَ من أجلِ الخروج في هذه الغزوة؛ خرجَ الديوان بقرارِ استخدام الطرق الدبلوماسيّة قبل اللجوء إلى القوة.

"... هرب المماليك من الشام إلى مصر، ونصّبوا شخصًا يدعى "طومان باي" سلطانًا عليهم، وكانوا يرغبون في قِتالِنا نحن العثمانيّين من جديد، فلنكتبْ خطابًا إلى ذلك السلطان لندعوه، فلو قَبِلَ دعوتَنا وأعلنَ ولاءَهُ؛ نعطيه أراضيه، ونعود لنرجعَ إلى بَلَدِنا، وإذا لم يقبل دعوتنا فسنتَّخذ التدابير اللازمةَ وفقَ هذا التطوُّر".

وبناءً عليه كُتِبَ خطابٌ إلى "طومان باي"، وبُعِثَ به إليه مع ثلاثة رُسُل.

لقد قدَّمَ السلطان سليم بعضَ النصائح في خطابه إلى "طومان باي"، وأضافَ السلطان في خطابِهِ بأن ملكيَّةَ المنطقة تابعةٌ لدولتِهِ بحقِّ السيف، وأنه لا يدينُ بالمنِّ إلى من مثله من الخلفاء والقضاة، وأنه حصل على

السلطَنَةِ من أبيه، وأبلغه بضرورة دفع ضريبة مصر إليه كما كانت تُدْفَعُ إلى خلفاءِ الدولة العباسية في "بغداد" في الماضي، وأنه ظلُّ الله في الأرض وخادم الحرمين الشريفين، ومن هذا المنطلَقِ فإن مكانته تتقدَّمُ على مكانة سلطانِ مصر.

وأرسلت الإدارة العثمانية خطابًا مشابهًا لذلك الخطاب كذلك إلى "جانبري غزالي"، وتضمن هذا الخطاب إخبار "جانبري" بأن الدولة العثمانية تَثِقُ به، وقيل له إنَّكَ لم تردّ على الخطابِ الذي كتبه الوزراء قبل ذلك، فإذا جئتَ وقدَّمْتَ فروضَ الطاعةِ فإن السلطان سيبقلها، كما ستعامل الدولة العثمانيّة أيَّ أميرٍ تصطَحِبُه معك معاملةً حسنةً.

ودعا السلطان سليم "طومان باي" ليكونَ خاضعًا له، وضمنَ له أن يُعامَلَ معاملةً حسنةً إنْ هو رضي بذلك، لكنه أخبره بأنه لو لم يفِ بوعدِهِ فإنه السلطان سيعاقبُهُ أيَّما عقاب.

وتروي بعضُ المصادِرِ أن السلطانَ عرضَ على "طومان باي" منحَهُ المنطقة الممتدَّةَ من "غزة" إلى مصر على أن تُقرأَ خطبةُ الجمعة وتُسَكَّ العملةُ باسمه وتُدفعَ إليه الضرائبُ، وأخبره بأنه سيغزو مصرَ إن لم يُنَفِّذْ هذه التعليمات.

وكان خطابُ السلطان سليم يستند إلى فكرةِ بقاء "طومان باي" كحاكمٍ لمصر تابعٍ للدولةِ العثمانيّة الّتي ألحَقَتْ مصرَ بأراضيها، وبدأت الإعداداتُ في الشام، وعقب سير "جانبردي" على رأسِ خمسةِ آلافِ جنديٍّ من "القاهرة" نحو "غزة"؛ أرسل العثمانيّون جنودَهم إلى المنطقةِ، كما خرجَ الصدرُ الأعظمُ "سنان باشا" من الشامِ كقوَّةٍ تعزيزيّة، وتمكَّنَت القوّةُ التي خرجَتْ قبل ذلك من السيطرةِ على "غزَّةَ" بسهولة، ثم عُقِدَ اجتماعٌ

للديوان بعد عدّةِ أيّامٍ، وناقشَ الحاضرون مسألةَ السيرِ نحوَ القاهرةِ لِفَتْرَةٍ طويلةٍ، وبحسبِ ما نَقَلَهُ "إدريس بِدْلِيسِي" الذي عاصرَ هذه الأحداث، فإن الباشاوات قالوا:

"...إنّه لَمِنَ الصعوبةِ بمكانٍ جمعُ أفرادِ الجيشِ في مكانٍ بعيدٍ عن الأراضي العثمانيّة في هذا الشتاء القارص، فكيف لنا أن ننجحَ في جمعِ وترتيبِ وإمدادِ الجيشِ والتوجُّهِ بهِ في غزوة خطيرة كهذه بالنخبةِ من القادة والأشخاص المقربين الموجودين بالخدمة!؟ وأنّى لنا أن نتمكّنَ في ظلِّ هذه الظروفِ من هزيمةِ جيشٍ قويٍّ وكبيرٍ كالجيشِ المملوكيّ!؟ ولهذا السبب يبدو أنه سيكونُ من المستحيلِ أن تُحَمَّلَ الجمالُ بالأكلِ والشربِ ثمَّ نسيرُ بها عبر الصحاري الجافَّة مترامية الأطراف، فوجهتُنا ستكونُ بعيدةً للغاية وهدفُنا سيكون صعبَ المنال".

وكان الوزراءُ مُحِقُّينَ في مخاوِفِهم، فعدمُ توفُّرِ العددِ المطلوبِ للجنودِ وانعدامُ الدعمِ اللوجستيّ للجيشِ والظروفُ المناخيّة الصعبةُ وما إلى ذلك... ربما كان من الممكنِ أن كلَّ ذلكَ يفتحُ البابَ أمامَ مشاكلَ كبيرةٍ يصعبُ التغلُّبُ عليها.

وأما السلطانُ فكان مقتنِعًا بشيءٍ مختلف تمامًا؛ إذ كان يرغب في جَنْيِ ثمارِ النصرِ الذي حقَّقَهُ، فلو انتظرَ السلطانُ أو تراجعَ فسيجد المماليكُ فرصةً لاستجماع قواهم؛ وعندها تصبحُ المكاسبُ التي حقَّقَها العثمانيّون في خطرٍ.

وشعرَ السلطانُ بالراحةِ لمَّا وَصَلَتْهُ أنباء تُفيدُ بأنَّ حالةَ الجيشِ المملوكيّ متفرّقةٌ عقبَ الهزيمةِ في "مرج دابق" وأنَّ إعادَةَ لملَمَةِ شملِهم إنّما هي احتمالٌ ضعيفٌ جدًّا، فوثقَ السلطانُ بهذهِ المعلومات الاستخباراتيّة التي

تلقّاها، وأيقنَ بسهولةِ إلحاقِ هزيمةٍ ثانيةٍ بالقوّاتِ المصريّة، فأصرَّ على قرارِ السيرِ نحو القاهرة للقضاء على المماليك واستئصالِ شأفَتِهم تمامًا.

وتسارَعَت وتيرةُ الإعدادات، فاشترى العثمانيّون ألفي جملٍ وحمّلوا عليها خزائنهم، وزيدَت قيمة العُلُوفَة الممنوحة لِلْجُنودِ لِرَفْعِ روحهم المعنويّة، وبدأ جنودُ المدفعية بصيانةِ المدافِعِ خارجَ الشامِ ومن ثم بدؤُوا في إطلاقِ القذائفِ التجريبيّة، وفي تلك الأثناء وصلَ رسولٌ من إسطنبول يُخبِرُ السلطانَ بأن الأسطولَ ينتَظِرُ أمرَ التحرُّكِ، وأنه جرى تجديدُ اتّفاقيّةِ السلام الموقَّعة مع "المَجَرِ"، وقد سُرَّ السلطان بهذه الأخبار أيَّما سرور.

وكان السلطانُ قد أصدرَ أوامرَ قبلَ ذلك إلى قائدِ الأسطولِ "جعفر بك" بشأنِ إعدادِ السُّفُنِ، وقد حاولَ إتمامَ الإعدادات اللازمةِ بسرعةٍ، غيرَ أنَّهُ لمَّا مرَّ فصلُ الشتاءِ بهذه القسوةِ المناخيّة الغريبة؛ لم يستطعْ الأسطولُ أن يَتَحَرَّكَ في ميعادِهِ، وعقبَ إتمامِ التجهيزات؛ تحرَّكَ الأسطولُ -وهو مكوَّنٌ من مائة وستِّ قطعٍ بحريّة- من إسطنبول يوم السادس والعشرين من مارس/آذار.

وكان السلطان سليم ينتظرُ الدعمَ البحريَّ عندما وصلَ إلى مشارفِ غزّة، لكن عقبَ وصولِ الأخبارِ من إسطنبول بثلاثةِ أيّام تحرَّكَ السلطانُ من الشامِ إلى غزّة، ولم يكن هناك أيُّ شيءٍ إلا ويسيرُ كما خُطِّطَ له، وما كانَ يقْلِقُ السلطان سليم هو "الشاه إسماعيل"؛ بخلاف المجريّين الذين اطمأن السلطانُ بخبَرِ تجديدِ اتفاقيّة السلامِ معهم، فاستقصى السلطانُ الأخبارَ عن الشاه؛ غيرَ أن الأنباء التي كانت تَرِدُ إلى السلطان أظهرت أن الشاه لم يكن يُشَكِّلُ حتى ذلك الوقتِ خطرًا على الدولة العثمانيّة.

وعقبَ أربعةِ أيّامٍ من تحرُّكِ السلطان من الشام؛ أرسلَ خطابَهُ الذي تحدَّثْنا عنه آنفًا، كما أُرسلت الخطابات التي كتبها "خاير بك" والوزراءُ العثمانيّون إلى "جانبردي" وسائر أمراء المماليك الآخرين.

وعندما وصلَ خطابُ السلطان سليم إلى "طومان باي" شعرَ بالراحةِ، وقَبِلَ بالاعترافِ بالإدراةِ العثمانيّة في كلِّ مكانٍ وأن تُمْنَحَ له إدارةُ مصر.

وما إن سَمِعَ الأميرُ "علّان" -أحدُ الأُمَراءِ المماليك- بهذه التطوُّراتِ حتى هرعَ إلى قصر "طومان باي"، ولمّا رأى الرسلَ العثمانيّين الثلاثةَ في القصرِ أَمَرَ بِقَتْلِهم في الحال، واقتربَ غاضبًا من السلطان "طومان باي"، وسألَهُ عمّا إذا كان قد قَبِلَ طلباتِ السلطان العثماني أم لا، فأجابه "طومان باي" فيما معناه:

> "لا أُريدُ أن أكونَ سببًا في إراقةِ دماءِ المسلمين، وأرغبُ في أن يبقى كلُّ شخصٍ في بَلَدِهِ، ولو لم نفعلْ ذلك فسنُواجِهُ خطرًا كبيرًا، فالقادة والأمراءُ في جيشِنا يتنافسون فيما بينهم ولا يَثِقُ أحدُهم بالآخَرِ، فأرجو ألّا تُهدَمَ دولةُ المماليكِ، ولهذا سَأُوافِقُ على عرضِ العثمانيّين وأحقن الدماء وأحافظُ على بقاء الدولة".

وحاول الأمير "علّان" إقناعَ "طومان باي"، فقال له:

> "لقد حارَبْتُ العثمانيّين في "مرج دابق"، وعَرَفْتُهُم جيّدًا، فهم لا يُجيدُون ركوبَ الجياد ولا استخدامَ الأسلحةِ كما يُتْقنهما الجنود المماليك، رأيتُ ذلك بعينَيَّ هاتين، لا يعرفونَ شيئًا في القتال سوى استخدام المدافعِ والبنادِقِ، ولديهم جنودٌ مشاةٌ يستخدمون الأسلحةَ الناريّة، ولا يعرفون شيئًا عن فنون القتال، فنستطيع أن نهجمَ على جنودِهم المشاة بِفُرْسانِنا مرَّةً واحدةً ونسحقهم تحتَ أرجلِ أحصِنَتِنا، ونكسبَ الحربَ عن طريق أسرِ سلطانهم".

واستطاع الأمير "علّان" بعد محاولات طويلةٍ ومتكرّرة إقناعَ "طومان باي" والأمراءَ الذين كانوا لا يُحبّذونَ قتالَ العثمانيّين، ولطالما كان التاريخُ مليئًا بالحكام والسلاطين الذين لم يُطَبِّقُوا أفكارَهم ولم يستطيعوا مقاومةَ إصرار إهلاكِ حاشيتهم لهم، ما أفضى إلى ارتكاب أخطاء كبيرة ودفعِ أثمان باهظة، وقد جعلَ السلطان "طومان باي" من نفسِهِ واحدًا من هؤلاء الحكّام الذين وجَّهَهم بعضُ مستشاريهم إلى طريقٍ خاطئٍ ينتهي بالهلاكِ المحقَّق، فالسلطان المملوكيُّ الحديثُ ارتضى أن يدخلَ في قتالٍ ضدَّ العثمانيين.

obeikandl.com

الحربُ في "غزة"

عانى "طومان باي" أثناء إعدادِ الجيشِ، وقد اعتبرَ الأُمراءُ الأموالَ الممنوحةَ لهم قليلةً جدًّا، فقال لهم السلطان طومان باي "إنه لم يبقَ قرشٌ واحدٌ في خزينةِ الدولة"، وطلب منهم أن يقاتلوا هم وأفراد عائلاتهم، ولو فعلوا ذلك لفعلَ هو الآخرُ مثلهم، وإن لم يفعلوا فلن يذهبَ هو الآخر مثلَهم، ثم نجح في جمعِ الجنود، وعندما رأى الأمراءَ راغبين في القتال؛ أرسلَ إلى غزّة قوّاتٍ عسكريّة تضمُّ عددًا كبيرًا من الأمراءِ المماليك ويقودُها "جانبردي الغزالي".

وأما غرضُ القوّات المملوكيّة المتوجّهة إلى غزة بقيادة "جانبدري"

مشهد للقدس الشريف من جبل الزيتون *(David Roberts)*

obeikandl.com

فكانَ قطعَ الطريقِ على الجيشِ العثمانيّ والحيلولةَ دونَ عثورِهِ على مؤنٍ وسدَّ طريقِهم إلى القاهرة وعرقلَتَه ما أمكن.

لقد استطاعت القوّات العثمانيّة التي يقودُها الصدر الأعظم "سنان باشا" أن تُلْحِقَ هزيمةً بقوّات "جانبردي الغزالي" في معركة "غزة"؛ إذ خَسِرَ القائدُ المملوكيُّ ثلثَ قوَّاتِهِ في جحيمِ هذه المعركة الطاحِنة.

وأفضَتْ هزيمةُ القوّات المملوكيّة في معركةِ غزّة إلى انكسارِ المقاومةِ المملوكيّة وانخفاضِ روحِهم المعنويّة، فيما رَفَعَتْ من الروحِ المعنويّة لدى العثمانيّين الذين لم يعدْ أمامهم في طريق الوصول إلى القاهرة سوى عدوّ واحد، ألا وهو الطريقُ الصحراويُّ الطويل، كان العثمانيّون على درايةٍ جيّدةٍ بأن مشكلةَ نقص المياه التي سيتسبَّبُ بها السيرُ في الصحراء يمكن أن تتحوَّلَ إلى خطرٍ كبيرٍ لِقُوَّاتِهِم.

سُرَّ السلطان سليم أيَّما سرورٍ بالانتصار في معركة "غزّة"، وكان هذا النصرُ بشرى لأنه دخلَ في طريقٍ لا تنفعُ معه العودةُ، وفي الوقتِ الذي كان يتقدَّمُ فيه نحوَ "غزة" وهو لا يحمل أيَّ قلقٍ عسكريّ؛ كان يُخَطِّطُ لِزيارةِ الأماكن المقدَّسَةِ في القدس الشريف.

السلطان سليم في القدس الشريف

عندما أعرب السلطان سليم عن رغبته في زيارة القدس؛ أَخْبَرَهُ بعضُ رجالِ الدولةِ بأنَّهُ من المناسبِ إجراءُ هذه الزيارةِ بعدَ الانتهاءِ من الغزوةِ لأنه من غير الممكنِ اتِّخاذُ التدابيرِ الأمنية اللازمة، وعقب ذلك روى "إدريس بِدْلِيسِي" -الذي شجَّعَ السلطانَ على هذه الزيارةِ- الحديثَ النبويّ الذي يقول فيه رسول الله ﷺ : "لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"(١٥)، وأخبرَهُ بأن هذه الأراضي المقدسة كانت لنبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام، ومن بعدهما للأنبياء ثم لنبينا محمد ﷺ، ثم لخلفائه من بعده، وأوضحَ له أن السلاطينَ الأقوياءَ هم خُلَفاءُ الرسولِ محمّد ﷺ وسائر الأنبياء الآخرين، ولهذا لن يكون مناسبًا أن يمرَّ بالأراضي المقدّسة دون أن يزورَها بعد أن أولى إليها الأنبياء اهتمامَهم، وأفادَ بأن تعظيمَ الأنبياءِ واحترامَهم يليقُ بالسلاطين العظماءِ، ولما وصلَ نبأُ انتصارِ جيشِهِ في معركةِ غزَّة؛ قَرَّرَ زيارةَ القُدْسِ، ووصل إلى المدينة وقت العصر يرافقه خمسُمائةٍ جنديٍّ من جنودِ المشاةِ المُسَلَّحين بالبنادق وألفُ فارسٍ.

لقد أمرَ السلطانُ بنصبِ خيمتِهِ خارجَ المدينةِ كما هي عادتُهُ في كلِّ مدينةٍ جديدةٍ يدخلها، استراحَ السلطانُ هناك لفترةٍ، ثم أرسلَ خبرًا إلى الموظَّفين في المسجدِ الأقصى وأخبَرَهُم بأنه سيأتي لصلاةِ المغربِ في المسجدِ.

---

(١٥) صحيح مسلم، الحجّ، ٩٥.

ولقد تناوَلَ المؤرِّخُ التركيُّ المعاصرُ "فريدون أمجان" زيارةَ السلطان سليم إلى القدس من خلالِ المصادِرِ التاريخيّة المدوَّنة في تلك الحِقبةِ، وينقلُ لنا هذه الزيارَةَ في أحدِ أعمالِهِ على النحوِ التالي:

"ثمّ دخلَ السلطانُ المدينةَ على ظهرِ حصانِهِ ووصلَ إلى قبَّةِ الصخرةِ، ثمَّ نَزَلَ عن الجوادِ لِزيارةِ المسجد، وسار خمسًا وخمسين خطوةً فوصَلَ إلى السلالِم، وصعد إلى الأعلى في خمس عشرة خطوةً، ثم وصل إلى أمام باب المسجد في ستّين خطوة، وبعد ذلك نزل ثلاثَ عشرةَ درجة وصلّى ركعتين لصلاةِ الحاجة.

ثم خرج، ووزَّعَ العطايا السخيَّةَ على العاملين هناك، وبعدها مشى ونزلَ عن كنبةِ الصخرة، ثم عبر باحته وحرمَهُ في مائةٍ وخمسين خطوة، ووصل إلى المسجد الأقصى، فاستقبلَهُ العاملون هناك وهم يحملون الشموع، ودَخَلَ السلطانُ المسجدَ وألقى نظرةً أوَّلِيّةً على جوانِبِهِ، وكان المسجدُ مضيئًا كأنّهُ في وَضَحِ النهارِ بفضل اثني عشر ألف قنديلٍ مُضاءٍ.

وسار السلطانُ ووصلَ أمام المحراب في خمسٍ وثمانين خطوة، وصلى صلاةَ المغرِبِ في جماعةٍ، وبعد أن انتَهَتْ الصلاةُ زارَ الأعمدةَ العملاقةَ الموجودةَ بين جانِبَيْ المحراب، ووقف هناك مليًّا، ثم امْتَثَلَ أمامَ المحراب، وصلّى ركعتين للحاجة، وانشغلَ بـ"الذكرِ والتلاوةِ"، ودعا بأدعية كثيرة، ثمّ صلى العشاء كذلك في المسجدِ لِدُخولِ وقتِها، ووزَّعَ الكثيرَ من العطايا كذلك على العاملين بالمسجِدِ، وبعد أن خرجَ من المسجِدِ امتطى جوادَهُ، وأشعلَ مرافقوه الفوانيسَ والمشاعل، وباتَ السلطانُ تلك الليلةَ في خيمتِهِ المنصوبةِ خارجَ المدينة، وأَمَرَ في صبيحةِ اليوم التالي بِذَبْحِ الأضاحي وتوزيعِ لحومِها على فُقَراءِ المدينةِ.

وامتطى حصانَهُ وزارَ هذه المرَّةَ مَسْجِدَ قبَّةِ الصخرةِ في وضَحِ

النهـار، كمـا صلـى ركعتين للحاجة في المسـجد الأقصـى، وبعد أن خرجَ منه طافَ بالأماكن الأثريّة في القُدْسِ، ويروي "إدريس بِدْلِيسِي" أن السـلطانَ زارَ هناك أضرحةَ أنبياءِ الله إسـحاقَ ويعقوبَ ويوسـفَ ﷺ وبعضَ المقامات الأخرى، وقرأ ما تيسّر من آيات القرآن الكريم عنـدَ كلِّ ضريـحٍ، كمـا كلَّفَ "أصفهاني محمد أفنـدي" بقراءَةِ القرآن الكريـم عنـد كلِّ ضريحٍ، ثم وزَّعَ الكثيرَ من الصَّدقات والعطايا على أهل القدس دون التفريقِ بين أديانِهِم وانتماءاتِهم الفكريّة".

القدس الشريف

obeikandl.com

السلطان سليم الأول بريشة (*Levni*)

من القدس إلى القاهرة

كان خروجُ الجيشِ العثمانيّ لغزوةِ مصرَ في الشتاءِ رحمةً كبيرةً بالنسبة لهم، فبينما كانَ السلطانُ في الشامِ هطلتْ الثلوجُ، وكان كلّما تقدَّمَ الجيشُ نحوَ القدسِ تهاطَلَ المطر أكثر فأكثر، ولم يعانِ الجيشُ أيَّ مشكلةٍ في توفيرِ المياهِ كما كان يعتقدُ ويخشى.

وفسَّرَ السلطانُ هطولَ الأمطارِ أثناءَ سيرِهم على أنه إشارةٌ إلهيّة، غيرَ أنَّه ما زالَ بينَ الباشاوات مَن كان يعارِضُ الخروجَ في هذهِ الغزوةِ، وكانوا لا يرغبون في التقدُّمِ إلى أبعد من "غزّة".

وفي الأوّلِ من يناير/كانون الثاني (١٥١٧م) وصلَ السلطانُ إلى "غزّة"، والتقى الصدرَ الأعظمَ "سنان باشا" بالمدينةِ، وزارَ ضريحَ خليل الرحمن، ثم أكملَ في "غزّة" التجهيزات النهائية لحملة مصر، ثم أرسلَ السلطانُ "سنان باشا" و"خاير بك" ربيئة لهم حتى يؤمّنوا الطرق، وقد غضبَ السلطان كثيرًا على "حسين باشا" الذي استغلَّ أحدَ الاجتماعات وصارَ يُروّجُ لِفكرة العودةِ بحجَّةِ صعوبةِ الطريقِ وقلّةِ الجنود.

وكان "حسين باشا" يحكي دائمًا عن مشقّة الغزوةِ ويُطالِبُ بإنهائِها والعودة.

لقد كان السلطان مُدْرِكًا أن أفكارَ الباشاواتِ بدأت تنتشِرُ وتَجِدُ من يصغي لها بين الجنود، وكان يخشى أن تتسبَّبَ في انتشارِ الفِتْنَةِ بين صفوفِ الجيشِ.

وعاقَبَ السلطان سليم "حسين باشا" بأقسى العقوبات لِيكونَ عبرةً لِمَنْ يُفكِّرون في العودةِ بعد اتِّخاذِ قرارِ الخروج في الغزوة، فلمْ يتجرَّأْ أحدٌ بالحديثِ عن هذا الأمر بعد ذلك.

لقد ربطَ السلطان العبورَ من صحراء "قاطية/سيناء" بمخطَّطٍ محدَّدٍ، فأَرْسَلَ أوّلًا مرشدين على الطريقِ الممتَدِّ حتى القاهرة لِيُحَدِّدوا أماكنَ النزولِ والإقامةِ على طولِ الطريق، وكان من المُفْتَرَضِ أن ينزلَ الجيشُ بثمانِي نقاط في صحراء "قاطية/سيناء" من "غزّة" إلى الصالحيّة.

وغادرَ السلطان سليم "غزة" يوم التاسعِ من يناير/كانون الأول، ووصلَ "العريش" بعد ذلك بِيَوْمَيْن، وبينما كان الجيشُ العثمانيّ يعبرُ القسمَ الأصعبَ من الصحراءِ كانت الأمطارُ الهاطلةُ تروي عطشَ الجنودِ وتُسَهِّلُ سيرَهم لأنها تجعلُ الرمالَ أكثر صلابة.

مرَّ الجيشُ العثمانيُّ بمشكلةٍ في نقصِ المياهِ عقبَ اجتيازِهِ مدينةَ "العريشِ"، لكنّه لم يواجِهْ مصاعبَ كبيرة، ولم تحدثْ معضلةٌ سوى غَرْزِ أرْجُلِ عرباتِ المدافِعِ بالرَّمْلِ، وقد حلَّ الجيشُ هذه المشكلةَ عن طريقِ جرِّ المزيدِ من الدوابِّ للعربات.

واستطاعَ الجيشُ العثمانيُّ أن يتخطَّى أصعبَ وأقسى أجزاءِ الطريقِ بسهولةٍ وانسيابيّة أكثر من المتوقّع، ويُروى أنَّ السلطانَ سليمًا نزلَ عن جوادِهِ وسار على قدميه، ففعل مثله من رآه من الجنود، ثم امتطى جواده من جديد، فَسُئِلَ عن هذا فقال:

> "عندما يسيرُ الرسول ﷺ أمامنا فكيفَ يطيبُ لنا أن نمتطيَ الجوادَ من خلفِهِ، لا يليقُ بمقامِهِ إلا أن نترجَّلَ احترامًا له".

لقد أزعجَتْ هجماتُ البَدْوِ الجيشَ العثمانيَّ على طولِ الطريقِ، وكان الهدفُ من هذه الهجمات نهبَ الجيشِ وإكسابَ السلطان المملوكي "طومان باي" مزيدًا من الوقت، ومع كثرةِ هذه الهجمات بدأَ الجيشُ العثمانيُّ يملُّ ويتضجَّرُ منها؛ فأخذَها على محملِ الجدّ وأعدّ التجهيزات العسكرية في منزل "الخانكة"، ودَبَّرَ "سنان باشا" و"خاير بك" و"ذو القادرلي شهسوار أوغلو علي بك" و"رمضان أوغلو محمود بك" فخًّا للمهاجمين في الليل وفاجؤوهم، وعَقِبَ إحاطةِ البدوِ بالبئرِ الموجودةِ في المنزلِ الذي نزلَ به الجنودُ في اليوم التالي ومحاولتِهم عدمَ السماح للجنود بالتزوُّدِ بالمياه، لكن "سنان باشا" استطاعَ تفريقهم بإطلاق بضع قذائف مدفعية، غير أن هذه الأيام شَهِدَتْ تحرُّكاتٍ كبيرةً داخلَ الجيش.

ولاحَتْ في الأُفُقِ أشباهُ جنودٍ مماليك، فاتَّخَذَ الجيشُ العثمانيُّ وضعيَّةَ القتالِ، وامتطى السلطان سليم جوادَه على الفور، غير أنّه قد ظَهَرَ أنَّ هذا التحذيرَ لم يكن في محلِّهِ، وأن عددَ الجنودِ المماليك لا يستدعي الاستعدادَ لِلْحَرْبِ لأنّهم لن يُشَكِّلوا خطرًا على الجيشِ، وفي الواقع عندما رأى الجنودُ المماليك الجيشَ العثمانيَّ المنظَّمَ ابتعَدُوا على الفورِ.

وفي تلك الأثناء فُحِصَتْ وضعيّةُ الجيشِ، وحُدِّدَ في التقصّي أنَّ عددَ الجنود عشرون ألفًا، وكان هذا الرقم يعتبر رقمًا قليلًا لمعركةٍ ميدانيّةٍ، غير أنّ السلطان كان يَثِقُ بجنودِهِ وقادَتِهِ.

وكانت هناك معركةٌ استخباراتيّةٌ غيرُ ظاهرةٍ قد بَدَأَتْ تدورُ بين الجيشين منذُ توغُّلِ السلطانِ في الأراضي المملوكيّة، إذ كانت تجري بين جواسيسِ كِلا الجانِبَينِ، فكان جواسيسُ "طومان باي" يجلبون معلوماتٍ تخصُّ الجيشَ العثمانيّ، فدخلَ الجواسيسُ المماليكُ بين صفوفِ الجيشِ العثمانيِّ في زيِّ

باعـةٍ متجوّليـن، ونقلُـوا معلوماتٍ حـولَ عددِ الجنودِ العثمانيّين وأسـلحتهم إلى القاهرة، وكان السلطان "سليم" هو الآخر يستخدِمُ أسلوبًا مماثلًا، فكان يضـعُ الإسـتراتيجيّة التي سـيتبعُها في المعركةِ الوشـيكةِ بينه وبين المماليك وفقَ المعلومات الاستخباراتيّة التي كان يتلقَّاها.

السلطان سليم الأول

العثمانيّون ضدّ شراكسة "مصر"

في الوقتِ الذي كان فيه السلطان سليم يستعدُّ للحَرْبِ برفقةِ جيشِهِ البالغِ قوامه عشرون ألفَ جنديٍّ، كان "طومان باي" يستعدُّ بجنودِهِ الذين كان عددهم يُماثِلُ عددَ الجيشِ العثمانيّ؛ للهجومِ على القوات العثمانيّة في "الصالحية" التي تُعتَبَرُ نهايةَ الصحراءِ وبداية المدن المأهولة بالسكّان بالنسبة لِخَطِّ سيرِ العثمانيّين، وكان يُخَطِّطُ للهجومِ على الجيش العثمانيّ المُتْعَبِ فيلتَهِمَه من فوّهةِ الصحراءِ دون أن يرتاحَ أو يتنفَّسَ الصعداءَ من وعثاءِ السفرِ في الصحراء، وأما الأُمَراءُ فلم يكونوا على القناعةِ نفسِها التي كان يؤمِنُ بها "طومان باي"، إذ كانوا يَرَونَ أن الجيشَ العثمانيَّ معتادٌ على المعارِكِ الدفاعيّة، وأن هذا الهجوم لا فائدة منه، وكانوا يعتقِدون أنه يجبُ تشكيلُ خطٍّ دفاعيٍّ لأنفسهم وانتظار عدوِّهم لمفاجأَتِهِ بالخطوطِ الدفاعيّة والتحصيناتِ القويّة التي لن يستطيعَ اجتيازَها.

وعندما سمع "طومان باي" نبأَ وصولِ العثمانيّين إلى "الخانكة" التقى الأمراءَ وقرّرَ تشكيلَ جبهةٍ دفاعيّةٍ في "الريدانيّة" على مشارفِ القاهرة لِوَقْفِ تقدُّم الجيش العثماني؛ فحَفَرَ المماليكُ الخنادِقَ على طولِ المنطقة الممتدَّة من جبلِ المقطم إلى نهرِ النيل لِوَقْفِ الزحفِ العثماني، وقد استمرَّ تشكيلُ الخطِّ الدفاعيّ لِشهرين، وتمركَزَتْ المدافعُ والبنادقُ في القِلاعِ على طولِ الخطِّ الدفاعيّ، كما دُفِنَ مدفعٌ كبيرٌ تحتَ الرِّمال.

وحَصَلَتْ الدولة المملوكيّة على دعمٍ من الدول الأوروبيّة في توفير المدافع واستخدامِها، وكان من المُفْتَرَضِ أن يُطْلِقَ المدفعُ الكبير وسائرُ المدافع الأخرى والبنادقُ القذائفَ الأوَّليّة المفاجئةَ لِتفاجئَ الجيشَ العثمانيَّ

الذي سيجري استقبالُهُ بالمدافعِ ليفاجَأَ بذلك، ويهجم عليه الفرسانُ بسرعةِ البَرْقِ، فَيسقطَ من جاؤوا من الأناضول في الفخِّ الذي لا يَرْحَم ويُهزَموا في مكان لا يعرفون عنه أيَّ شيءٍ.

كان مُخَطَّطُ المماليك يظهرُ على الورق أنه يضمنُ لهم النصرَ المُؤَزَّر، لكنّ التاريخَ شهدَ على مرِّ العصورِ على أن المخطّطات المكتوبة على الورقةِ كانت في أحيان كثيرة مختلفةً عن الحقائق الميدانيّة على أرضِ الواقعِ... عقبَ ذلك بدأَ الجميعُ ينتظرُ بدءَ المعركةِ وإعلان ساعة الصفر.

وتسلَّمَتْ القيادةُ العثمانيّة معلوماتٍ استخباراتيّة تُفيدُ بأن "طومان باي" تشاوَرَ مع أمرائِهِ واتَّخَذَ قرارَ بناءِ خطٍّ دفاعيّ، كما وصلتها معلوماتٌ حول ماهيّة الخطوطِ الدفاعيّةِ وأنواع الأسلحة الناريّة المستخدَمَةِ في هذه الخطوط، وكان رجالُ "خاير بك" الذي كان أحدَ الأمراءِ المماليك ودخلَ في خدمةِ الدولةِ العثمانيّة يلبُّون احتياجاتِ الدولةِ العثمانيّة من المعلومات الاستخباراتيّة، وقد اتَّخَذَ السلطانُ توصياتِ "خاير بك" كأساسٍ في وضعِ خطَّةِ القتالِ؛ لأنه كان يعرفُ المنطقةَ جيّدًا، بل هو الأعلم بها على الإطلاقِ.

لقد غيَّر العثمانيون إستراتيجيّتهم في المعركةِ مرّة ثانية بحسب موقعِ العدوِّ، وبحسب هذا المخطَّطِ لم يكن الجيش سيهاجم الجبهة التي بها مدافع العدو، بل كانوا سيُطَوِّقونَ الجبلَ من الخلفِ في مواجهةِ المماليكِ الذين كانوا يُحاولونَ أن يُفاجِئوهم، وبهذا يلتفُّون حولَ المدافعِ لِيقوموا هم بالمفاجأة الأصليّة، وعندما وصلَ الجيشُ إلى "بركةِ الحاج" دارت اشتباكات قصيرة، ثم ظَهَرَتْ الوحداتُ الشركسيّة، فاستشارَ السلطان سليم وزراءَهُ قائلًا:

"فلنستَرِحْ لأن الوقت ضيّقٌ، فلو بدأْنا القتالَ مع العدوِّ فربما تطولُ الحربُ إلى المساء وحينها تكونُ النتيجةُ مختلفةً...".

وتقرَّرَ خلال الاجتماعِ بناءُ مقرٍّ للقيادةِ في المكانِ الموجود به الجيش، كما تقرَّرَ نقلُ أحمالِ الجيشِ إلى المؤخِّرةِ تحسُّبًا لوقوع أيّ هجومٍ مفاجئٍ.

وقضى الجيشُ الليلةَ مُتَوَتِّرًا، واستعدَّ للتحرُّكِ في صبيحةِ اليوم التالي، واتَّخَذَ استعدادات الحربِ الاعتياديّة، وكانت القوّات المركزيّة في القلب، وكان بجانبها الفرسانُ يتقدَّمون وهم يحمون قلبَ الجيشِ من كِلا الجانبين، وكان على الجناحين الأيمن والأيسر جنودُ "بني أفرانوس" و"ميخال" من أُمراءِ الحدودِ في الروميلي.

obeikandl.com

معركة الريدانية أمام القاهرة. (سليم نامه، *235a*)

معركة الريدانية

كانت وحداتُ الفرسانِ في الجيشِ المملوكيّ تُظْهِرُ نفسَها ظُهورًا خاطِفًا في محاولةٍ منها لِسَحْبِ العثمانيّين وجرّهم إليها؛ إذ إن جيشَ المماليكِ كان قد وضعَ مخطَّطًا لاستقبالِ عدوّهِ من الجبهةِ بطريقةٍ مباشرةٍ، وكان "طومان باي" يصطحبُ أميرين بجوارِهِ، ويُراقِبُ التحرُّكَ حسبَ هجومِ العثمانيّين ويشاهدُ الرايةَ الكبيرةَ التي كانت تظهرُ وتُرَفْرِفُ في مكانِ تواجُدِ السلطان سليم، وكان الجيشُ المملوكيُّ يتحيَّنُ الفرصة للهجومِ على مكانِ تواجُدِ الراية الكبرى من خلال الفرسانِ المخضرمين؛ رغبةً منه في ضرب الجيشِ مِنْ قلبِهِ.

ولم يكن المماليك على علم بكيفية الهجوم بالفرسان تزامنًا مع القصف المدفعي لأنهم لم يقوموا بذلك من قبلُ، وكان الفرسان يخافون من أن تضرّهم القذائف المدفعية وتُؤذيهم قَبل العثمانيّين، فلم يتَّخِذِ المماليك أيَّ تدابير عسكرية لمواجهة العثمانيين الذين جاؤوا من خلف الجبل لأن أحدًا لم يكن يضعُ هذا في حسبانِهِ.

وبدأَ الجيشُ العثمانيُّ يزحفُ بِثَباتٍ في نظامٍ عسكريٍّ غايةٍ في الاتّزان، وبينما كان الجنودُ في طريقِهم نحوَ المدافِعِ المملوكيّة اتَّجهوا نحو الطرف الأيسرِ دون الدخولِ في مدى المدافِعِ، وساروا نحو جبلِ المقطَّمِ، وقد نفَّذَ السُّلطانُ هذا التكتيكَ في نفسِ الوقتِ الذي كان يُراوِغُ المماليكَ فيه باشتباكاتٍ أوَّليّة استمرَّتْ مع الوحداتِ الصغيرة التي تقدَّمَتْ إلى الأمام، ويُظْهِرُ هذا التكتيكُ نجاحَ شبكةِ الاستخباراتِ القويّة للسلطان سليم،

إذ إنَّ هـذه المنـاورة المفاجئة للعثمانيين قد قَلَبَتْ جميـعَ مخطَّطاتِ الحربِ المملوكيّـةِ رأسًـا علـى عَقِـبٍ؛ ولقَـد أُصيـبَ الجيـشُ المملوكـي بالهَلَـعِ، إذ حُيِّـدَت المدافِـعُ المملوكيّـة عـن المعركـةِ تمامًـا، وحـاول بعـضُ الجنـودِ المصريّين فكَّ المدافِـعِ التي ثُبِّتَت بالرِّمال واستخراجَها من مكانِها وتوجيهَها نحوَ العثمانيّين، لكن هذا لم يكن ممكِنًا على الإطلاقِ في مثلِ هذا الجوّ من الهَلَـعِ، فلقد اضطَرَبَت صفوفُ المماليك وتماوَجَت، واستخرجوا المدافِـعَ من الأماكِنِ التي تتواجد بها ووضعوها فوق العَرَبَاتِ وحوَّلوا وجهَتَها، ومن أجـلِ تحقيـقِ ذلـك؛ اضطرُّوا إلى الخروجِ من الخنـادقِ التي حفروها، وكانَ مـن المسـتحيلِ تحويـلُ وجهـةِ المدافِـعِ الثقيلـةِ المغـروزةِ في الرّمـالِ، ولم يستفد المماليك من هذه المدافـع التي أَخَذُوها من "فرسانِ رودس" وعقدوا عليها آمالًا عريضةً.

وخـرجَ أفـرادُ الجيشِ المملوكيّ من الخنادِقِ وأخـذوا المدافـع الخفيفةَ التـي نجحـوا فـي تحويلِهـا إلـى الخـطِّ الدِّفاعـيِّ الأول، وبينما هـم ينتظرونَ العـدوَّ أمطَرَهُـم العثمانيُّـون بوابلٍ من قذائِفِ المدافِـعِ الخفيفةِ التي جلبوها جـرًّا، وقـد قَصَفَـتْ المدافِـعُ العثمانيّة خطوطَ المماليـك الدفاعيّة في لحظةٍ واحدةٍ، ممّا دمَّرَ متاريسَ المماليك.

بـدأتَ طلقَـاتُ البنـادقِ تَنْطَلِـقُ هـذه المـرّة بينمـا كان الإنكشـاريّة الـذي يحملـونَ البنـادقَ نازليـن مـن الجبل، فلم يجـد المماليكُ فرصةً لاسـتجماعِ قواهم ولا لاسـتخدامِ المدافـعِ، وتروي المصادرُ التاريخيّةُ لتلك الحقبة أنَّ دخـانَ البارودِ -الخـارجَ من المدافِـعِ والبنادِقِ التي استخدَمها العثمانيّون- خيَّمَ على المدينة كالضَّبابِ غامقِ اللونِ، وبذلك انتهَت المرحلةُ الأولى من المعركة.

وأما في المرحلةِ الثانيةِ فقد بَدَأَتْ في صحراء "الريدانية" بتنظيمِ المماليك صفوفهم وبدءِ الجيشين في الهجومِ المتبادَلِ، وقبلَ أن يستطيعَ المماليك وضعَ القذائِفِ في المدافِعِ التي استطاعوا نقلَهَا إلى الميمَنَةِ بادَرَتْ قوّات الروميلي الموجودةُ في ميسرةِ الجيشِ العثمانيّ بالهجومِ، وفي تلك الأثناء هربَ أحد قاذِفي المدافِعِ المملوكيّة بعد أن أطلَقَ قذيفةً واحدةً سقطَتْ بين الجنود العثمانيين، وقد تعجَّبَ السلطانُ سليم من هذه القذيفةِ كثيرًا، فنظرَ إلى "خاير بك" الذي أخبرَ السلطان -بعد بحث قصير- بأن جميعَ المدافعِ الثقيلةِ مغروزةٌ في الرمالِ وأنه لا يُمكِنُ استخدامُها مشيرًا إلى أن هذه القذيفةَ الوحيدةَ هي "عمل مِدْفَعْجِي أصم".

لقد سيّر المماليكُ الجمالَ نحوَ صفوفِ العثمانيّين لتجنُّبِ قذائفِ المدافِعِ وطلقاتِ البنادقِ، ثم دَعَمُوا بِالْفِيَلَةِ هذا القطيعَ المكوَّنَ من ألفِ جملٍ مربوطةٍ ببعضِها البعضِ، وبادروا إلى الهجوم من خلالِ التَّخَفِّي وراءها، وقد ردَّ السلطان سليم على هذا الهجومِ بإصدارِ أوامرَ واضحة إلى الإنكشارية الذين كانوا أمامه بإطلاقِ النيران السريعة، وقد أصابَ الهلعُ هذه الحيواناتِ التي لم تسمعْ هذا القدرَ من أصواتِ الأسلحةِ الناريّةِ من ذي قَبْل، وفرَّتْ هاربةً مذهولة، وبدأت الجِمالُ والفِيَلَةُ العائدةُ إلى الخلفِ تَدْهَسُ الجنودَ المماليك، ممّا سهَّلَ استهداف العثمانيّين للمماليك بعدما أصبحوا منكشفين تمامًا أمام العثمانيين بعد هروب الجمال من ساحة المعركة.

وكان العثمانيّون هم أيضًا يستخدمون هذا التكتيك الذي طبَّقَهُ المماليك باتخاذِهِم حيواناتِهم متاريس، غير أن العثمانيين كانوا يلجؤون إلى هذه الطريقة في الدفاعِ لا الهجوم، وكانت إحدى الخصائص الأخرى للعثمانيّين هي التعويدُ المُسْبَقُ للحيوانات التي سيستَخْدِمُونها في مثلِ هذا

التكتيك على أصواتِ المدافِعِ والبنادِقِ، واستمرَّتْ المرحلةُ الثانيةُ من المعركةِ باشتباكاتٍ بين الفرسان على الأجنحة، فعقبَ الهجومِ الفاشلِ بالجمالِ استجمَعَ المماليك قواهم، وكان بينهم الفرسان السريعون ومعهم "جانبردي"، واتجهت نحو ميسرة الجيشِ العثماني، وهاجموا المشاة من الإنكشارية، وكان من الصعبِ أن يقاتلَ جنديُّ المشاةِ في منطقةٍ مفتوحةٍ فارسًا على ظهرِ الجواد وهو يحمل الرمح، وقد تسبَّبَ اقترابُ الفرسانِ المماليك في الحيلولةِ دون تمكُّنِ الجنودِ من ملءِ البنادِقِ وإعادةِ حشوِها بالبارود وإعدادها لإطلاق النار، فحَدَثَ ازدحامٌ واضطرابٌ بين الإنكشارية واضطرّوا للانسحابِ فورًا.

وعبرَ الفرسانُ المماليك تحت قيادة "الغزالي" الجنودَ المشاةَ العثمانيّين الذين يحملونَ البنادق ووصلوا إلى الصفِّ الذي يوجدُ به "سنان باشا" الذي أدركَ أن الوضعَ خطيرٌ، فسارَ بجوادِهِ إلى أكثرِ مناطقِ المعركةِ ناريّةً، وغاصَ بسرعةٍ في صفوفِ المماليك، وفي تلك الأثناءِ انفتَحَتْ ثغرةٌ واضحةٌ بين الجناحِ الأيمنِ والمركزِ، وكان يحتاج "سنان باشا" إلى قوّات تعزيزيّة، لكن هذه الدعمَ تأخَّرَ، وقد خاض الباشا المعركةَ بنفسِهِ، وأُصيبَ في العديدِ من أماكنِ جسدِهِ بالسِّهامِ والسيوفِ، كما استشهدَ الأمراءُ والقادةُ رفيعو المستوى الذين كانوا معه، وقد واصلَ الباشا كفاحَهُ حتى أصبحَ لا يقوى على الثَّباتِ فوق ظهرِ الحِصان، وعندما وصلَ إلى الحالةِ التي لا تُحتَمَلُ نُقِلَ إلى الخِيَامِ ليُطبَّبَ من إصاباتِه البالغة، وقد ظلَّ يُحَفِّزُ جنودَه من هناك لِفترةٍ، وبعدَ أن شَهِدَ صدَّ الهجومِ عادَ إلى مقرِّ القيادةِ لكنّه توفِّيَ بسببِ فقده الكثير من الدِّماءِ.

ورأى السلطانُ سليم تزعزُعَ الجناحِ الأيمنِ فأرسلَ إليه الفرسانَ والخيّالةَ، واستطاعَ الجيشُ بهذا الدعمِ صدَّ الهجوم، غير أنَّ الجميعَ أُصيب

"سنان باشا"

بحزنٍ كبيرٍ لِما حدثَ لِسنان باشا، فاستجمَعَ الجيشُ قواهُ وهجَمَ على الجناح الأيمنِ بسرعةٍ خاطفةٍ ليُخَفِّفَ الضغطَ عنه ولِيَصدَّ أشرسَ الهجمات الشركسيّة، وفعلًا حقَّقَ ذلك.

لقد حزن السلطان سليم كثيرًا لاستشهاد الصدر الأعظم الذي كان يُحِبُّهُ، وقد تحدَّثَ عن سيطرَتِهِ على القاهرة التي اقترن اسمها في التاريخ الإسلامي بالنبي يوسف عليه السلام، كما أشار إلى "يوسف" الاسم الأول لسنان باشا قائلًا:

"حصَلْنا على عرشك يا مصرُ، لكنّنا فَقَدْنا "يوسف".

وكان "سنان باشا" بوسنيّ الأصل، وقد ارتقى في مدارِجِ الرُّتَبِ داخلَ القصر العثماني إلى الرجلِ الثاني في الدولة؛ أي الصدر الأعظم، وكان شخصيَّةً مجتهِدَةً وشُجاعةً وصادقةً ومُخْلِصَةً جدًّا، وفي الوقت الذي حصل فيه الكثير من الوزراء ورجال الدولة والقادة في الدولة العثمانية على نصيبهم من حِدَّةِ السلطان سليم الذي كان أقسى السلاطين العثمانيّين؛ لم يحصلْ سنان باشا على ذلك قط، وقد حزنَ السلطانُ عدَّةَ أيّام حزنًا شديدًا على فراق الصدر الأعظمِ الذي كان يُحبُّهُ كثيرًا، ولهذا السبب لم يُعيّنْ أحدًا مكانه عندما ماتَ إلا بعدَ ستة عشر يومًا، ثم عيَّن الوزير "يونس باشا" مكانه.

لقد ألقت هذه الواقعة بظلالها على انتصار الريدانية، حتى إن السلطان ارتدى في اليوم التالي ثيابًا سوداء، وشارك في المأتم، وقد دفن "سنان باشا" بعد الحرب في زاوية "الشيخ تيمورطاش"، وأمر السلطان سليم ببِناءِ ضريحٍ فوق قبره.

استمرَّتْ المعركةُ في الريدانية بفواصل بين سبع إلى ثمانِي ساعات، إذ إنّها بدأَتْ وانتَهَتْ يوم الخميس الموافق للثاني والعشرين من يناير/ كانون الثاني (١٥١٧م)، وتفرَّقَ على إثرِها الجيشُ المملوكي بالكامل، فهربَ الأمراءُ المماليك والسلطان "طومان باي" الذين استطاعوا أن يفرّوا بأنفسهم إلى مكانٍ قريبٍ من القاهرة، وبالرغم من انتهاء المعركة؛ فقد ظلَّ جنودُ الروميلي في حالةِ تيقُّظٍ على أظهرِ الجياد حتى مع حلول الليل، وذلك كإجراءٍ احترازيّ، كما أرسلَت القيادة العثمانية وحداتٍ استطلاعيّةً إلى المنطقة المحيطةِ بها، وقد دخلَ الجيشُ العثماني القاهرةَ بعد يومين، وفي تلك الأثناء انضمَّ بعضُ الأُمراءِ المماليكِ إلى صفوف العثمانيّين.

وكانت الريدانيّةُ معركةً فتحَتْ القاهرةَ ومصرَ أمام العثمانيين، وعرَّفَتْهم إلى قارَّةٍ جديدة، وكانت تلك المعركةُ معركةً عنيفةً جدًّا بين الجيشين المملوكيّ والعثماني اللذَين تقاتلا بقوّاتٍ أقلّ عددًا من تلك التي تقاتلوا بها في معركة "مرج دابق"؛ إلا أنَّ معركة الريدانية استمرَّت وقتًا أطول، ولم يتوقَّع السلطانُ سليم أن المماليكَ سيُقاوِمون قوَّاتِهِ إلى هذه الدرجة، وكانت معركتا "غزة" ثم "الريدانية" معركتين عنيفَتَين للغاية بالنسبة للجيشِ العثماني الذي قطعَ مسافةً شاسعةً قبل خوضِهما، كما أثبتَتْ معركةُ "الريدانيّة" نجاحَ جهازِ الاستخبارات العثمانيّ وقدرةَ الجيشِ على إجراءِ مناوراتٍ سريعةٍ وتعديلِ خُطَطِ المعاركِ بحسب المعلومات الاستخباراتيّة.

obeikandl.com

السلطان سليم الأول عند دخوله إلى القاهرة

السلطان سليم في القاهرة

نبّه السلطان سليم جنوده وشدَّدَ على عدمِ التعرُّضِ إطلاقًا للمدنيين الأبرياء أثناء ضبط الأمن في القاهرة وحتى أثناء الاشتباكات التي ستقَعُ مع المقاوِمين، وأمرَ السلطانُ بِنَشْرِ رسائل الأمان، وضمن لطالبي الأمن ألا تُمَسَّ أموالُهم وأعراضُهم بمكروهٍ ثم جاء بعض الأمراء المماليك وأعلنوا تبعيَّتَهم للدولة العثمانيّة، وبعد ذلك جاء محمد بن السلطان قنصوة الغوري والتقى السلطان سليم وأعلنَ تبعيَّتَهُ للدولة العثمانية، كما قدَّمَ بعضُ الموظَّفين رفيعي المستوى بالدولة المملوكيّةِ فروضَ الطاعةِ للسلطانِ، ليضمنُوا بذلك بقاءَهم في مناصِبِهم.

طلب السلطان سليم أن يضربوا له خيمةً خارج المدينة، ثمَّ تقدم تحت حماية عشرةِ آلافٍ من الإنكشارية، فزارَ الجوامعَ في القاهرة وطاف بِقَصْرِ الغوريّ.

وبينما كان يَطّوَّفُ بالقصرِ قُدِّمَت إليه مفاتيحُه حتى يقيم فيه، لكن السلطانَ سليم لم يقبَلْ هذا العرض، وآثر الإقامةَ في الخيمةِ بدلًا من القصر، وخرج من المدينة ووصلَ إلى خيمته المنصوبة على ضفافِ نهر النيل، وكما أسْلَفْنا فإنَّ السلطان سليم لم يُقِمْ في قصر "هشت بهشت" الرائع للشاه إسماعيل في "تَبْريز" قبل ذلك، بل استراحَ في خيمتِهِ، وكأن السلطان يُمرِّرُ رسالةً مفادُها أن السلطنةَ الأصلية لا تأتي عن طريق الإقامةِ في القصورِ الفاخرة بل بالتواضعِ، وإذا عَقَدْنا مقارنةً بين الفتراتِ التي قضاها السلاطينُ العثمانيُّون في القصورِ سواء في "أردنه" أو إسطنبول؛ فَسَنَجِدُ أن السلطان سليم كان من بين أقلِّ السلاطين الذين أقاموا في القصورِ.

شاهدَ السلطانُ جمالَ مدينة القاهرة وتاريخَها العريق بإعجابٍ وتأثّر كثيرًا بمظهرها وجوّها الشرقيّ، وعقبَ السيطرة على القاهرة طافَ المُنادون في أزقّةِ المدينة وهم يقولون "أمان السلطان ابن عثمان"؛ لِيُعْلِنُوا بذلك العفوَ عن الجميع، لِتَعُودَ حياةُ الناس إلى مجراها الطبيعيّ، وفي الوقت الذي كانت الأمورُ تبدو وكأنّها تسيرُ على ما يُرام في القاهرةِ كانت أولى المفاجآت التي قابَلها السلطانُ هي الاشتباكات التي وَقَعَتْ في شوارعِ المدينة، فالجيشُ العثمانيُّ الذي حقَّقَ انتصاراتٍ مهمّةً في "مرج دابق" و"غزة" و"الريدانيّة" اضطرّ للدخول في حرب رابعةٍ ضدَّ المماليك داخلَ أحياءِ القاهرة، فَبَقاءُ "طومان باي" على قيدِ الحياة أشعلَ فتيلَ المقاومةِ في القاهرة.

صورة تقريبية لـ"السلطان سليم الأول" وهو ذو لِحْية

لقد ذهب "طومان باي" ناحية الصعيدِ عقبَ المعركة، وأقام بجوارِ نهر النيل، وكان يُفكِّرُ في إعلانِ تبعيَّتِهِ للسلطان سليم، لكن أحد الأمراءِ عارضَ هذه الفكرة، وأقنَعَهُ بمقاومة القوّات العثمانيّة، فخطَّطَ "طومان باي" لشنِّ هجومٍ على قيادةِ الجيش العثمانيّ في القاهرة، وكان يأملُ في أن يدعمه أهل القاهرة والأمراء المماليك، وكانَ من المقرَّرِ أن يشنَّ "طومان باي" هجومًا مباشِرًا على خيمةِ السلطان سليم وقتَ المساء برفقة سبعةِ آلاف جنديّ، فاطَّلَعَت الاستخباراتُ العسكريّة العثمانيّة على الأمرِ، وزادت من تدابيرِها الأمنيّة في مقرِّ إقامة السلطان، ووسَّعَ الحرسُ الحدودَ الأمنيّة، وأشعلَ الجنودُ العثمانيّون النارَ وبدؤوا يُراقبون كل مكانٍ؛ المداخل والمخارج، كما فتحوا النارَ عشوائيًّا في الهواء لساعاتٍ من أجلِ إرهابِ أولئك الذين كانوا يُفكِّرون في الهجوم على مقرِّ قيادة الجيش وإيصالِ رسالةٍ مفادُها أنهم على علمٍ بهذا المخطَّطِ.

لم تصمت البنادقُ حتى ساعات الصباح الأولى، وقد رجَّحَ "طومان باي" أن يدخلَ القاهرةَ وقتَ صلاةِ العشاء، وكان يُفكِّرُ أنه سيكون من المناسِبِ التوجُّهُ إلى خيمةِ السلطان مع أهل المدينةِ بعد السيطرةِ عليها.

الجنود العثمانيين يرمون بالبندقية

عودة "طومان باي" إلى القاهرة

حظي "طومان باي" بِدَعْمِ بعض أهالي القاهرة حينما عادَ إليها؛ فأسَّسَ مقرًّا لِلقيادَةِ بالقرب من المدرسة الشيخونيّة، ولم يكن جميعُ الجنود العثمانيون يتواجدون في مكانٍ واحدٍ، بل كان بعضُهم يقيمُ في مجموعات من خمسة أو عشرة أفراد في بعض المنازل المهجورة، فشنَّ المماليكُ هجماتٍ على هذه المنازلِ وقتلوا الجنودَ العثمانيّين وهم نيام.

وعندما نَقَلَ بعضُ الأمراءِ المماليك معلوماتٍ اسخباراتيّةً للسلطان سليم في مقرِّ قيادَةِ جيشهِ بأن "طومان باي" يَسْتَعِدُّ لِشنِّ هجومٍ على خيمتِهِ؛ سألَهم عن سبب عودتِهِ بشكلٍ مفاجئٍ، وطلبَ منهم أن يُجيبوا عن سؤالِهِ بأريحيّةٍ تامّة، فأخبرَهُ الأمراءُ بأنَّ "طومان باي" كان على تواصُلٍ مع بعضِ سكَّانِ القاهرة.

لقد واصل الجنودُ المماليكُ الذين دخلوا المدينة عمليَّةَ قتلِ الجنودِ العثمانيّين -الذين ضبطوهم في المنازل-، وتروي المصادرُ التاريخيّة أن بعضَ الجنودِ العثمانيّين قُتلوا بالسيف وقُتِلَ البعضُ الآخَرُ بطُرُقِ تعذيبٍ متعددةٍ مثل تمريرِ الأسياخِ من أجسادِهم كالكبابِ المشويّ.

كما خطَّطَ رجال "طومان باي" للسيطرةِ على قلعةِ القاهرة أيضًا؛ إلا أن السلطان سليم كان قد تركَ حاميةً هناك إذ خمّن مسبقًا ما قد يَحدث لاحقًا، ولقد أغلقَ الجنودُ العثمانيُّون أبواب القلعةِ وبدؤوا يُقاوِمون المماليك، فيما دخل "طومان باي" الجامعَ الكبير (جامع السلطان حسن) وشكَّلَ خطًّا

دفاعيًّا حوله، وأمرَ بِنَصْبِ حواجز في الأحياء المحيطة به، وقد تخطَّى عددُ الجنودِ العثمانيّين الذين قُتلوا تلك الليلة الآلافَ.

لم يكن مقرُّ قيادةِ الجيش العثمانيّ على علمٍ بما يجري في المدينة تحتَ ستار الليل، وكانت القيادةُ هناك تواصِلُ اتّخاذَ التدابير اللازمة لمواجهة أيّ هجومٍ عاديٍّ محتَمَلٍ، وفي الصباح أدركوا أن السيطرةَ على القاهرةِ خَرَجَتْ من تحتِ أيديهم، وعلى الفورِ جمع السلطان سليم الديوانَ، وكلَّفَ "يونس باشا" وكبير الإنكشارية "إياس آغا" بإيجادِ حلٍّ لِما يحدثُ في القاهرة.

وسار "يونس باشا" بجنودِهِ إلى القاهرة، وكان المماليكُ قد استعادوا السيطرة على مداخلِ المدينة ومخارجِها ووضعوا الحواجز، وأمطرُوا العثمانيّين بوابلٍ من السِّهام، وعندما سقطَ عددٌ كبيرٌ من الجنود ما بين مُصابٍ أو قتيلٍ؛ سحبَ "يونس باشا" الجنودَ، وجعلَ العرباتِ المدفعيّة والجنودَ الحاملين للبنادِقِ الناريّة في المقدّمة وأمرهم بالهجوم على الحواجزِ، وقد استمرَّ سيلُ السِّهام من جانب المماليكِ، غير أن القوّات العثمانية استطاعت تدمير الحواجزِ بعد ساعةٍ واحدةٍ، ودخلَ الجنودُ العثمانيُّون القاهرة من جديد، وبدأَتْ هذه المرة معركة وجهًا لوجهٍ مع الجنود المماليك، واستمرَّت الاشتباكات وانْتَقَلَتْ من شارعٍ إلى شارعٍ، وقد شاركَ جزءٌ من أهلِ المدينةِ في المقاومةِ وبدؤُوا يُلقُونَ الحجارةَ والماءَ المغليَّ على الجنودِ العثمانيّين حتى إن بعضَ الأماكن تحوَّلَتْ إلى فيضان من الماء المغلي، وساق "يونس باشا" المماليكَ حتى جسر "قايتباي"، واضطرَّ "يونس باشا" للخروجِ من المدينة في المساء بعدما فقدَ الكثير من جنودِهِ بعدما أمطَرَهُم المماليك بوابلٍ من السهامِ عند الحاجزِ الموجودِ عند الجسرِ.

التقى يونس باشا بالسلطان "سليم" في مقرّ قيادة الجيشِ وأخبره بوجودِ مقاومةٍ عنيفةٍ في القاهرة، فطلب السلطان زيادةَ التدابيرِ الأمنيّة المُتَّخَذَةِ، فَوُضِعت المدافعُ عند رؤوسِ الطُّرُقِ في الليل وتمركزَ حاملو البنادِقِ والرُّماةُ، وفي تلك الأثناءِ وَزَّعَ العثمانيّون نشراتِ الأمان على سكَّان المدينة وطلبوا منهم عدمَ الانضمامِ إلى المقاومةِ.

وسار "يونس باشا" هذه المرَّة ويرافقه عددٌ أكبر من قوّات الإنكشاريّة، وعبر الجيشُ شوارعَ القاهرة برفقةِ فِرَقِ المهتر الموسيقيّة، ووصل حتى جسر "قايتباي" دون أن يَلْقَى أيَّ مقاومةٍ تُذكَر، وكان "طومان باي" قد كبّرَ حجمَ الحاجزِ الذي بناهُ هناك، وبدأَ العثمانيّون يُطلِقون قذائفَ المدافع والبنادق فَرَدَّ عليهم المماليك بوابلٍ من السِّهام، وبدأتْ الوحداتُ العثمانيّة في الاشتباك فوق الجسْرِ، وعبرت الحاجز من خلال اشتباكات دارت وجهًا لِوَجْهٍ... فانسحبَ "طومان باي" إلى الجامع الكبير، وعزَّزَ تلك المنطقةَ بقوَّاتِهِ، وأرسل "يونس باشا" خبرًا إلى السلطانِ سليم الذي دخلَ المدينةَ في ظلمةِ الليل، وقد تحرَّكَ الإنكشارية لحمايةِ السلطان، لكنَّهم واجهوا مقاومةً في الشوارعِ من جديد، إذ بدأَ سكَّانُ المدينةِ يُلقونَ من النوافِذِ الأسهم والحجارةَ والماءَ المغلي، فعاد السلطان إلى مقر قيادة الجيش مرَّةً أُخرى.

وفي اليوم التالي أي في الثلاثين من يناير/كانون الثاني عام (١٥١٧م) ارتدى السلطان سليم درعَه واستلَّ سيفَه ولَبِسَ لَأْمَةَ الحربِ وقاد الجيشَ بنفسِه، لم يدخل المدينةَ مباشرةً، بل طافَ حولَها أوّلًا، ومَرْكَزَ جنودَهُ على المعابرِ، ثم الْتَفَتَ إلى الأمراء وقال لهم "اليوم سنجعل أعداءنا يجثونَ على رُكَبِهم إن شاء الله"، ثم وصلَ إلى الجامع المملوكي الكبير، وأمر بترَجُّلِ فرسان "قَابِي قُولُو" -الذين كانوا يرافقونه على جيادِهم- وطلبَ منهم القتالَ إلى جانب الإنكشاريّة كجنودِ مشاة، وبدأت القوات العثمانية الهجومَ

والفرسانُ يحملونَ السهامَ والرماح ويتقدَّمهم حاملو البنادق، واستمرَّت الاشتباكاتُ لساعاتٍ وكانت تُشبِهُ المعاركَ من ناحية الشدة، وكان المثير في الأمر اشتراكُ بعضِ السكَّانِ المحلِّيين في المعركةِ عبرَ إلقاءِ الحجارة من منازلهم، وعندما فشلَ العثمانيّون في ضبطِ أمنِ المدينة واشتدَّتْ معاركُ قِتالِ الشوارعِ؛ ألقوا القبضَ على مَنْ دعموا المقاومةَ؛ وذلكَ عبرَ مهارة القفزِ بين المباني العالية، وعندما أدركَ "طومان باي" أن جهودَهُ لن تفيدَ؛ غيَّرَ ملابسَهُ وهربَ من المدينة، وركبَ سفينةً على شاطئ النيل وابتعدَ عن المدينة باتجاهِ الصعيد.

أُصيبَ "يونس باشا" بسهمٍ خلال الاشتباكات، لكنه واصلَ إدارة الهجوم، وعندما فقدَ العثمانيّون الكثيرَ من الجنود في حربِ الشوارعِ بالقاهرة قَتَلُوا المقاومين الذين ألقوا القبض عليهم، وقد غضب السلطان سليم كثيرًا عندما سمع بأن "طومان باي" نجح في الهروب.

لقد انتهَت المقاومة بحربٍ شارك بها السلطانُ الذي عادَ إلى خيمتِهِ وأمرَ بتفصيلِ رايتين إحداهُما بيضاء والأخرى حمراء، وكان هذا معناه أن أهلَ المدينة أصبحوا في مأمنٍ بعد الآن، كما نُشرت رسائلُ أمانٍ إلى الشعب عبرَ طُرُقٍ مختَلِفة.

كان الخليفةُ العبَّاسيُّ في القاهرةِ خلال اشتباكات القاهرة، وقد خَفَّفَ وجودُهُ بالمدينةِ حدَّةَ التوتُّرِ بين سكّان المدينة والعثمانيّين، وتشيرُ المصادر التاريخية في تلك الحقبة إلى أن العثمانيين أظهروا احترامًا كبيرًا لهذا الخليفة العبّاسيّ.

القبضُ على "طومان باي"

عندما هربَ "طومان باي" من القاهرة إلى الصعيدِ هاجمَ سُفُنَ المُؤَنِ واستولى عليها، الأمر الذي تَمَخَّضَ عنه مشاكل جمّة للعثمانيّين، وفي تلك الأثناءِ رَغِبَ السلطان سليم في الإعلان عن نهايةِ الدولةِ المملوكيّة بالطريق الدبلوماسيّة، فَبَعَثَ برسالةِ فتحٍ إلى "قاراجا أحمد باشا" في "حلب الشهباء" وأَخْبَرَهُ بالنصرِ وطلبَ منه إعلانَ ذلك، وبهذه الطريقةِ يكونُ السلطانُ قد بعثَ برسالةٍ إلى أولئك الذين يحملون أملَ وصولِ مساعداتٍ من المماليك في الشام وحلب، بل وقطعَ آمالهم تمامًا.

لقد حضر "يونس باشا" -بالرغمِ من إصابتِهِ- أوَّلَ اجتماعٍ للديوانِ عُقِدَ عقبَ الاشتباكات التي شَهِدَتْها القاهرة، وكلَّفَ السلطانُ في هذا الاجتماع بعضَ الشخصيّات بمهام جديدة، فاستشارَ الذين كانوا في الديوان بشأنِ رغبَتِهِ في تعيينِ "يونس باشا" في منصبِ الصدارةِ العظمى الذي ظلّ خاويًا بعد استشهادِ "سنان باشا"، وذلك بعد التضحيات الكبيرة التي قدّمها، لِيُعَيَّنَ فعلًا "يونس باشا" في المنصبِ بعدما أعربَ الحاضرون عن رضاهم، وقد اتَّخَذَ قرارًا باستحداثِ منصبٍ ووظيفةٍ جديدة في هذا الاجتماع، إذ تقرر تعيين أمراء يحملون اسم "الكاشف" في كلِّ مكانٍ.

طلب "جانبردي الغزالي" الأمانَ من العثمانيّين بعدما كان من أبرز الأمراءِ المماليك؛ إذ كان يقودُ القوّات المملوكيّة التي واجهت سنان باشا في معركة "غزة" ولقد انفصلَ عن "طومان باي" بعد معركة الريدانيّة، فأرسلت القيادةُ العثمانيّة رسالةَ أمانٍ له، واستقبله السلطان لِيُعْلِنَ ولاءَه، وقد استقبلَ السلطان هذا الأميرَ المملوكيّ الشهير بامتنانٍ، إذ إنّه قد أخبره من قبلُ بأنه

لو أعلنَ ولاءَهَ فَسَيُعامَلُ معاملةً حسنةً وسيؤخذ في خدمة الدولة العثمانية، ولم يُقَرَّبْ الرجالُ الذين كانوا برفقَتِهِ إلى خيمةِ السلطان كإجراءٍ أمنيٍّ، وقد مُنِحَ الغزالي وظيفةَ تولّي شؤونِ إمارةِ "صوفيا"، وسألَ السلطانُ الغزاليَّ بشأنِ وجهةِ نظرِهِ حولَ الاضطراباتِ في القاهرة، فأخبرَهُ بأن الفتنةَ لن تخمدَ إلا بجلوسِ السلطانِ على عرشِ مصرَ وحينَها سيطيعُهُ الجميعُ، وفعلًا فإنَّ السلطان أخذَ بكلامِ الغزالي على محمل الجدّ.

وقد تقرر خلال اجتماع الديوان التالي إرسال رسالةِ أمانٍ كذلك إلى "طومان باي" الذي كان قد أرسلَ مبعوثًا قبل ذلك بِغَرَضِ الصلح، وأخبرَ "طومان باي" السلطانَ سليم بأنه سيطيعُ أمرَه ويرسل الخراج ويقرأُ اسمَه في خطبة الجمعة إذا انسحبَ العثمانيون من مصر، وقد دعا "طومان باي"

"طومان باي"

في رسالَتِهِ العثمانيّين إلى حربٍ جديدةٍ إذا لم يقبلوا هذه الشروط، وقد ردَّ السلطانُ بنفسِهِ شخصيًّا على هذه الرسالة إذ كلَّف شخصًا بكتابةِ الخطابِ الذي أرسلَه إلى "طومان باي"، وفي الوقت الذي كان السلطانُ فيه ينتظِرُ وصولَ خبرٍ من "طومان باي"؛ أرسلَ أحكامًا ورسائلَ فتحٍ وأمانٍ إلى مكّة المكرمة والمدينة المنورة وينبع وجدّة.

لقد دخل السلطان سليم القاهرة في مسيرةٍ حاشدةٍ يوم الخامس عشر من فبراير/شباط (١٥١٧م)، وصعدَ إلى القلعةِ تُرافِقُهُ الفرق الموسيقية، وجلس في على العرشِ المعروفِ بأنه عرشُ النبيّ يوسف (عليه السلام) مراسم كاملة بشكلٍ رسميّ، وكانت هذه المراسم مؤشرًا على دخول مصر تحت السيطرة العثمانيّة بشكلٍ قطعيّ، ولم تشهد المدينةُ عقبَ تلك المراسم أيَّ مقاومةٍ جادّةٍ ضدَّ القوّات العثمانيّة، وكان الغزالي مُحِقًّا فيما قال، وقد اتَّخَذَتْ القوّات العثمانيّة تدابيرَ أمنيّة استثنائيّة بالمدينةِ في اليوم الذي أُقيمت فيه المراسم، وأُخْلِيَتْ المنازلُ القريبة من القلعةِ وتمركزَ بها جنودٌ عثمانيّون.

وأعادَ السلطانُ إلى القضاةِ المذهبيّين وظائفهم من جديد، وانتهجَ سياسةً لينةً إزاءَ ضمانِ تبعيَّةِ الشعب المصري للإدارة العثمانية بدلًا من فرضِ النظام القانوني العثمانيّ في القاهرة.

لقد كانت أكثرُ قضيّةٍ اهتمَّ بها السلطان بعد ذلك هي مسألة "طومان باي"، فأرسلَ رجالَ الدولة المهمين كرسلٍ إلى حاكم مصر السابق لِيُخْبِرُوهُ بأنه سيُعْفَى عنه، غير أن الأخبار التي وصلت السلطان أغضبَتْهُ لأنَّ "طومان باي" أَمَرَ بِقَتْلِ الرسلِ العثمانيّين، وعقبَ ذلك استجوبَ العثمانيُّون بعضَ الأمراءِ المماليكِ المأسورين وحاولوا الحصولَ منهم على معلوماتٍ

عن "طومان باي"، ويضمُّ أرشيفُ قصر "طُوبْ قَابِي" بإسطنبول حاليًا أوراقَ هذا الاستجواب الذي أظهرَ أن "طومان باي" يُخَطِّطُ لاغتيال السلطان سليم.

واتَّخَذَ السلطان سليم قرارَ الهجومِ على "طومان باي" من جديد بعدما قَتَلَ الرسلَ الذين أرسلهم إليه وأعدَّ مُخَطَّطًا لاغتيالِهِ، وكانت الأخبار الواردة تشير إلى أن "طومان باي" سيذهب إلى الشام والقدس، وحتى إنه سيتواصل مع "الشاه إسماعيل".

بدأ السلطان يُعِدُّ للغزوةِ، فأمهلَ الجنودَ يومين لِيَجْتَمِعُوا، وعقدَ اجتماعًا وأرسلَ أوّلًا جنودًا لِرَدْعِ القبائلِ العربيّة في الصحراء.

ثم أُرسلت قوّات استطلاعٍ عثمانيّة على متنِ سفنٍ لمهاجمةِ "طومان باي"، كما بدأَتْ القوّات الأخرى تتقدّم على طولِ ضِفَّتَي نهرِ النيلِ، وبينما كان جنود الروميلي قد عبروا مياهَ النيلِ إلى الضِّفَّةِ المقابِلَةِ وبدؤُوا يستريحون، هاجَمَهُم بعضُ البدوِ والعشائرِ الشركسيّة، فشعرَ الجنودُ العثمانيّون بالصدمةِ بدايةً، إلا أنهم سرعانَ ما استجمَعُوا قواهم وحوّلوا المعركةَ لِصالِحِهِم.

obeikandl.com

حوارُ السلطان "سليم الأول" و"طومان باي"

كلَّفَ السلطان سليم رجالَهُ باقتفاءِ أثرِ "طومان باي" مدينةً بعد مدينةٍ، وزُقاقًا إثرَ زُقاق، وفي النهايةِ تلقى السلطانُ في خيمتِهِ نبأَ القبضِ على "طومان باي"؛ إذ أَلْقَتْ القوّات العثمانيّة القبضَ عليه حيًّا عند شاطئ إحدى البحيرات، فنُقِلَ إلى خيمةِ السلطان، ولقيَ الاحترامَ ومُنِحَ خيمةً، وأخَذَ قسطًا من الراحةِ، ثم تحدَّثَ السلطانُ سليم معه طويلًا، ونُورِدُ هذا الحديث الذي رَوَتْهُ المصادرُ التاريخيّة:

السلطان سليم:

"كم أرسلنا رسلًا إليكم حتى لا تُراقَ دماءُ المسلمين، وطلَبنا منكم فقط قراءة الخطبة وضرب العملة باسمنا، لكنكم قتلتم الرسل، وها هي النتيجة"!

فرد عليه طومان باي بقوله:

"لقد راعيتُ الرسلَ الذين أرسلتموهم من الشام، لكن الأمير "علّان" هو الذي قَتَلَهم، كما أنني لستُ مسؤولًا عن قتلِ الرسل الآخرين، ولو لم يكن قد قُدِّر لدولَتِنا الزوالُ ولو لم يكن قد قُدِّرَ لِسعادَتِكم مستقبلٌ في هذه الأرض لما كان حدث ما حدث، وإذا انتقلنا للحديث عن مسألتَي قراءةِ الخطبة وضربِ العملة فمعروفٌ أنّني قبلتُ ذلك، والحربُ التي خضناها كانت بموجبِ مهام السلطنة التي أُسنِدَت إليَّ عنوةً عقبَ موت السلطان الغوري، ولكن كيف تُبرّرون هجومَكم بالمدافِعِ والبنادِقِ على دولةٍ إسلاميّةٍ تخدم الحرمين الشريفين دون أن يكون لها أيّ ذنبٍ؟".

سكت السلطان سليم مليًّا، ثم أجابه:

obeikandl.com

"لقد هاجمتُ دولَتَكم استنادًا إلى الفتاوى التي أصدَرَها العلماءُ، ذلك أنه في الوقت الذي رغِبْنَا فيه بالهجوم على "قِزْلْبَاشْ" في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ الله، حَرَّضَ "السلطان الغوري" قبيلة بني "ذي القادر" ضدَّنا، ولم يكتفِ بذلك بل تحالفَ مع "قِزْلْبَاشْ"، ووصل إلى "حلب"، وحاولَ أن يحولَ بيننَا وبينَ الخروجِ في هذه الغزوةِ، كما قَصَدَ الإغارةَ على الأراضي التي انْتَقَلَتْ إلينا من أجدادِنا، ولهذا وجبَ معاقَبَتُهُ وإيقافُه عند حدِّه، وفي الواقعِ فإنَّ الشراكِسَةَ لا تليقُ بهم السلطةُ للعديدِ من الأسبابِ".

اعتبر "طومان باي" هذه الكلماتِ مُحِقَّةً، وأشار إلى الأَميرَين المَمْلُوكِيَّين السابقين اللَّذَين كانا موجودَين هناك "خاير بك" و"الغزالي"، وقال:

"يا أيها السلطان العثماني، أنت مُحِقٌّ في هذا، لكنّكم تحرَّكْتم بغواية هؤلاء الشياطين، فلو كان عندهم ذرّةٌ من الخير لكانت قد ذَهَبَتْ إلى بني جِلدتهم وأولياءِ نِعْمَتِهِم".

[المثيرُ في الأمر أن "طومان باي" كان مُحِقًّا فيما قال؛ إذ سيتسَبَّبُ الغزاليُّ في اندلاعِ ثورةٍ كبيرةٍ في عهد السلطان سليمان القانوني وسيكونُ عِبئًا على الدولة العثمانيّة].

فالتفتَ السلطانُ إلى الحاضرين في المجلِسِ وقال:

"لا يمكن التعدي على رجلٍ يمتلِكُ شجاعةً وجسارةً كهذه، فلا تقصِّروا في احترامه".

أعلنَ العثمانيُّون القبضَ على "طومان باي" في القاهرة، وفي تلك الأثناء كانت المدينة تشهدُ ظهورَ ثوراتٍ هنا وهناك، فبادرَ العثمانيّون إلى شنِّ العديدِ من العمليّات العسكريّة والأمنية لِكَسْرِ شوكةِ المقاومة، فعادَ السلطانُ إلى القاهرةِ، وبدأَ يستريحُ، وشاهدَ عمليَّةَ صيدٍ مثيرةٍ جَرَتْ

في مياهِ النيلِ؛ إذ كان الصيَّادون يصطادون التماسيحَ، وذهب في اليوم التالي لزيارة الأهرامات، وأعرب عن تقديرِهِ لِتَصْمِيمِها المعماريّ الفريد، وأرادَ السلطانُ التزوُّدَ بمعلوماتٍ حولَ هذه المباني المثيرة للدَّهْشَةِ؛ إذ كان شغوفًا بِمعرفةِ من الذي بناها وكيف بناها، فطلبَ ممَّن كانوا معه أن يعثروا على مَن يُحيطُ عِلمًا بتفاصيلِ هذا الأمر، ففشِلوا في إيجادِ خبيرٍ في هذا الأمر، فظلُّوا يبحثون حتى أَتَوا بشخصٍ عجوزٍ يُقالُ خبيرٌ بهذا الأمر، فبدأ هذا الشخص يشرحُ الأساطيرَ بشأن الأهرامات، وقال لا أحد يعرف من بناها؛ إذ لم يصلْ أحدٌ إلى سِرِّها حتى اليوم، وحصلَ السلطان سليم من ذلك الرجل على معلوماتٍ بشأنِ تاريخِ القاهرة.

لقد عقدَ السلطان اجتماعًا للديوانِ في الأيامِ التاليةِ، وعيَّنَ أميرًا جديدًا على مصر، وكان السلطانُ منشغِلًا بماذا سيفعلُ بـ"طومان باي"؛ إذ كانَ يُقَدِّرُ ذكاءَهُ ومروءَتَهُ كثيرًا ولم يكن يرغبُ في إعدامِهِ، لكن الأمراءَ المماليك السابقين كان لهم رأيٌ مختلِفٌ تمامًا، وكان "خاير بك" و"الغزالي" يقولون دائمًا بضرورةِ إعدامِهِ، وأما السلطان فتردَّدَ في هذا الأمر، فشاورَ من حولَهُ كثيرًا حول هذا الأمر، وكان يُفَكِّرُ في استغلالِ إمكانيّات رجلِ دولةٍ ذي شخصيّة قويّة كـ"طومان باي" في خدمةِ دولتِهِ مثل "خاير بك" و"الغزالي"، ولقد عامَلَهُ بطريقةٍ حسنةٍ جدًّا، وأخبَرَهُ بأنه سيدخُلُ في خدمةِ دولتِهِ إذا قدَّمَ اعتذارَهُ وأعلنَ تبعيَّتَهُ للدولةِ العثمانية، وأمهَلَه أيامًا، غير أن "طومان باي" كان يقولُ لِمَنْ حوله إنَّ الحظَّ لم يُحالِفْهُ عندما أُلْقِيَ القبضُ عليه؛ إذ إنّه أصبحَ على مقربةٍ من النصرِ المؤزَّر في نجاحِ مقاومتِهِ ضد العثمانيّين... وأخَذَتْهُ العزَّةُ فأبى أن يُقدِّمَ اعتذارًا للسلطانِ العثماني.

وعقبَ عدمِ اعتذارِ "طومان باي" من الدولة العثمانيّة وامتناعه عن الدخول في خِدْمَتِها، وبسببِ الاهتمامِ الكبيرِ الذي أظهَرَهُ الشعبُ المصريّ

وما فعلَهُ حكامهم المماليك قبل ذلك، وكنتيجةٍ لِلْعديدِ من المشاوراتِ، أُعْدِمَ "طومان باي" للحيولةِ دونَ وقوعِ فسادٍ بسببِ فتنٍ جديدةٍ تكون ضدّ الدين والدولةِ ومنع إراقة المزيد من الدماء، وأُعْلِنَ سببُ الإعدامِ على أنّه لزمَ تنفيذهُ شرعًا وعرفًا كقصاصٍ عادِلٍ بعدما تسبَّبَ "طومان باي" في نشوبِ فتنةٍ بين المسلمين وأمرَ بِقَتْلِ الرسلِ والقضاةِ الذين أُرْسِلوا له في المرَّتين.

obeikandl.com

السلطان سليم يواجه خطر الموت

لم يرغب السلطان سليم في الإقامةِ بالقاهرةِ، وفي تلك الأيام جاءَهُ أحدُ رجالِهِ الذين كان ينتظر قدومهم منذ فترةٍ طويلةٍ، وهو القبطان البحري "قُورْد أُوغْلُو مصلح الدين (*Kurdoğlu Musluhiddin*)"، الذي أرسله "أوروتش رئيس (*Oruç Reis*)" (ت: ٩٢٤هـ/١٥١٨م) المتواجدُ في الجزائر بأمرٍ من السلطان، لقد وَصَلَ بِسُفُنِهِ إلى القاهرةِ من النيلِ، فامتَنّ السلطان كثيرًا بمجيءِ "قورد أوغلو" الذي كان أحدَ أكبرِ البحّارةِ الأتراكِ، فاستقْبَلَهُ وحصلَ منه على معلوماتٍ بشأنِ أوضاعِ الأسطول، وبعد وصولِ الأسطولِ العثمانيّ كذلك أمرَ السلطانُ بنصبِ خيمتِهِ في جزيرةِ "الروضة"، كما استقرَّ الوُزراءُ والجنودُ على الساحِلِ المقابِلِ من الجزيرةِ، وقد استخدمَ السلطان سليم سفينةَ "قورد أوغلو" في الذهابِ والعودةِ من وإلى الجزيرة.

لقد تَعرَّضَ السلطانُ مرَّتين لِخَطَرِ الموتِ بينما كان في هذه الجزيرة؛ ففي أوّلِ مرة حاولَ "قنصوة العادلي" -أحدُ أمراء "طومان باي"- اغتيالَ السلطان، إذ وصلَ في منتصَفِ الليلِ إلى الجزيرةِ على متنِ قاربٍ مع بعضِ رجالِهِ، واقتربَ من مكانِ إقامةِ السلطان، لكن عندما لاحظَهُ الحُرَّاسُ قَفَزَ في النهرِ واستطاعَ النجاةَ بِنَفْسِهِ.

وأمّا تعرُّضُ السلطانِ للمَوتِ للمرَّةِ الثانيةِ فكانَ جرّاءَ حادثٍ صغير؛ عندما حاول الخروج والنزولَ مِنَ الزورقِ إلى المرفإِ انزَلَقَتْ إحدى قدميه بسبب ابتلالِ الأخشابِ، وسقَطَ في النيلِ، فسارعَ أحد المصريين الذين كانوا يجيدون السباحة إلى القفز في المياه وإنقاذه.

openkanal.com

لـم تستطـع السـفنُ -التـي انطلقـت من إسـطنبول وهي تحمـلُ المُؤَن- الوصولَ إلى الإسكندرية إلا بعد ثلاثة أشـهرٍ بسـببِ العواصف، وقد ذهبَ السـلطان بنفسِـهِ إلى الإسكندرية من أجل رؤيةِ الأسطولِ وتفتيشِهِ، وبعد أن طافَ بِسُـفنِ الأسـطول، جال كذلك بالإسكندريّة التي تُعْتَبَرُ ثاني أكبر مدينةٍ في مصر وأهمَّ ميناءٍ بها، ويرجـعُ تاريخُ تأسيسِها إلى "الإسكندرِ المقدونيّ" (ت: ٣٢٣ ق. م).

لقـد وصـلَ السـلطانُ إلى الإسـكندرية يـوم الجمعة، فصلـى الجمعة في الجامـع الغربيّ، وزارَ مسـجدَ الرحمةِ الذي أقامَ به عمرُو بنُ العاص عندما دخل المدينة للمرَّةِ الثانية، وجامـعَ المرسـيّ أبي العبّاس الذي يُعرَفُ بمقامِ المرسـيّ أبي العبّاس، و"ياقوت الشـاذلي"، وغادرَ المدينةَ بعدَ صلاةِ العصر متَّجِهًا إلى القاهرة، وبعد وصولِهِ أرسلَ السلطانُ رسله إلى جزيرةِ "قبرص"، التـي كانـت تُقَدِّمُ الخراجَ السـنويَّ إلى المماليـك، لِيخبرهم بأن هذا الخراج سيقدَّم إلى العثمانيين من الآن فصاعدًا.

لقد اُتُّخِذَتْ تدابيرُ خروجِ قافلةِ الحجّ المصريّة إلى الأراضي المقدَّسة، وكانـت هـذه هـي أول قافلـة حـجٍّ تخـرجُ مـن مصـر بعـد أنْ سـيطرَ عليهـا العثمانيّون، فبادرَ السلطان سليم إلى تطويرِ عادةِ إرسال الصرّةِ السلطانيّة[١٦] التي كانت بدأتْ اعتبارًا من عهد السلطان "يلدريم بايزيد" (ت: ١٤٠٣م)؛ وذلك من أجلِ الخدمات والعاملين بالأراضي المقدَّسةِ، وأرسلَ السلطانُ في تلكَ الفتـرةِ صرَّتَيـنِ إلـى مكّـة المكرمـة والمدينـة المنـورة: واحدة من إسـطنبول والأخـرى مـن القاهرة، كما رفـع مقدار "الصُّـرَّة"[١٧] إلى بضعة أضعاف عما

(١٦) لمزيد من المعلومات انظر: يوسف جَاغْلَارْ وصالح كولن: "**المَحْمِل الشَّريف ورِحلتُه إلى الحَرمَين الشَّريفين**"، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٥م. (الناشر)

(١٧) إن الصُّرّة في اللغة تعني كيس النقود، كما أن هذه الكلمة تستخدم في الوقت نفسه بصورة مجازية عما يُعطى لشخص معين كل عام بصورة منتظمة. (**المترجم**)

السلطان سليم الأول في ميناء الإسكندرية.
(سليم نامه، *254a*)

كان يُرسَل في عهد أبيه، وقد قام موظف مختص بتوزيع الأموال المرسَلَة في "الصرة" على المسجلين في دفترها تحت إشراف قضاة مختصّين، وكان من يحصل على هذه الأموال يختم القرآن الكريم قراءة ويدعو للسلطان.

كما جرى تحديد ثلاثين حافظًا لكتاب الله وطُلب منهم أن يقرأ كلُّ واحدٍ منهم جزءًا من القرآن الكريم كل يوم، وبهذه الطريقة يختمون القرآن مرَّةً كل يوم، وتقرَّرَ أن يمنَح هؤلاء الحفظة كل عام اثنتي عشرة قطعةً من الذهب، ثم استُدْعِيَ فقراءُ الأراضي المقدسة وسُجِّلَتْ أسماؤُهم في الدفتر، ليحصلَ كلُّ فردٍ من أفرادِ الأسرةِ على ثلاثِ قطعٍ ذهبيّة سنويًّا، هذا إضافة إلى أنَّ العميد "إبراهيم رفعت باشا"[١٨] يروي في مذكراته أن السلطان سليم كان أول شخص ينظم "صدقةَ

(١٨) "**إبراهيم رفعتْ باشا**" (١٨٥٧-١٩٣٥م): ضابطٌ عثمانيّ ذهب من القاهرة إلى الحرمين الشريفين أربع مرّات على رأس قافلة الحجّ في العصر العثماني؛ كأمير للحج وقائد لحرس الصرّة، فأوّل مرّة ذهبَ فيها إلى الحجّ من القاهرة كانت قبلَ تعيينه في منصبِ أميرِ الحجّ أثناءَ شغله منصبَ القائم مقام بصفته "قائد محافظي الصُّرّة" في ربيع (١٩٠١م)، ومنحه السلطان عبد الحميد الثاني رتبةَ اللواء عندما تمَّ تعيينُه في منصبِ أميرِ الحجّ في الأول من ديسمبر/ كانون الأول لعام (١٩٠٢م)، وفي السنوات التالية كُلِّف بمهام أمير الحجّ مرّات عديدة، فعمل قائدًا لقوافل المحمِل الذاهبة من مصر إلى الحجاز لفترة طويلة، وشرحَ ما وقع له من أحداث في هذه الرحلات بالتفصيل في كتابه المسمى "مرآة الحرمين الشريفين"، انظر: يوسف جَاغْلَارْ وصالح كولن: "المَحْمِل الشَّريف ورِحلتُه إلى الحَرمَين الشَّريفين"، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٥م. **(الناشر)**

الحبوب" لأهلِ مكّة المكرمة والمدينة المنورة؛ إذ وُزِّعَتْ الحبوبُ المرسلةُ على سكان المدينتين، وما بقي منها بيعَ ووُزعَ ثمنُه على السكان المحلّيين.

وقد أُرْسِلَ موظَّفٌ في عهد السلطان سليم وجمعَ الفقراءَ في ميدانٍ وأعطى كلَّ واحدٍ منهم قطعةً ذهبيَّةً وطلبَ منهم أن يعتَمِروا بالنيابةِ عن "عائشة خاتون" والدةِ السلطان سليم، فارتدوا ملابسَ الإحرام وأدُّوا مناسك العمرة نيابةً عنها.

وتعني كلمة صرّة كيسَ الأموال، وهي تُجسد حبَّ العثمانيّين وشعورَهم بالمسؤولية تجاهَ مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد أرسلَ السلاطينُ مع الصرّةِ العديدَ من الأغطيةِ والراياتِ والأموال، وكانت هذه الأموال توزَّع على العاملين بالحرمين والسكان الفقراء، وتنفقُ على المنشآت كقنواتِ المياهِ والمستشفَيَات والمخافرِ التي كانت تُبْنَى لِتَسهيلِ أداء مناسكِ الحجِّ والعمرة.

وقد أُرسلت أول صرَّةٍ عثمانيّة من "أَدِرْنَه" في عهدِ السلطان "يلدريم بايزيد"، واستمرت هذه العادة كذلك في عهد السلاطين الذين أتوا بعده، وصارت "الصُّرَّةُ" تُرسَلُ من إسطنبول اعتبارًا من عهد السلطان محمد الفاتح، وقد أُطلق على "الصرة" التي خرجت من إسطنبول اسم "صرة الشام" أو "المحمل الشامي" لأنها كانت تصلُ إلى الأراضي المقدَّسةِ مرورًا بالشام.

وتغيَّر شكلُ الصرة السلطانية اعتبارًا من عهد السلطان سليم الأول، وأصبحت أحسن رونقًا وجمالًا، وصارت تُرسَل صرتان من الأراضي العثمانية إحداهما من إسطنبول والأخرى من القاهرة.

وفي تلك الأثناء بدأت الإعداداتُ للعودة إلى إسطنبول، وكان سيتم إرسال أربعة آلاف جنديٍّ من جنود الإنكشارية بالسفن إلى ميناء "بيروت"، وأما الأسطولُ فسيقضي فصلَ الشتاءِ في جزيرة "قبرص"، فيما ستُنقلُ الغنائمُ التي حصلَ عليها الجيشُ خلالَ الحربِ برًّا إلى الإسكندرية، ثم تُنقَلُ من هناك بحرًا على متن السفن.

وبعد أيامٍ قلائل وصلَ إلى القاهرةِ "ابنُ شريفِ مكّة" الذي ينحدرُ من نَسْلِ النبي ﷺ، وقد أظهرَ السلطان سليم له احترامًا فائقًا، وأجلسَهُ إلى جانب الصدر الأعظم في الديوان، وكان ابن شريف مكة "أبو نُمَي" (ت: ٩٩٢هـ/١٥٨٤م) قد جاء إلى القاهرة ليقدم فروض الولاء للدولة العثمانية ويتحدث مع السلطان حول كيفيّة الإدارة في المستقبَل، فأخبرَهُ السلطانُ بأن مكَّةَ المكرمة والمدينة المنورة مُقدَّستان، وأنهما ستُداران بشكلٍ مستقلٍّ من جانب الأشرافِ كما كان في السابق.

وكان السلطان قد أرسلَ "سلمان رئيس" من أجل حماية الأراضي المقدسة من الاحتلال البرتغاليّ، فأرسل إليه "سلمان" خطابًا أخبره فيه بأنّه أبعدَ السفن البرتغاليّة عن تخوم "جدة"، وأن شريفَ مكة المكرمة يدعّمهم، فسُرَّ السلطان كثيرًا من هذا الخطاب، ولم يكن شريفُ مكَّة ممتنًّا من الإدارة المملوكيّة التي كانت عاجزةً عن حماية الأراضي المقدّسة ضدَّ التهديدات النصرانيّة.

وقدّم ابن شريف مكة إلى السلطانِ الهدايا التي تُعَبِّر عن تبعيَّتِهم له نيابةً عن والدِهِ، ولا تزال هذه الهدايا قائمة إلى يومنا ومحفوظة في دائرة الأمانات المقدسة بقصر "طُوبْ قَابِي" في إسطنبول[١٩]، ومن بينها مفاتيح

(١٩) لمزيد من المعلومات انظر: حلمي آيدين: **آثار الرسول ﷺ في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر "طوب قابي"** بإسطنبول، دار النيل، ٢٠٠٦م. **(الناشر)**

الكعبة المشرَّفَةِ ورداء النبي ﷺ، وألبسَ السلطانُ "أبا نُمَي" الخلعةَ السلطانيّة، وأرسلَ إلى والدِهِ براءةً وخلعةً تُشيران إلى تولّيهِ الإمارة.

ولقد تـمَّ إرسـالُ مائتي أَلْـف (٢٠٠٠٠٠) قطعـة ذهبيـة وكمّيّـة كبيـرة مـن المحاصيـل والمـؤنِ لتوزيعِهـا علـى حاضِـرِي الحرمين الشـريفين، كما أُطْلِـقَ سـراحُ بعضِ وجهاءِ مكة الذين كانوا محبوسـين فـي القاهرة في عهد الغـوري، وبهـذه الطريقـة تكـون مكّـة المكرمـة والمدينـة المنورة قـد دخلتا تحـت السـيطرة العثمانيـة، وبدأ السـلاطين العثمانيُّون يَحمِلـون لَقَبَ "خادم الحرمين الشريفين" كدلالة على ذلك، وكان هذا اللقبُ لقبًا متواضِعًا للغاية استَحْدثَهُ العثمانيُّـون، ذلـك أن اللقـبَ الـذي كان يسـتخدمه المماليـك هـو "حاكم الحرمين الشريفين".

ويروي "أوليا شـلبي" هذه الواقعةَ على النحو التالي: عقبَ النصرِ الذي حققـه السـلطان سـليم فـي معركةِ "الريدانيـة" عـام (١٥١٧م) وصفَ خطيبُ الجمعة في القاهرة السلطان سليم بِصِفَةِ "حاكم الحرمين الشريفين"، فتدخل السلطان سليم وعدّل الوصف إلى "خادم الحرمين الشريفين"، ولم يستطـع السـلطان أن يسـيطر على عبراته لما سـمـعَ هذا الوصف من الخطيب، كما قـدم العديـد من العطايا إلى الخطيب عقـبَ الصلاة، -وقيلَ إنَّ هذه الحادثة وقعَت في الجامِعِ الأمويّ الكبيرِ في حلب الشهباء-، ولقبُ "خادم الحرمين الشـريفن" يسـتخدم فـي الوثائـق الرسـمية العثمانيـة، ويُطبـعُ علـى العملات الذهبيّـة، ويُذكَـرُ فـي خطـبِ الجمعـة، وقـد بـدأ اسـتخدام هـذا الوصف في عهدِ السـلطان سـليم، وكان آخر من اسـتخدَمَهُ الخليفة الأخير "عبد المجيد أفنـدي" (١٨٦٨-١٩٤٤م)، وأصبـحَ هـذ الوصفُ يَسـتَخْدِمُهُ ملوكُ المملكةِ العربيّةِ السعوديّة عقبَ إلغاء الخِلافَةِ العثمانية ٣ مارس/آذار (١٩٢٤م).

وفي تلك الأثناء أُرْسِلَ أبناءُ الخليفةِ المتوكِّلِ وعمُّه خليل ومحمد ابن السلطان قنصوة الغوري وبعض كبراء المماليك والعلماءُ والفنانون والمعماريون ومحترفو البِناءِ إلى إسطنبول، وكان هدفُ السلطان من هذه الخطوة هو إظهار أن إسطنبول هي مركز الخِلافَةِ وليست القاهرة.

كان هدف السلطان سليم من الإقامة الطويلة التي استمرَّت نحو ثمانية أشهر في المنطقة؛ هو تأسيسُ نظامٍ دائمٍ في مصر، ذلك أن ضمانَ أمنِ السكّانِ وتقويةَ السيطرةِ العثمانيّة وخصوصًا بَسْط العثمانيين سيطرَتَهم على تلك المنطقة في تلك الفترة التي تسبَّبَتْ فيها تهديدات البرتغاليّين في البحر الأحمر في ظهور أزمات جادة؛ كلُّ ذلك كان يُحتِّمُ عليهم اتخاذَ تدابير عسكريّة جديدة، ولقد أفضت إدارةُ السلطانِ هذه الأمورَ المهمّة بنفسِهِ إلى إقرارِ النظامِ بشكلٍ أكثر متانةً وصَلابَةً.

وكان الجنودُ ورجالُ الدولةِ يقولون إنهم أقاموا في مصرَ لفترةٍ طويلةٍ، وكان الجنودُ يُعانون من أزماتٍ ماليّةٍ بسببِ عدمِ قدرتهم على جمعِ حصادِ ممتلكاتهم لبُعْدها عن مكانِ إقامتهم بمسافةٍ كبيرةٍ، وأما عرضُ هذا الأمر على السلطان فكانَ يتطلَّبُ شجاعةً كبيرةً للغاية، فأما أولئك الذين كانوا على علمٍ بما حدثَ في الماضي وغَضَبِ السلطانِ فكانوا لا يجدُون في أنفسهم الشجاعةَ الكافيةَ لِعَرْضِ الأمرِ على السلطان، ولهذا اختاروا القاضي العسكري "كمال باشا زاده" -الذي كان يحترِمُهُ السلطان- ليكونَ سفيرًا لهم، وكان "كمال باشا" يعرف جيدًا غضب السلطان، فاختار الوقتَ المناسِبَ وتحدَّثَ مع السلطان عن أن الجنودَ اشتاقوا إلى أرضِهم وأهلِهم لدرجةِ أنهم غنُّوا أغنيةً شعبيَّةً، فسألَهُ السلطان عن تلك الأغنيةِ فردَّ قائلًا:

ماذا بَقِيَ منا في بلاد العرب
وكم أقمنا في الشام وحلب!
والناس يعيشون في نشوة وطرب
هلمّ أخي إلى بلاد الروم فلنذهبْ

أُعْجِبَ السلطانُ كثيرًا بهذه الكلماتِ، وقال:

"لم يعدْ هناك شيءٌ يجبِرُنا على البقاءِ هنا، لِنَعُدْ إلى ديارِنا".

وأمرَ بالإسراعِ من التجهيزِ للعودَةِ، ثم سألَ السلطانُ "كمالَ باشا" عن "ملّا لطفي" خلال حديثٍ جرى بينهما، وألمحَ السلطان إلى أنه يتوقّع أن يكون ناظم هذه الرباعية هو "ملّا لطفي" (ت: ٩٠٠هـ/١٤٩٥م) الذي حدثَ له الكثيرُ من الأحداث بسببِ مزاحِهِ المصْطَنَعِ؛ فردَّ "كمال باشا" بقولِهِ:

"حدسُ السلطانِ هو أكثرُ الشهودِ صِدْقًا".

ولم يعترض السلطانُ على شيءٍ بالرغمِ من فهمِهِ أن هذه الرباعيّة مختلقة، وامتنَّ لإيصالِ طلبٍ حقٍّ بهذهِ الطريقةِ المؤدّبةِ الرائعة، لدرجة أنه أرسل إلى "كمال باشا" هديةً عبارةً عن خمسة آلاف "فلوري".

obeikandl.com

العودةُ إلى الأناضول

سلَّمَ السلطان سليم إدارةَ مصر إلى "خاير بك" وقدم له بعضَ النصح، وخصَّصَ الجنود الذين سيبقون في مصر، وقسَّمَ الوحدات المتبقّية إلى خَمسِ كتائب، وحدَّدَ لكل واحدة التوقيت الذي ستغادر فيه المدينةَ، خرجَ السلطان من القاهرة، وتتبَّعَ المنازلَ ووصلَ إلى غزة، ثم وصل بعد رحلة طويلة إلى الشام، وقضى الشتاء بها، وحلَّ شهرُ رمضان، ليقضي السلطان وجنودُهُ الشهرَ المباركَ في الشام.

وبحلولِ عيدِ الفطر تبادلَ السلطان مع رجال الدولة وقادتِهِ التبريكاتِ والمعايدة في خيمتِهِ وذهبَ إلى الجامعِ الأمويّ لِأَداءِ صلاة العيد، تعجَّبَ الذين كانوا يريدونَ رؤيةَ السلطان في الجامع كثيرًا، ذلك أنَّهُ أتى إلى الجامعِ وهو يرتدي لباسًا أسود بسيطًا لِأقصى درجةٍ، وليس بهِ أيُّ دلالة على أنه سلطان، وكان السلطان سليم يحبُّ البساطةَ، وكان يُعلِّمُ الجميعَ أن أحدًا يجب ألا يتظاهَرَ بالكِبْرِ والتباهي في الجامعِ، وبعد أن صلى السلطانُ صلاةَ العيد زارَ كذلك ضريحَ الشيخ "محي الدين ابن عربي" الجديد، وأصدرَ أوامرَهُ بِتَشْييدِ جامعٍ وكُلِّيَّةٍ بِجوارِهِ.

وبحسبِ المعلومات الاستبخاراتيّة التي أَتَتْ حول ما يفعله ويحيكُهُ الشاه إسماعيل أمرَ السلطانُ باتِّخاذِ التدابيرِ اللازمةِ، وبعد ذلك نقلَ الجواسيسُ نبأَ انسحابِ الشاه إسماعيل لمّا عَلِمَ أن السلطانَ في الشام.

وبينما كان السلطان في الشام تُوفِّيَ "حلمي أفندي" -أستاذ السلطان الذي كان يُحِبُّهُ كثيرًا ولا يغادرُ دون أن يصطَحِبَهُ معه- فَحَزِنَ السلطانُ كثيرًا، وصلى صلاة الجنازةِ وأُعلِنت حالةُ الحِداد العام في المدينةِ بأكملِها، فأُغْلِقَت الدكاكين، وأمرَ السلطانُ أن يُدفنَ "حلمي أفندي" بجوار ضريحِ "ابن عربي".

وعقب الوفاة ارتدى السلطانُ ملابس المَأْتَمِ وانغلقَ على نفسِهِ ولم يشاركْ في اجتماعِ الديوان، لم يأكلْ أو يشربْ شيئًا يُذكر، وقضى وقتَهُ على مدار أيام منعزِلًا يدْعُو ويتضرَّعُ فقط، وخرج من هذه العزلةِ عندما وَصَلَتْهُ أخبارٌ جديدةٌ من الشرق.

مرَّت الأيّام بالتعييناتِ والتدابيرِ العسكريّة الجديدة، وقضى السلطانُ عيدًا آخر في الشام؛ إذ صلّى صلاةَ عيد الأضحى المبارك في جامِعِ بني أميّة الكبيرِ بدمشق، وفي تلك الأثناء سُرَّ السلطانُ كثيرًا بالأخبارِ التي تحدَّثَتْ عن وصولِ الحجاج المصريّين إلى مكّة المكرمة سالمين، ذلك أنه أولى اهتمامًا كبيرًا بمسألةِ وصول أول قافلةِ حجٍّ مصريّة إلى الأراضي المقدسة تحت الحكم العثمانيّ بأمانٍ وسلامٍ.

لم يستطع الجنودُ تحصيلَ إيراداتِ أراضيهم بسببِ الغزواتِ الطويلةِ، فأصدرَ السلطانُ تعليماتٍ بمنحهم قروضًا ماليّةً من خزينة الدولة، الأمر الذي أراحهم وكشَفَ الغمّةَ عنهم، وقد حافظ العثمانيون الذين كانوا يهتمُّون بالوثائقِ كثيرًا بدفاترِ الديون هذه، فوصَلَتْنا حتى بعدَ مرورِ خمسةِ قرون، وهي محفوظةٌ اليوم في الأرشيفات العثمانية برئاسةِ الوزراءِ التركيّة.

لقد حلَّ السلطانُ قضية "ابن حنش" الذي كان يقطعُ الطريق، وبعد ذلك عيَّن "بيري باشا" الذي وصلَ من إسطنبول إلى الشام في منصبِ الصدرِ

الأعظمِ، وقد صلَّى السلطانُ صلاةَ الجمعةِ في ذلكَ الأسبوع كذلك في الجامع الأمويّ الكبير.

وفي الأسبوع التالي صلى السلطان الجمعة التالية في الجامع الذي أمر ببنائه باسم ابن عربي، وكان السلطان سليم هو أول من صلى صلاة الجمعة في هذا الجامع الجديد، وأمر السلطانُ ببناءِ جامعةٍ وتكيّةٍ على هذا الضريحِ، كما أمرَ ببناءِ مبنًى إلى جانِبِه يتبَعُ له، وعندما ساءت أحوال هذه المباني بمرورِ الزَّمَنِ أمر السلطان عبد الحميد الثاني بترميمِها، لتبقى صامدةً إلى يومنا هذا.

شارك السلطان في رحلة صيد بالقرب من حلب في طريق عودته من الشام، ثم وصل إلى "أَنْقَرَه"، وزار جامع حبيب النجار.

وأرسل خبرًا إلى الأناضول وأمر بتجهيز سهام وأقواس من أجل تلبية حاجة الجيش، وكان السلطان يريد أن يخادع الشاه للقائه للمرة الأخيرة، لكنه غيّر رأيه بعد فترة فجأة وعاد إلى إسطنبول، لكنه ترك بيري باشا في المنطقة، وبالرغم من عدم وضوح سبب تغيير السلطان لفكره بالضبط، فإنه في الأغلب قد عاد إلى إسطنبول ليتحرك من جديد وفق سير الأحداث التي تشهدها الحدود الغربية بغرض التحرك صوب الشرق، ذلك أن تركه لـ"بيري باشا" في الشام كان إشارة على نيته للعودة.

لقد وصل السلطان إلى إسطنبول عبر طريق "قيصري"-"آقسراي"-"أفيون"، وعندما علم أنهم سينظمون الاحتفالات من أجل استقباله بعدَ هذا الغيابِ الذي دامَ عامين؛ هرب من الاحتفالات ودخل قصرَ "طُوبْ قَابِي" في صمتٍ وتواضُعٍ، وذلكَ على متن سفينة بسيطةٍ يوم الخامسِ والعشرين من يوليو/تموز (١٥١٨م).

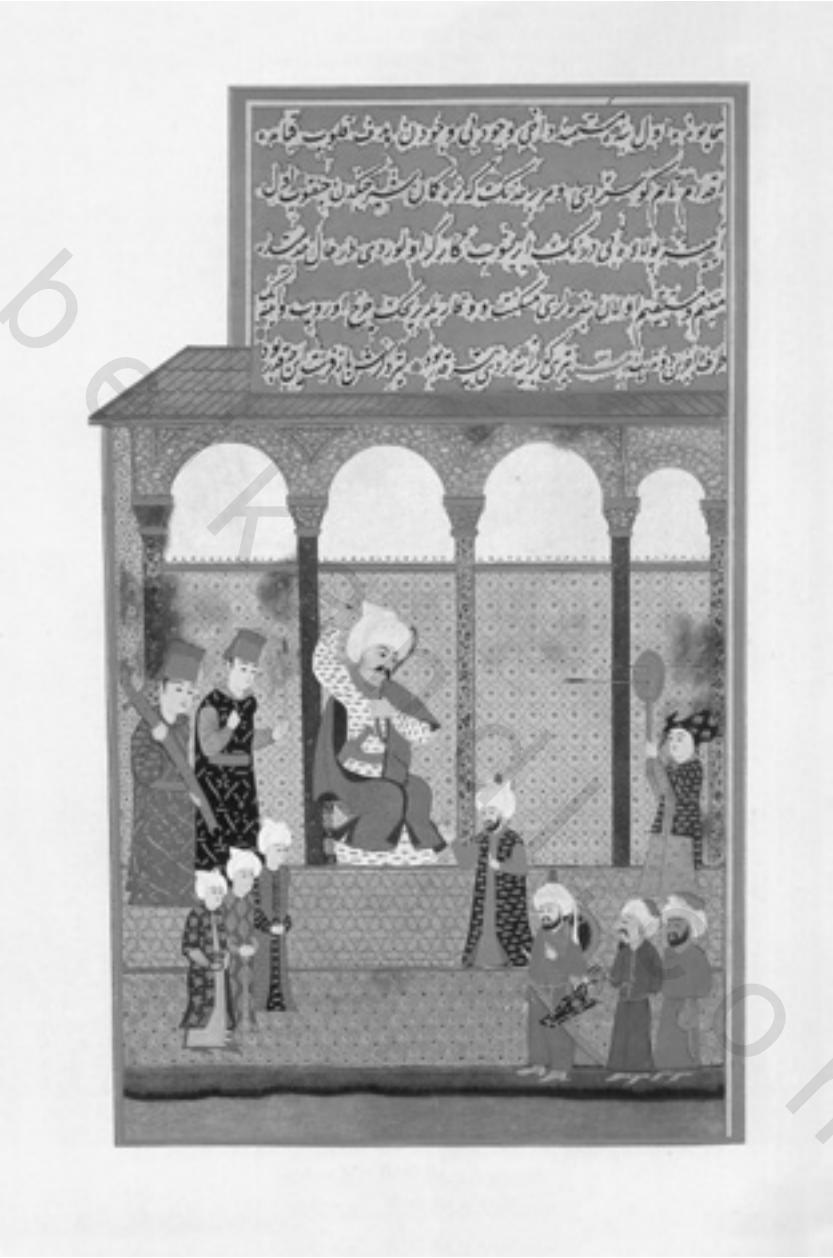

تصويب "السلطان سليم الأول" السهم على مِرآة.
(السيد لقمان (ت: ١٠١٠هـ/١٦٠١م): هُنَرْ نامه)

السنوات الأخيرة

عندما وصلت إلى السلطان معلوماتٌ حول التطوُّراتِ السياسية الجديدة ذات الصلة بالتحالف الصليبيّ في الغربِ، مكثَ في إسطنبول عشرةَ أيّامٍ فقط وتحرَّكَ صوب "أَدِرْنَه"، وفي الواقعِ كان السلطان سليم يُفضِّلُ قضاءَ معظمِ وقته في "أَدِرْنَه" بدلًا من إسطنبول.

وبينما كان السلطان في "أَدِرْنَه" وصلهُ نبأٌ يفيد بأن شخصًا يُدعى "شاه ولي بن جلال شاه" يُقيمُ في مكان يُدعى "سِيزِيرْ (*Sızır*)" التابع لمقاطعة "جَمَرَكْ (*Gemerek*)" بولايةِ "سِيوَاسْ"، وأن أنصارَ الشاهِ يتجمَّعون حولَهُ.

وبحسبِ المصادِرِ التاريخيّة في تلكَ الحِقْبَةِ فإن "شاه ولي" استقرَّ في كهفٍ كبيرٍ وعميقٍ بالقربِ من قلعة "طُورْخَالْ"، ونجحَ في خِداعِ سكَّانِ تلك المنطقة الذين يَتْبَعُ أغلبُهم المذهبَ الإسماعيليَّ الرافضيَّ والملاحدة، وبدأَ يتوافَدُ عليه كلَّ يومٍ الأشخاصُ عديمو الفائِدَةِ، ولقد أرجَعَ "شاه ولي" سببَ اتّخاذِهِ هذه المنطقةَ كمسكنٍ له إلى ادّعاءٍ يقول إنها مكانُ وليٍّ من كِبارِ الأولياء، وكلّما كان عددُ زائريه يزيدُ كلّما كان يُطْلِقُ كلامًا عجيبًا من قَبيلِ "لَمْ نختَرْ هذا المكانَ لأنْفُسِنَا، فلقدْ وَعَدَني الدراويشُ وأهلُ الغيبِ بأنَّ المهديَّ سيَخْرُجُ من هذا الكهفِ في القريب العاجل".

وقد تجرَّأ هذا الرجلُ حتى على إصدارِ فتوى بإلغاءِ جميع المحرَّمات التي أقرَّها دينُ الإسلام، وكان يقول: "هذا ما تعلمناه من المهدي"، وقد عرَّف نفسَهُ إلى عددٍ كبيرٍ من الذين بايعوه بأنه من أنصارِ المهديّ المُنتَظَرِ، وقد بالغَ مريدُوه المزيَّفون لدرجةِ أنهم حتى بدؤوا يتَّجِهون إليه ويركعونَ ويسجدونَ له، فشَهِدَ الأناضولُ ظهورَ فتنةٍ جديدةٍ وكبيرةٍ، وتحكي المصادِرُ

التاريخيّة أنه خلال اثني عشر يومًا تَجَمَّعَ خمسون ألف شخصٍ من الرِّجال والنساء والأطفال كأتباعٍ حولَ "شاه ولي".

لقد لعب الشاه إسماعيل دورًا في اندلاعِ هذه الثورةِ، فهناك متمرّدٌ اسمه "بُوزُوكْلُو جَلَالْ (*Bozoklu Celal*)"، حيث تسمَّى باسمه كلُّ المتمردين الذين سيقودون ثوراتٍ تمرُّديّة في الأناضول بعد ذلك التاريخ لِيُذْكَرَ كلُّ متمرّدٍ باسم "الجَلَالِي"، وقد زعمَ "جلالٌ" هذا بأنَّ جسدَهُ مضادٌّ لِضَرَباتِ السيوفِ والسِّهام، وقد أطلقَ تمرُّدَهُ وهاجمَ قرى منطقةِ "يُوزْجَاتْ (*Yozgat*)" وبلداتها.

وقد أخبرَ أحدُ مريدِيه الذين قُبِضَ عليهم أن "شاه ولي" يتواصلُ مع الشاهِ إسماعيل، وكان "شاه ولي" يحاولُ أن ينشرَ دعوتَهُ من منطِقتي وسطِ وشرقِ البحرِ الأسود إلى المنطقة القريبة من "سِيوَاسْ" و"آضَنَه".

وبدأ "شاه ولي" يتصرَّفُ بعدوانيَّةٍ واضحةٍ بعدما وصلَ عددُ مريديه المزعومين إلى مستوًى معيّن، فبادَرَ في البدايةِ إلى نهبِ منزلِ "أويس بن شهسوار أوغلو علي بك" برفقة أربعةِ آلافٍ من رجالِهِ، وبدأَ أميرُ أمراءِ "أَمَاسْيَا" "شادي باشا" يُكافِحُ من أجلِ القضاءِ على المتمرّدين، فتحرَّكَ إلى مدينة "زِيلَه (*Zile*)"، وبينما كان يُحاوِلُ جمعَ الجنودِ تعرَّضَ لهجومٍ مفاجئٍ من "شاه ولي"، غير أنه خاضَ معركةً ضدَّهُ غير آبهٍ بقلَّةِ جنودِهِ، إلا أنّه فقدَ كثيرًا من رجالِهِ ومعدَّاتِهِ في هذه المعركة، واستطاعَ الانسحاب إلى "أَمَاسْيَا" رغمَ إصابَتِهِ، وبعدها جمعَ قوَّةً أخرى وهاجمَ "شاه ولي"، غيرَ أنَّهُ فشلَ في تحقيقِ أيِّ انتصارٍ بسببِ كثرةِ عددِ أنصارِ "شاه ولي".

وعندما وصلَ هذا الخبرُ إلى السلطانِ "سليم" أصدر تعليماتٍ وأوامرَ صارمة من أجل اتخاذ التدابير اللازمة على الفور، فبدأَ المعنيُّون بهذه

التعليمات بتنفيذِ الأوامر فورًا لِعِلْمِهم بأنَّ من لا يُنَفِّذ أوامرَ السلطانِ سَيُعرِّض نفسَهُ لِأَقسى العقوبات، وأرسلَ السلطان "فرهاد باشا" -الذي عيَّنه وزيرًا- إلى المنطقةِ، كما تحرَّكَ كلٌّ من "خسرو باشا" و"شادي باشا" كذلك.

لقد وحَّدَ "خسرو باشا" و"شهسوار أوغلو علي بك" قوّاتهما يوم الثالثِ والعشرين من أبريل/نيسان (١٥١٩م) وبدآ يتعقَّبانِ المتمرّدين، وأما "فرهاد باشا" فكانَ بالقُرْبِ من "أَنْقَرَه" في تِلكَ الأثناء، وقد شعرَ المتمرّدون بالقَلَقِ بعدما وَصَلَتْهم أنباءٌ عن تحرُّكاتِ القوّات العثمانيّة في المنطقة فانسحبوا؛ وعقبَ انسحابِ "بُوزُوكْلُو جَلَالْ" بادرَ "شهسوار أوغلو علي بك" وأميرُ أمراءِ "قَارَامَانْ" والروملي إلى استغلال هذه الفرصة جيّدًا وتحرَّكوا دون انتظارِ وصولِ "فرهاد باشا"، وقد لَحِقَ الجيشُ العثمانيُّ بقوَّات "جلال" وبدأَت المعركةُ بينهما.

واستطاعَ الجيشُ العثمانيُّ -الذي كان يُعتَبَرُ أقوى جيشٍ في العالم في القرن السادس عشر- أن يُلْحِقَ الهزيمةَ بالمتمرّدين خلالَ فترةٍ قصيرةٍ، وعاقَبَهم بشكل عنيفٍ ودون رحمة.

فيما نجح "شاه ولي" ورجالُهُ المقرَّبون في أن ينجوا بجلودِهِم من أيدي العثمانيّين، لكنَّهم لم يكونوا بمفرَدِهم؛ إذ تعقَّبَهم "أويس بن شهسوار أوغلو علي بك" وبينما كان يتَعَقّبهم التقى بمجموعةٍ عثمانيّة نَجَحَتْ في إلقاءِ القبضِ على "بُوزُوكْلُو جَلَالْ" وأحدِ رجالِهِ المقرّبين تنفيذًا لأوامرَ صدَرَت لها، فأخَذَهُ من هذه المجموعة وأرسلَهُ إلى والدِهِ بصحبةِ أحدِ العلماء، وقد نقل "شادي باشا" هذه المغامرةَ إلى السلطانِ على هيئةِ تقريرٍ مفصَّلٍ، وكتب "شادي باشا" أنه يعتَقِدُ أنه إرساله حيًّا إلى السلطان،

غير أن "شهسوار أوغلو" لَمْ يُرْسِلْهُ حيًّا؛ إذ تُشير المصادرُ التاريخيّة لتلكَ الحقبةِ إلى أنَّ "شهسوار أوغلو" تَصَرَّفَ بهذهِ الطريقةِ كي يُثْبِتَ أمامَ الجميعِ حقيقةَ استقبالِ جسدِ "شاه ولي" لِضَرَباتِ السيوفِ والسِّهام بعدما اشتهر بين الناس على أنه مخلوقٌ مقدَّسٌ خالدٌ مخلَّدٌ، وكان من الصواب أن يَظْهَرَ للجميع أنَّ ما يقوله "شاه ولي" مزيَّفٌ وغيرُ حقيقيّ حتى لا يتسبَّبَ في نشوبِ المزيدِ من الفِتَنِ.

وفي الوقت الذي أوشكَتْ فيه الثورةُ على أن تُخْمَدَ تمامًا؛ انْتَشَرَ ادِّعاءٌ مفادُهُ أن الأميرَ "مراد ابن الأمير أحمد" لا يزالُ على قيدِ الحياةِ وأنه تحرَّكَ صوبَ الأناضول، شعرَ السلطانُ بالغضبِ وكلَّفَ بعضَ رجالِهِ باستقصاءِ حقيقةِ هذا الادّعاءِ فورًا، وقد أثبتَتْ هذه التحرّيّات أن هذا الخبرَ عارٍ تمامًا عن الصحّة.

واستقبلَ السلطانُ بعضَ السفراءِ الأجانبِ خلالَ الفترةِ التي قضاها في "أَدِرْنَه"، وراجَعَ العلاقات التي تربطُ دولَتَهُ بِدولِ أوروبا، وكلَّف رجالَهُ بمتابعةٍ حثيثةٍ لأنشطةِ الصليبيّين الذين يستعدُّون لِشَنِّ هجماتٍ ضدَّ العالمِ الإسلامي تحت قيادة بابا الفاتيكان.

لقد حاول البابا منعَ لقاءِ السلطانِ سليم بالمجريّين، فحرَّضَ "فرسان رودس"، وأقنع فرنسا بقيادةِ حملةٍ صليبيّةٍ جديدة، وكان مقامُ البابا ينظرُ إلى العثمانيّين على أنهم أكبرُ عدوٍّ للنصارى، وقد بدأَ منذُ تأسيسِ الدولةِ العثمانيّة ولم يتغيّرْ إلى أن انهارَتْ.

وكان البابا يحلم دومًا بتمزيق أراضي الدولة العثمانية، وفي نهاية المطاف استصْدَرَ قرارًا بالخروج في حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ ضدّ العثمانيّين خلالَ جلسةٍ عُقِدَتْ في كاتدرائية "القدّيس يوحنا اللاتراني" في "روما"،

وكلّفَ القادةَ العسكريّين المحنَّكين بوضعِ الخططِ الحربيّة لِخَوضِ المعركةِ ضدَّ السلطان سليم، وأعد ستةَ أسئلة وطلبَ الردَّ عليها:

١- هل تندلِعُ الحرب؟

٢- إذا اندلعت المعركة فهل يجب أن تكون معركتُنا هجوميّةً أو دفاعيّة؟

٣- ما الذي يعيق نشوبَ المعركةِ وكيف يمكن التخلُّصُ منها؟

٤- هل يجبُ على جميع الحكّام أم على بعضهم أن يشاركوا في الحرب؟ وأيُّهم يجبُ أن يُشارِكَ؟

٥- بأيِّ الإمكانات يمكنُ إدارة الحرب؟

٦- كيف يمكن أن نُحقِّقَ معركةً ناجحة؟

وأما الأجوبة على هذه الأسئلة فتحمل أهمية بالنسبة لتوضيحِ إستراتيجية المعركة والحملة، غير أن كلَّ شيءٍ كان يعتمد على المالِ في المقام الأوَّل.

كان من المقرر أن يكون عددُ الجنودِ المشاة المشاركين في الغزوة ستّين ألفَ جندي، وعددُ الفرسان الخفاف اثني عشر ألف جندي، وعدد الفرسان الثقال أربعة آلاف فارس، وكان يمكن الاستفادة من "البندقية" و"نابولي" و"إسبانيا" و"البرتغال" و"إنجلترا" لتجهيزِ سفنِ الأسطولِ، وقد أرسل البابا التقاريرَ المفصَّلَةَ التي جُهِّزَتْ إلى الإمبراطور وملك فرنسا، وأخبر سائر الحكام الآخرين بالوكلاء.

وفي الثالثِ والعشرين من سبتمبر/أيلول (١٥١٧م)، ردَّ "فرانسوا الأوّل" بِرُدودٍ إيجابيّة على هذا العرض، كما أعد الإمبراطورُ إجاباتِهِ، غيرَ أن هذا الخطاب الجوابيّ وصلَ إلى "روما" في فبراير/شباط عام (١٥١٨)، وكانت الردودُ التي تلقَّاها البابا تعكسُ غيرة الحاكمين الكبيرين من بعضهما البعض،

غير أن البابا وصلته رسائل إيجابية من سائر الملوك الآخرين، فنظم قداسًا في كنيسة "سانت ماريا منيرفا" بتاريخ ١٤مارس/آذار (١٥١٨م)، وأعلن هذه الوضعية السعيدة، وبحسب الظاهر فقد خطط لكل شيء بالتفصيل، إلا أن المشاكل العديدة تسببت في الحيلولة دون تنظيم الحملة كما كان البابا يريد.

لقد أدت وفاة الإمبراطور "ماكسيمليان (*Maximilian*)" (١٥٤٩-١٥١٩م) في الحادي عشر من يناير/كانون الثاني (١٥١٩م) والصراع الذي بدأ على عرش الإمبراطورية إلى تغيير الأوضاع في أوروبا بالكامل، وتحوَّلَت فكرةُ شنِّ حملةٍ صليبيّةٍ جديدةٍ إلى حلم، وبحسبِ تقريرٍ كتبه سفيرُ البندقيّة و"كنتاريني" بتاريخ الثالث من أبريل/نيسان (١٥١٩م) فقد أرسلَ الإسبانُ حتى مبعوثًا إلى السلطان سليم الأول ليختَبِرُوا رغبتَهُ في الاتّفاق السلمي، وقد أخبرَ المبعوثُ بأنهم يطلبون من السلطان مواصلةَ الإعفاءات التي أقرَّها السلاطين المماليكُ بالنسبة لكنيسة "كاماما" والرهبان النصارى، فاستقبلَ السلطان هذا المبعوث بحفاوةٍ واعتبرَهُ مخاطَبًا له، غير أنه طلبَ قدومَ مبعوثٍ يحملُ الصلاحيّة التامّة والخطابَ من ملكِ إسبانيا بالذات حتى يمكنهُ قبول هذه المطالب، ومدَّدَ السلطانُ المعاهدةَ الموقَّعةَ مع المجريّين، واستقْبلَ سفيرَ البندقيّة الذي كان قد جلبَ الأموال التي سَتُدْفَعُ من أجل جزيرةِ "قبرص"، وعلى غيرِ العادة خاطبَ السفيرَ بينما كان يغادِرُ قصرَهُ بقولِهِ: "ستستمرُّ حالةُ السلامِ مع حكومةِ البندقيّة طالما راعوا أحكام الاتّفاق الأخير حرفيًا"، وقد راعَتْ حكومةُ البندقيّة حرفيًا ما قالَهُ السلطان لأنها لم تكن ترغبُ في المخاطَرَةِ بمواجهةِ دولةٍ يحكمُها سلطان قويٌّ كالسلطان سليم.

وخرجَ السلطانُ في جولةِ صيدٍ بالقربِ من "جُومُولْجنَه (*Gümülcine*)" في شتاء عام (١٥١٨م)، ووصلَهُ خبرٌ بينما كان في مكان يسمى "كَارَاصُو يَنِجَسِي (*Karasu Yenicesi*)"؛ إذ وصلَتْ معلوماتٌ استخباراتيّة تفيدُ بأنَّ بعضَ السُّفُنِ النصرانيّة ستنهَبُ سواحل "تراقيا"، فأصدرَ السلطان أوامرَهُ بتقصِّي حقائقِ الأمرِ على الفورِ، وعَلِمَ أن هذه السُّفُنَ تنصبُ كمينًا في جزيرة "ثاسوس (*Taşöz*)"، وعندما رأت السفن النصرانية قاربان عثمانيّان ظنّت أنّ هذين القاربين هما مقدّمة للأسطول العثماني الكبير؛ فأصابهم الهلعُ والفزعُ وغادروا سفنَهم متفرّقين في ثنايا الجزيرة، فلقد أفسَدَ تصادُفُ مرورِ القاربين العثمانيّين على هؤلاءِ اللصوصِ مهمَّتهم، وعندما أوصلوا هذه الوضعية إلى السلطان أمرَ بإرسالِ جنودٍ إلى الجزيرة لملاحقة قباطنة السفن النصرانية، فأصبح من لجؤوا إلى الجزيرة في وضعيّةٍ صعبةٍ لسوءِ الأحوال الجوّيّة بسببِ بردِ الشتاء، فأُلْقِيَ القبضُ على ما بين سبعين إلى ثمانين رجلًا منهم وأُرْسِلوا إلى المكان الذي يتواجدُ به السلطان، ومن المُحْتَمَلِ أن يكونوا هم قادة سفنِ القرصنةِ النصرانية التي كانت تُبْحِرُ في بحر "إيجه" وتُزاوِلُ أنشطتَها بتبعيَّتِها لِفرسان جزيرة "رودس".

وعاد السلطان سليم في أبريل/نيسان (١٥١٩م) من "أَدِرْنَه" إلى إسطنبول، فكان أوّلُ أمرٍ أصدَرَهُ هو إعدادُ سفنِ الأسطولِ، وفي تلك الأثناء أصدرَ تعليماتِهِ ببِناءِ "قصرِ المرمرِ" على شاطئِ البحر، فكانت السُّفُنُ تُصْنَعُ والمدافِعُ التي ستُسْتَخْدَمُ في السُّفُنِ تُصَبُّ والمُجَدِّفون يُجْمَعُون.

وقُضيت أيام الصيف في تجهيزات الأسطول ومتابعة السلطان لهذه الأعمال، وكان السلطان يعرف السفنَ وأمورَ البحار جيّدًا لأنه تولى الإمارة لسنوات طويلة في مدينة "طِرَابْزُونْ" الساحلية المطلَّةِ على البحر الأسود، وكان هناك هدف واحد من وراء كلِّ تلك الاستعدادات، ألا وهو السيطرة

على "جزيرة رودس"، ولم يكن بمقدورِ الدولةِ العثمانية تأمينُ مياه البحر الأبيض المتوسط طالما لم تستطع التخلُّصَ من المخفرِ النصرانيّ الجاثمِ على قلبِ الدولة، والذي يمنع من وصلِ مصرَ وسورية بإسطنبول بحرًا بعد بسطِ السيطرة العثمانية على هاتين الدولتين، غير أنه في الوقت الذي وجَّهت فيه القيادةُ العثمانيّة قوَّتَها للاستيلاء على جزيرة "رودس" وقعت حادثةٌ قَلبَت الأجندةَ رأسًا على عَقِبٍ؛ إذ اندلَعَتْ ثورةٌ مؤيّدةٌ للدولة الصفويّة في الأناضول، ولهذا ولِسوءِ الأحوالِ الجويّة أرجأَ السلطان سليم غزوَ جزيرة "رودس" إلى العَامِ القابل.

وفي الواقع لم يكن السلطان سليم يُرَحِّبُ بغزوِ جزيرة "رودس"، لكنه رأى أن وزراءه يرغبون بشدَّة في فتح تلك الجزيرة، فقال لهم:

> "ترغبون في أن أغزوَ جزيرةَ الكفَّار، فهل تستحقُّ ذلك؟ لأنّ فَتْحَهَا سيكونُ صعبًا، كما أنه ليس واضحًا كيفَ يُمكنُ فتحُها بمساندة وزراء جاهزين (!)، فكيفَ لكم أن تفتحوها وأنتم لم تُعِدُّوا ما يلزمُ لذلك، فلو فَشِلْنَا في هذه المهمّة فهل سَيَتَحَمَّلُ ذلك شرفُ السلطنة؟ ففتحُ إحدى القلاع تكتنِفُهُ صعوبةٌ كبيرةٌ ويتطلّبُ العملَ بِجِدٍّ واجتهادٍ، والبارودُ هو أهمُّ ما نحتاجُ إليه في هذه المهمّة، فما كمّيّةُ المُؤَنِ والبارودِ الذي لديكم؟ أجيبوني!".

وأخبرَ الوزراءُ السلطانَ بأن المؤنَ وسائرَ المستلزماتِ الأُخرى جاهزةٌ، لكنّهم لم يستطيعوا أن يبلغوهُ بشيءٍ عن البارود لعدم امتلاكِهم معلوماتٍ بشأنِهِ، استأذن الوزراءُ السلطانَ بأن يمنحهم فرصةً حتى اليوم التالي، وفي اليوم التالي أخبروه بأن ما لديهم من بارودٍ يكفي لأربعة أشهر ونصف أو خمسة أشهر وأن هذه الكمّيّة ستكونُ كافيةً لِسَدِّ احتياجات الجيشِ، فنظر السلطان إلى رجاله نظرةً مقطَّبةَ الحاجبين وقال:

"لن تسطيعوا السيطرةَ على تلك الجزيرة في خمسة أو ستة أشهر أو حتى سبعة أشهر، والله أعلم هل يمكن السيطرة عليها خلال ثمانية أو تسعة أشهر، ولهذا لا يمكن انتزاعُ هذه الجزيرة بهذه التجهيزات البسيطةِ يا سادة! إنني لن أخرجَ إلى هذه الغزوة، بل سأخرج إلى رحلة أخروية".

وكان السلطانُ بهذه الكلماتِ قد أوضحَ ما هي المدة التي ستسقطُ فيها "رودس" في عهدِ ابنِهِ السلطان "سليمان القانوني"، وكانت هذه الكلمات دليلًا على استعدادِهِ لرحلتِهِ الأُخرويّة.

وسنرى أن فتحَ جزيرة "رودس" سيكونُ من نصيبِ ابنه سليمان القانوني بعدما حاصَرَها جدُّهُ السلطان الفاتح ولم يستطع بسطَ سيطَرَتِهِ عليها؛ إذ ستسْتَغْرِقُ عمليّةُ فتحِ الجزيرةِ تسعةَ أشهرٍ كاملة.

obeikandl.com

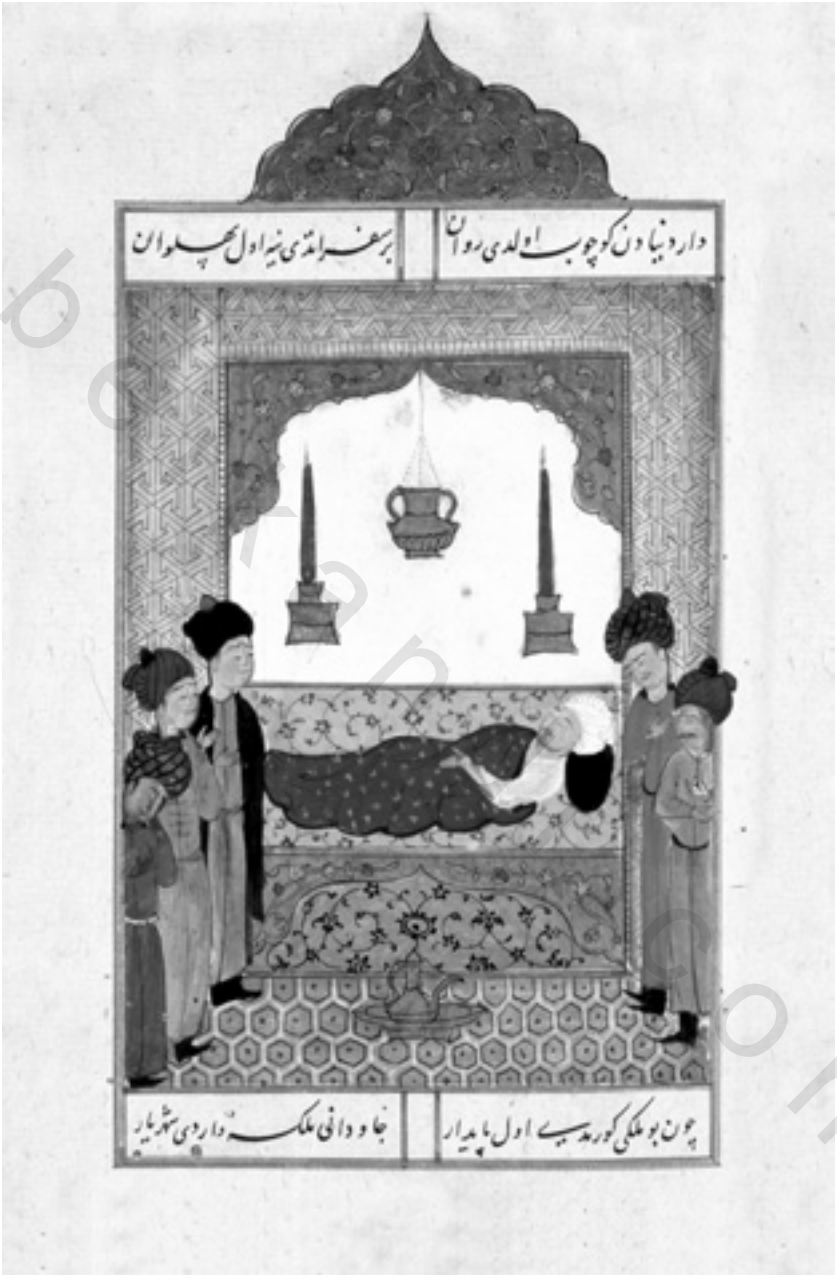

منمنمة تصوّر السلطان سليم الأول على فراش الموت

الرحلة الأخيرةُ إلى العالَمِ الأبديِّ

في الوقتِ الذي أُجِّلَتْ فيه غزوةُ "رودس" كان السلطان سليم يُخَطِّطُ للذهابِ إلى "أَدِرْنَه"، وقد اشتكى من ألمٍ في ظهرِهِ بينما كان يتجوَّلُ في حديقةِ قصر "طُوبْ قَابِي" مع "حسن جان" والِدِ المؤرخ "خواجه سعد الدين أفندي"، وقال له إنه يشعرُ بِأَلَمٍ وكأنَّ شوكةً دخلَتْ في ظهرِهِ.

فأجابه "حسن جان" بأنَّ هذا شيءٌ غير مُقْلق، وأن ذلك يمكنُ أن يكونَ شظيَّةً أو شوكةً، وأنه لو سمحَ له يُمْكِنُ أن ينظرَ إليهِ، وعندما نظر رأى في ظهر السلطان بثرةً ذاتَ رأسٍ أبيض، فأخبرَه بذلك؛ ثم طلبَ منه السلطان أن يعصرَها ويفجرَها، غير أن "حسن جان" أخبرَ السلطانَ بأن ذلك يمكنُ أن يكونَ خطيرًا، وأشار عليه بضرورةِ دهان مرهمٍ والانتظارِ حتى تشفى، فأجابه السلطان:

"لست شلبيًّا حتى نلجأ إلى الجرّاحين بسبب دمّل صغير".

وعندما امتنع "حسن جان" عن الضَّغْطِ على هذهِ البثرةِ للتخلُّصِ منها؛ ذهبَ السلطانُ في اليوم التالي إلى الحمامِ وأمرَ الخادم هناك بِفَقْئِها، لكنَّ هذا لم يُرِح السلطانَ، بل بدأ يشعرُ بالاضطرابِ والتعَبِ أكثر، وهناك احتمالٌ كبيرٌ أنَّ ما انفجرَ ليست بثرةً بل خرّاجًا.

وكان وباءُ الطاعون قد انتشرَ في إسطنبول، وكانت الأعراضُ تُشير إلى أن السلطان أُصيب بالمرضِ، ولم يكن الخرّاج الذي ظَهَرَ في ظهرِهِ بثرةً بل ورم الطاعون، وقد كبر حجم الخرّاج بمرور الوقت على طول الطريق

وأتعبَ السلطانَ سليمًا كثيرًا، وأصبحَ السلطانُ غير قادرٍ حتى على امتطاءِ جوادِهِ، ونُقِلَ بواسطة العربة، ولم تنفعْ جهودُ الأطبّاء الذين أُتِيَ بهم من إسطنبول في شِفاءِ السلطان.

وعندما وصل السلطانُ إلى قرية "صيرت (*Sırt*)" القريبةِ من مدينة "جُورْلُو (*Çorlu*)" أصبحَ غير قادر حتى على المشي، فاضطر للإقامةِ هناك، وفي تلك القرية صرعَ الخرّاجُ الذي ظَهَرَ في ظهرِهِ ذلكَ السلطانَ الذي لم يستطعْ أحدٌ أن يتغلَّبَ عليه طيلةَ حياتِهِ.

لقد حضرَ السلطانُ المريضُ اجتماعَ الديوان والآلامُ تعتصِرُ جسدَهُ، وبادرَ إلى بعض التعييناتِ والترقياتِ، ولِمنعِ انتشارِ شائعاتٍ بين الجنود بشأنِ حالتِهِ الصحّيّة خرجَ أمام خيمتِهِ وأظهرَ نفسَهُ للجميعِ، وفي آخرِ اجتماعٍ للديوانِ شاركَ فيه أوصى وزراءَهُ بالشعبِ والأراضي العثمانيّة، كما التقى "بيري باشا" سرًّا للحديث معه حول بعض الأمور المهمّة.

وقد زادَتْ وخامةُ مرضِ السلطان بالرغمِ من تدخُّلِ الأطبّاء لإنقاذِهِ، وبعدها أصبح عاجزًا عن حضورِ اجتماعاتِ الديوان، ولم ينقذْهُ العلاجُ المكثَّفُ الذي استمرَّ قرابةَ الشهرين، لِيُسَلِّمَ روحَهُ إلى بارئِها ليلةَ الثاني عشر من سبتمبر/أيلول عام (١٥٢٠م)، وكان رجلُهُ المقرَّبُ "حسن جان" يَقِفُ بجوارِهِ لحظةَ وفاتِهِ، وأجرى معه حواره الأخير، إذ قال السلطان:

- ما هو الحالُ يا "حسن جان"؟

- يا حضرة السلطان، حان وقتُ التوجُّهِ إلى الله لِتكونَ معَهُ.

- وماذا كنتَ ترى منا طيلةَ اصطحابنا لك؟! هل وجدت تقصيرًا في توجُّهِنا إلى الله؟!.

- حاشا لله، لم أرَكُم في حياتي تغفلون عن ذكر الله سبحانه وتعالى للحظةٍ واحدةٍ، لكن هذا الوقتَ لا يُشْبِهُ سائرَ الأوقات الأخرى، ولهذا السبب قلت ذلك من قبيل ﴿**وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾. (سورة الذاريات: ٥٥/٥١)

توقَّفَ السلطانُ لِبُرْهَةٍ ثم قال:

- اقرأ سورة "يس" يا حسن.

وعليه قرأ "حسن جان" سورةَ "يس" وأكملها إلى آخرِها، ثم بدأَ يقرؤها مرَّةً ثانيةً.

وفتَحَ "حسن جان" عينيه لِيَرى أنَّ السلطانَ يُرَدِّدُ معه سورة "يس"، وفي السنوات التالية حكى "حسن جان" ما حدثَ في تلك اللحظاتِ إلى ابْنِهِ على النحو التالي:

"عندما وصَلْنا في القراءةِ الثانيةِ إلى قولِ الله تعالى: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**﴾ (سُورَةُ يس: ٥٨/٣٦) رأيتُ شفتيه المباركَتَينِ تتحرّكان وكأنَّهُ يقرأُ هذه الآية، ثم رفعَ إصبع الشهادة إلى الأعلى، فأمسكتُ أصابِعَهُ الأخرى بقوّة، وكشفْتُ عن ذراعِهِ وتحسَّسْتُ نبضَهُ.

وكان كبير الحكماء "آخي شلبي" ينظُرُ إلى ما أفعله هناك، وعندما رأى لهفَتِي عنَّفَنِي قائلًا:

"لا يزال على قيد الحياة، لماذا تتصرَّفُ بهذه الطريقة؟!"

فقلت له:

"لـمْ أُعْرِضْ بوجْهِي حتى لدقيقةٍ واحدةٍ عن وليّ نعمتي منذ أن بدأتُ أخدمه، وهذه هي الخدمةُ التي يجبُ أن أقدِّمَها إليه في هذه اللحظةِ، لم يبقَ شيء يتعلَّقُ بالطِّبِّ حاليًا، ولقد فقدْنا جوهرتنا بالفِعلِ من دار الفناءِ وانتقَلَت إلى دارِ البقاءِ".

وبذل "حسن جان" جهدًا كبيرًا كي يخفيَ خبرَ وفاةِ السلطان سليم، ذلك أن انتشار خبرٍ كهذا -وهم خارج العاصمة- كان من الممكن أن يتسبَّبَ في حدوثِ اضطراباتٍ كبيرة بين صفوفِ الجيشِ.

وعُقِدَ اجتماعُ الديوان ذلك الصباحِ كالعادةِ، غير أن أحدًا لم يُفْصِحْ بشيء بشأن حالة السلطان، وأجريت الأعمال المعتادةُ، وكان كلُّ شيءٍ يسيرُ بشكلٍ عاديٍّ، وفي تلك الأثناءِ دخلَ الحكماءُ "شاه قزويني" و"عيسى" و"عثمان" خيمةَ السلطانِ وقاموا بعمليةِ تجهيزِ جثَّةِ السلطانِ وتكفينِهِ، ويروي "حسن جان" أنه بينما كان جثمانُ السلطان يُغَسَّلُ فقد غَطَّى مكانَ عورَتِهِ بِيَدِهِ اليُمْنى مرَّتَين، وقد تعجَّبَ من رأى ذلكَ من المغسِّلين فرفَعُوا أصواتَهم بالتكبيرِ والصلواتِ، وأُرْسِلَ الخبرُ إلى "مَانِيسَا" إلى الأميرِ "سليمان" الوريثِ الوحيدِ للعرشِ، وأخفى رجالُ الديوان خبرَ وفاةِ السلطانِ سليم حتى وصول الأمير "سليمان" إلى إسطنبول.

وبعد أن وصلَ الأمير سليمان إلى إسطنبول وجلسَ على العرش؛ جمعَ "بيري باشا" القادةَ والعمدَ، وقال لهم:

> "أيُّها الرفقاء، الأمرُ للهِ من قبلُ ومن بعدُ، لَقَدْ تُوُفِّيَ السلطان سليم، وجلس سلطاننا "سليمان" على العرشِ في إسطنبول بالسعادة والإقبالِ، فَغُزُّوا السّير إلى هناك".

فشعرَ القادةُ بحزنٍ كبيرٍ لم يكونوا يتوقّعونه، فبادرَ بعضُهم إلى طرحِ ما على رأسِهِ على الأرضِ ومنهم من ضربَ الأرضَ، وعندما انتشَرَ الخبرُ بين صفوفِ الجيشِ انتَشَرَ صمتٌ كبيرٌ، ولم يكن يخرق هذا الصمتَ سوى البكاء والعويل، فالسلطانُ الذي ارتبَطَ به الجنودُ حتى الموت ولِأجلِهِ يُضحون بأرواحِهِم لم يعد موجودًا! بدأ الجيش يسيرُ في طريقِ العودةِ إلى إسطنبول، وشرع الجيشُ يتدفق كالنهر الصامتِ نحو العاصمة.

واستقبلَ حشدٌ كبيرٌ جنازةَ السلطانِ في "أَدِرْنَه قَابي"، وانضمَّ السلطانُ "سليمان" إلى حاملي نعشِ والدِهِ، وحملَهُ لمدَّةٍ على كَتِفِهِ، ثم بدأَ الوزراءُ يتناوبون على حملِ النَّعْشِ الذي انتقلَ على الأعناقِ حتى جامعِ "الفاتِحِ"، وقد أَمَّ صلاةَ الجنازةِ على هذا السلطانِ الفريدِ الشيخُ "زمبيللي علي أفندي" (ت: ١٥٢٦م) أكبرُ علماءِ عصرِهِ، ثم نُقِلَ جثمان السلطان سليم إلى المكان الذي يوجد به ضريحُه اليوم، ونُصِبَتْ خيمةٌ فوقَ القبرِ، وأمرَ ابنُهُ السلطانُ "سليمان" ببناءِ ضريحٍ يحملُ اسمَه، وأُكمِلَ بِناءُ الجامع الذي لم يكن قد انتهى بناؤُهُ بعدُ.

obeikandl.com

السلطان سليم الأول

ما تركه السلطان سليم الأول

كان السلطان سليم أوَّلَ سلطانٍ يَعْتَبِرُ أنَّ القضاءَ على خطرِ الدولة الصفويّة يأتي على رأسِ أولويَّاتِهِ، وقد ضَمِنَ الكفاحُ الذي خاضَهُ ضدَّ إيران الصفويّة أنْ يُظْهِرَ جليًّا أنَّ الدولةَ العثمانيّةَ تتبنَّى مبدأً دينيًّا سنّيًّا.

لقدْ وضعَ السلطان سليم نصبَ عينيهِ وحدةَ العالَمِ الإسلاميّ تحتَ رايةٍ واحدةٍ، وقد نقلَ خدمةَ الحرمين الشريفين في مكَّةَ المكرَّمة والمدينة المنورة إلى الدولة العثمانيّة، وكانت من بين الأفكارِ التي راودَتْ ذهنَ السلطان هي السيطرة الكاملة على سواحلِ البحرِ الأحمرِ لِحمايةِ الأراضي المقدّسة، وقد شَهِدَ عهدُهُ انتقالَ القوّاتِ العثمانيّة للمرَّة الأولى للقارّة الإفريقيّة التي كانت شيئًا جديدًا بالنسبة لهم.

ويُوصَفُ السلطانُ سليم من الناحيّة الجسديّة أنه كان متوسِّطَ القامةِ قريبًا من الطويلِ، حادّ النظرات، أمرد ذا شاربٍ كثٍّ وطويلٍ، وجهُهُ مستديرُ وأنفُهُ معقوفٌ، ومِنْ غيرِ الصحيحِ بتاتًا الصورةُ التي صوَّرَها فنانٌ غربيٌّ ويظهر فيها السلطان سليم وهو يرتدي حلقًا في أُذُنِهِ، فلا يظهرُ في أيّ مُنَمْنَمَةٍ مرسومةٍ في عهدِهِ السلطانُ وهو يرتدي قِرْطًا أبدًا، كما لا يتحدَّثُ أيُّ مصدرٍ من المصادرِ التاريخيّة التي كانت تُسَجِّلُ كلَّ حركةٍ يقومُ بها السلطان أنَّ وضعَ القِرْطِ كان من بين عاداتِهِ.

كانت شخصية السلطان سليم تتميَّزُ بأنه كرّسَ حياتَهُ لرعايةِ شؤونِ الدولةِ، ولم يكن يعجَبُ باللهوِ ومجالسة حريم القصر، وكانت هوايتُهُ الوحيدةُ هي الخروجُ في جولاتِ صيدٍ وتعلُّم استخدامِ الأسلحة، فكان يُجيدُ ويحترِفُ استخدامَ جميعِ أنواعِ الأسلحةِ في عهدِهِ من سيوف وسهام وبنادق وغير ذلك.

[وليس هناك أيُّ علاقةٍ لا من قريبٍ ولا من بعيدٍ بين السلطان سليم الأول والشخصِ المصوَّرِ في تلك الصورةِ الخاطئةِ تمامًا، (لم يكن السلاطين العثمانيّون يرتدون الأقراط أو القلائد أو التيجان فوق العمامة أبدًا)].

قيادته للدولة

كانَ أحد أهمِّ أسبابِ نجاحِهِ في إدارةِ شؤون الدولةِ هو متابعتُه الشديدة لِتَنْفِيذِ الأوامرِ التي يُصْدِرُها، وكان السلطانُ حازِمًا في تنفيذ الأوامر التي يُصدِرُها، ولم يكن يتوانى عن نسفِ العوائقِ في طريقِ هدفِه، ولم يكن يتراجعُ عن إصدارِ أقسى العقوبات عند اللزومِ، وكان يولي اهتمامًا كبيرًا بالوفاءِ بالوعودِ التي قَطَعَها على نفسِهِ، وكان معروفًا عنه أنه يتميَّزُ بشخصيَّةٍ لطيفةٍ وظريفةٍ إلى جانبِ قسوتِهِ وشِدَّتِهِ، ولم يكن يُعْجَبُ أبدًا بالمظاهرِ والأبّهة، وكان يُحَذِّرُ ابنَهُ الأميرَ سليمان من هذا الأمر.

وكان السلطان سليم يغضبُ كثيرًا بسبب التراخي أو الفشل في تنفيذ الأوامرِ الصادرة، وكان أكثر الناسِ تأثُّرًا بغضبِهِ هم الوزراءُ الذين من حوله، حتى إنه أصبحَ أشهر دعاءٍ بالشرِّ اشتهَرَ بين الوزراء في السنوات اللاحقة "أدعو الله أن تكون وزيرًا للسلطانِ سليم!"، غير أنه من بين المواضيع التي يجبُ أن نعرفَها أن السلطانَ سليمًا كان دقيقًا جدًّا في اختيارِ رجالِهِ، وكان أحيانًا لا يُعيّن وزراء رغمَ الحاجة إلى ذلك، حتى إنه أبقى منصبَ الصدر الأعظمِ خاويًا لفترةٍ طويلةٍ في العديدِ من المرّات؛ وذلك لأنّه يبحثُ عن الكفاءات، ويُروى أن السلطان مراد الرابع -الذي تولّى العرش بعد قرونٍ من عهدِ السلطان سليم واتخذَ جدَّه الأكبر السلطان سليمًا مثلًا أعلى له حتى إنه تقلّدَ سيفَهُ بعدَ سيف النبي ﷺ في مراسم تسلُّمِ السيفِ في مسجدِ السلطان أيوب- كانَ يشتكي من نقصِ الرجالِ ذوي الكفاءات بقولِهِ:

> "ماذا لو كان لديَّ رجلٌ واحدٌ من الرِّجال الذين كانوا في عهدِ جدّي السلطان سليم...".

Open Kanal.com

وكان معروفًا عن السلطان سليم أنه صعبُ المزاج، غيرَ أن هناك بعضَ الأشخاص كانوا يتعرَّضون لكلماتِهِ القاسيةِ لكنَّهم كانوا يُصِرُّونَ على مطالِبِهِم عندما يعرفُ، وكان السلطان يُقَدِّرُ هؤلاءِ الأشخاص، وكان أفضلُ مثالٍ على ذلك ما حدثَ بينه وبين الشيخ "زمبيللي علي أفندي"، حينما أمرَ السلطانُ بالإعدامِ الفوريِّ لموظَّفي الخزينةِ بعدما لم يتمُّوا أعمالَهم على أكملِ وجهٍ، وعندما عَلِمَ المفتي "علي أفندي" هذا، اجتمعَ بالسلطانِ ورجاهُ أن يعفوَ عن هؤلاء الأشخاصِ، وكان السلطانُ غاضبًا، فأخبرَ السلطانُ المفتي بشكلٍ صارمٍ بأنَّ هذه المسألةَ قضيّةُ دولةٍ وأنه لا يمكنُهُ التدخُّلُ في هذا الأمرِ، فردَّ عليه "علي أفندي" بقولِهِ:

"وعظي ليسَ موجَّهًا للاعتراضِ على أوامرِ السلطان، بل اعتراضٌ على أمرِ الآخرةِ الخاصّ بكَ، وهذا الأمرُ صميم رسالتي ووظيفتي وواجبٌ على ذِمَّتي".

وأوضحَ للسلطانِ أن الأمرَ الذي يقلقُ منه متعلِّقٌ بآخرةِ السلطان، وأنه لا يرضى بأن يقابلَ السلطانُ اللهَ وهو يحملُ إثمًا كهذا، وأن مهمَّتَهُ كَمُفْتٍ هو أن يوجِّهَ إليهِ النصحَ في هذا الأمرِ، وفي الوقتِ الذي اعتَقَدَ فيه الجميعُ أن السلطانَ الغاضبَ سيتعصَّبُ أكثر؛ هدأ وقال: "إن المفتي مُحِقٌّ".

فَرَجَاهُ المفتي بأن يُرْجِعَ الموظَّفين إلى وظائفِهِم، ففعلَ السلطانُ.

لقد اشتهر السلطان سليم بِحُكْمِهِ العادلِ على أتباعِهِ أيًّا كان دينُهم، فَطُلِبَ عام (١٤٩٠م) مصادرةُ كنيسةِ "باماكراتيس" (جامع فتحية) بعد خلوّها من جماعَتِها وتحويلها إلى جامعٍ، وتسبَّبَ هذا الموضوعُ في نشوبِ نقاشٍ كبيرٍ في إسطنبول، وانتقلَتْ المسألةُ إلى عهدِ السلطان سليم، وكان السلطانُ قد دخلَ في صراع مع الصفويّين، وزادت الحساسيّةُ الدينيّة بين الدولةِ وبين الشعب أكثر، وقد قدَّم البطريرك "ثيولبتوس الأول" البراءةَ

التي تحمي الكنائسَ في عهدِ السلطان "محمد الفاتح"، وعمد إلى البحثِ عن حقوقِ أتباعِهِ، لكن هذه البراءة فُقِدَتْ لأنها تعرَّضت للحريق، وعليه لجأَ السلطانُ إلى شهادةِ ثلاثةٍ من الجنودِ الإنكشاريّة الذين حضروا فتحَ إسطنبول وكانوا لا يزالون على قيدِ الحياةِ، ومن ثم سلّم السلطان سليم إلى البطريرك براءةً جديدةً تُؤَيِّدُ حقوقَ النصارى، وحتى إنه عندما تكرَّرَتْ هذه القضيّةُ في عهد السلطان "سليمان القانوني" أظهرَ البطريركُ هذه البراءة.

ومن الملفت أن المصادر التاريخية المصريّة تصفُ السلطان سليمًا على أنه "بيبرسَ المعاصر -تشبيهًا له بالسلطان المملوكيّ الشهيرِ "الظاهر بيبرس" (ت: ٦٧٦هـ/١٢٧٧م)- أحيا نظامًا عادلًا في مصر، وافترضَت هذه المصادر التاريخيّة أنَّ القوَّة المملوكية القديمة قد تجسَّدَتْ في شخصيّة السلطان سليم.

قيادتُهُ العسكريّة

كان السلطان سليم قائدًا عسكريًّا من الطراز الرفيعِ، وكان يولي اهتمامًا باستعدادِ الجيش دائمًا لخوضِ الحروبِ، واستطاع تأسيسَ جيشٍ منضبطٍ بفضلِ مهاراتِ القادة الذين كان يختارُهم.

كان السلطان سليم من أكثرِ قادةِ الجيشِ سيطرةً على قوّاتِهِ في التاريخِ العثمانيّ، ولم يكن يسمح أبدًا بتدخُّلِ الجنودِ في أمورٍ تتعدَّى مهمَّتَهم الأصليّة، وقد أظهرَ ردُّ فعلِهِ الشديدِ إزاء التمرُّدات التي اندلَعت خلالَ غزوةِ إيران وعودَتِهِ منها خلالَ سنواته الأولى في الحكم أنه لا يَمْزَحُ أو يتهاونُ أبدًا.

لقد كان الجيش العثماني في عهد السلطان سليم من أنجح وأمهر وأقوى الجيوش في العالم، وكان السلطان ليس له منافس في ميادين القتال بفضل

تميزه من الناحية الجسدية وجياده الماهرة واستخدام جنوده الأسلحة النارية بطريقة متميزة، وقد رأى الجميع في عهد السلطان سليم أول نموذج لكيفية الاستخدام الناجح للبنادق في ساحات المعارك في تاريخ المعارك العالمي.

وكان السلطان سليم يستلهم ويستقي القواعدَ التي يضعُها من أحكامِ الدين وأوامرِهِ، ولم يكن يسمح بانتهاكِ الجيشِ محاذير الدين خلال الخروج في غزوة أو العودة منها، وفي أثناء العودة من معركة "جَالْدِيرَانْ" ظهرت مشكلةٌ في توفيرِ الطعام، فوصل السلطان خبرٌ يتحدَّثُ عن أن عددًا قليلًا من الجنود هاجموا القرى المجاورة ونهبوها، وحتى لا يكون قائدًا لجيشٍ يأكلُ الحرام؛ ولِحِفْظِ الانضباط والحيلولة دون الفوضى؛ أمرَ بالقبض على هؤلاء الجنود الذين فعلوا ذلك، وأصدرَ تعليماتِهِ الصارمة بإعدامِهِم أمام الجميع، كما عزلَ الصدرَ الأعظم "هرسك زادة أحمد باشا (*Hersekzâde Ahmed Paşa*)" والوزير الثاني "دوكاكين أوغلو أحمد باشا (*Dukakinoğlu Ahmed Paşa*)" -اللذَين حمَّلهما مسؤولية هذه الواقعة- من منصبيهما عن طريق إصدارِ أوامرَ بِهَدْمِ خيمتِهما فوق رأسيهما، وقد أعربَ السلطان عن غضبِهِ بإخبارهما بأنهما تصرَّفا بشكلٍ غير مدبَّرٍ وأنهما قصَّرا في السيطرة على الجنود وأن هذه الواقعة حدثت بسببِ سوءِ أخلاقِهِما.

لم يتعرض السلطان سليم إلى أي هزيمةٍ قطُّ في المعارك التي خاضها خلال تولّيهِ عرشَ السلطنةِ العثمانيّة، والمثيرُ في الأمرِ أن الهزيمةَ الوحيدة التي تعرَّضَ لها وقعت له من القوّات العثمانية في المعركة التي خاضَها ضدَّ والدِهِ عندما كان أميرًا، وحتى بعض المصادر التاريخيّة المصريّة تُشَبِّهُ السلطان سليمًا في البطولةِ بـ"الإسكندر المقدوني" وفي العدل بالحاكم الساساني الشهير "أنوشروان".

شغفُهُ بالأسطول

تعلَّمَ السلطان سليم أمورَ البحرِ بشكلٍ جيّدٍ جدًّا في "طِرَابْزُونْ"، وكان يمتلكُ معلومات غزيرةً بشأن الأسطول والسفن بشكل مختلفٍ عمَّنْ كان قبله وفي عصره من الأمراء، ولهذا السبب اهتمَّ كثيرًا بأمورِ البحار، وأرادَ تعزيزَ قوَّةِ الأسطولِ الذي وَرِثَهُ عن أبيه.

وتتناولُ المصادرُ التاريخيّةُ وتقاريرُ السفراء في عهد السلطان سليم تحضيرات السلطان الخاصّة بالأسطول، وقد تحدّث "لطفي باشا" عن الأهمية التي أولاها السلطان بأمور البحار عبر هذه الطرفة الخيالية:

> "في يوم قال المرحوم السلطان سليم إلى المرحوم "كمال باشا زادة": أريد بناء ثلاثمائة سفينة في الترسانة لتصطفَّ في الميناءِ من "جالطة" إلى "كاغد خانة"، ونيّتي فتحُ بلادِ الفرنجة.
>
> فردَّ قائلًا: أنتم محقّون في هذا؛ فأنتم تقيمون في مدينةٍ تطلُّ على البحرِ، وعندما لا يكون البحرُ آمنًا لا تأتي السفن، وإذا لم تأت السفن فلن تكون إسطنبول عامرةً...".

ويضيفُ "لطفي باشا" أن هذا الأمرَ لم يكن من نصيبِ السلطانِ سليم، وقد حدثَ في عهدِ ابنِهِ السلطان "سليمان القانوني"، وتظهر هذه المعلومات التاريخيّة الأهمّيّةَ التي كان السلطانُ سليم يوليها لِبناءِ ترسانةٍ وإنشاءِ أسطولٍ قويٍّ، وقد نقل المؤرخ "جلال زادة مصطفى" (ت: ٩٧٥هـ/١٥٦٧م) حديث السلطان سليم مع "بيري باشا"، وأظهر الأهمية التي كان يوليها السلطان بالأسطول على النحو التالي:

> "عُقِدَ اجتماعُ الديوانِ ذات يومٍ بينما كان السلطانُ في إسطنبول، ودخلَ المرحومُ "بيري باشا" واجتمعَ بالسلطانِ، فتحدَّثَ السلطان مُلتَفِتًا نحو "بيري باشا" قائلًا:

"كان يوجدُ أراض في دول الكفار، وكان بها مدارس كبيرة وأسوارٌ وحصونٌ محكمة وقلاعٌ عظيمة، وكان في بحارهم العديدُ من الجُزُرِ المعمورة، وكان سلاطين هذه الديار كفارًا على الدوام، فهل يليق بالكفّار أن يسيطروا على ديارٍ كهذه أو أن يحكمُوا في هذه الدنيا؟ أليست لديكم غيرةٌ على الإسلام؟! فأريد أن أرى ترتيباتكم حولَ هذا الأمر".

ففهم "بيري باشا" على الفورِ قصدَ السلطان من فتح هذا الموضوع، وأجابه:

"لو صدرت أوامركم نصنع ما بين خمسمائة إلى ستّمائة سفينة في أرضنا".

فسُرَّ السلطانُ بذلك، وقال: "لقد أصدرتُ أوامري، فلتبدؤوا على الفور".

وعليه أرسلَ مبعوثينَ إلى كلِّ مكان في الدولة العثمانية بهدفِ توفير المستلزمات الضرورية لهذهِ المهمّة، وكان المكانُ الذي يضمُّ الترسانات اليوم مليئًا بالقبورِ المتفرّقة في ذلك العصر.

وبدأ العملُ في اليوم نفسِهِ، فَنُقِلَتْ جثثُ الموتى التي كانت موجودةً في الأضرحةِ والقبور إلى أماكن أخرى، وحُفِرَ خندقٌ كبيرٌ ودُفِنَتْ به جميع العظام، ونُظِّفَ مكان الترسانة بشكلٍ جيّدٍ، ومرَّت ثلاثة أشهر، وجاء وُجَهاءُ البندقيّة معهم كتاب، وعندما وصل هذا الخبر إلى ممالكِ الكفَّارِ قالوا:

"إن السلطانَ سليمًا استولى على ديارِ العربِ والعجم، والآن حان الدورُ على ديارنا، لكن ليس لدينا القوة الكافية لمواجهته وقتالِهِ".

وقد اجتمع ثمانيةٌ من حُكّام الفرنجة المشهورين لكي يُعلِنوا تبعيَّتَهم للدولة العثمانية، وعيَّنوا رسلًا بالهدايا وخراج ثلاث سنوات...".

وبخلافِ ذلك يروي "مصطفى عالي" من مدينة "جَلِيبُولو (*Gelibolu*)" أنه بدأَت عملية إنشاء مراسي السفن في الترسانات وعددٍ كبيرٍ من أماكن التخزين اللازمةِ من أجل سحبِ السفن العائدةِ من الغزواتِ البحريّةِ وصيانتها فيها، ويشيرُ إلى أن هذا العمل انتهى في عهد السلطان القانوني، وقد أُنْشِئَت أَعْيُنُ الترسانات بشكلٍ يتشابَهُ مع مثيلاتها في بلاد الفرنجة، لكن إتمام هذه الأعين لتستوعب مِائَتَي سفينةٍ جرى في عهدِ السلطان سليمان.

ولعُهُ بالكتُبِ

كان السلطان سليم يُعْتَبَرُ من بينِ أكثرِ السلاطين العثمانيّين رفعةً من حيثُ مستوى التفكيرِ والثقافة، وكان يُحِبُّ كثيرًا العلماءَ والشعراءَ، وكان يُعمِلُ مبدأَ الشورى فيُشاورُ العلماءَ ورجالَ الدولة قبل اتّخاذِ القرارات السياسية، كما كان السلطان مولعًا بالقراءة، وقد أنهى قراءةَ جميع الكتب الموجودة في مكتبَتِهِ، وعاشَ حياتَهُ من خلال الغوص في الأفكار المختلفة حتى ساعات الليلِ المتأخِّرة، ولم ينمْ إلا لوقت قصير، وقد اهتم السلطانُ بشكلٍ خاصّ بالمكتبات في البلاد التي حلّ بها أو فتَحَها، وكان لديه شغف خاصّ بِكُتُبِ التاريخِ على وجهِ التحديدِ.

وبينما كان في مصر كلّف "كمال باشا زادة" بترجمة كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" لمؤلفهِ "أبي المحاسن بن تغري بردي" (ت: ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، وكان أكثر ما يقرأ من كتب التاريخ كتاب "تاريخ وصَّاف" الفارسي، وكان أكثر شيء يثير حنقَ السلطان فيما يتعلق بالكتب هو فقدانها.

ومن المعروف ما حدث بعدما فقد أحدَ الكتبِ خلال غزوِ مصر، إذ كان هناك أعراب وبدوٌ في الصحراء على طولِ طريقِ الجيشِ العثماني، ولم يكن هؤلاء قادرين على مهاجمةِ الجيشِ العثماني من الأمام، بل كانوا

يتحيَّنون الفُرَص للهجومِ على مؤخِّرةِ الجيشِ وسرقةِ البضائع والحيوانات.

وذات ليلةٍ بقيَ أحدُ الأحمال التي يوجد بها ملابس السلطان في الخلفِ، وقد نَهَبَها بدوٌ في الصحراءِ، وكان داخل هذا الحملِ صناديق تحوي كتبَ السلطان، وكانت في أحدِ هذه الصناديق نسخةٌ مكتوبةٌ بِخَطٍّ جميل من كتاب "تاريخ وصاف" الذي كان أكثر الكتب التي يُحِبُّها السلطان.

حَزِنَ السلطانُ كثيرًا لِسَرِقَةِ هذا الكتاب، وكلّفَ معلِّمُ السلطانِ "حلمي أفندي" أستاذَ القصرِ "شمسَ الدين أفندي" -الذي كان يكتب بطريقة سريعة- أن يكتبَ نسخةً جديدةً بخطٍّ جميلٍ من كتابِ "تاريخ وصاف"، ولم يتركْ "حلمي أفندي" هذا الأمر لِلصُّدفةِ، بل احتجزَ "شمس الدين أفندي" في غرفةٍ بالبيت الذي كان يقيمُ به في القاهرة، وطلبَ منه أن ينتهي من كتابة الكتاب خلال خمسة وعشرين يومًا وهي المهلة التي مَنَحَها السلطانُ لإنجازِ هذه المهمّة.

وكان السلطان سليم يُتْقِنُ اللغةَ الفارسية بشكلٍ كبير لدرجة أنه كان ينظمُ الشعرَ بها، وكان يجيدُ اللغةَ العربيّة واللهجةَ التركيّة التتاريّة، وقد طبع ديوانُ الشِّعْرِ الذي كَتَبَهُ السلطانُ باللغةِ الفارسيّة بعد قرون من وفاتِهِ، كما نظمَ الشعرَ بالتركيّة، وقد استخدمَ اسمًا مُستعارًا هو "سليمي (*Selîmî*)" في أشعاره، كما انتهَجَ ابنه "سليمان القانوني" نَهجَهُ فاستخدم اسمًا مستعارًا أيضًا في أشعارِهِ هو "مُحبّي (*Muhibbî*)".

لم يُعْجب السلطان سليم بالصورة التي رسمَها أحدُ مهرَةِ الرسامين لِجَدِّهِ السلطان "محمد الفاتح" وأخبرَ السلطانُ الرسامَ بأن الصورة لا تشبه جدَّهُ أبدًا، وكان بجانِبِهِ خلال تلك الواقعة أحدُ رجالِ والدِهِ المقرَّبين ويُدعى "آخي شلبي"، وكان شلبي يشتكي دائمًا من التصرُّفات غيرِ اللائقة التي كان

يقوم بها البعضُ في حضرة السلطان، ويقول إنه يعرف آداب الحديث جيّدًا، وفي تلك الأثناء جُلِبَتْ صورة إلى السلطان، فعبر السلطان عن رأيِهِ بشأن الصورة، والتفت إلى "آخي شلبي" وقال له:

"لقد عشتَ عصرَ المرحوم جدّي ورأيتَهُ".

ثم أعطاهُ الصورةَ، فلمَّا رآها شلبي قال على الفورِ:

"يا له من عملٍ أخرق!!".

فأُحْرِجَ الرَّسامُ، فالتفتَ السلطانُ إلى "حسن جان" وابتسمَ ولم يَقُلْ شيئًا، وبعدها سَرَدَ حديثًا متعلِّقًا بإبْرازِ عيوبِ الآخَرين، وأوضحَ أنه بالرَّغم من أنّ آخي شلبي معروفٌ بلطافَتِهِ إلا أنَّهُ تصرَّفَ بما يعيبُ به أصحابه عندما أبرزَ عيوبَ الآخرين، وقال:

"يتحدَّثُ في حقِّ الآخرين، ويعتقدُ في نفسه اللطافة، وقد أقدم على ارتكاب خطأين خلال ساعتين".

ويعتبر السلطان سليم من أكثر السلاطين الذين يشتهرون بالمناقب، وقد تحدث الناس عن بعض مناقبه حتى عندما كان على قيدِ الحياة، وقد ترك لابنه السلطان سليمان خزينة مليئة بالأموال وجيشًا قويًّا وأسطولًا كبيرًا ورجالَ دولةٍ من أفضَلِ الرجال وعلى أعلى المستويات، حتى ساعَدَهُ ذلك في النهوضِ بالدولةِ والوصول بها إلى أقوى مراحِلِها، وبالرغمِ من قِصَرِ فترةِ بقائِهِ في الحكمِ إلا أنَّه بقيَ يُذكَرُ حتى عقبَ قرون من وفاتِهِ رحمةُ الله عليه.

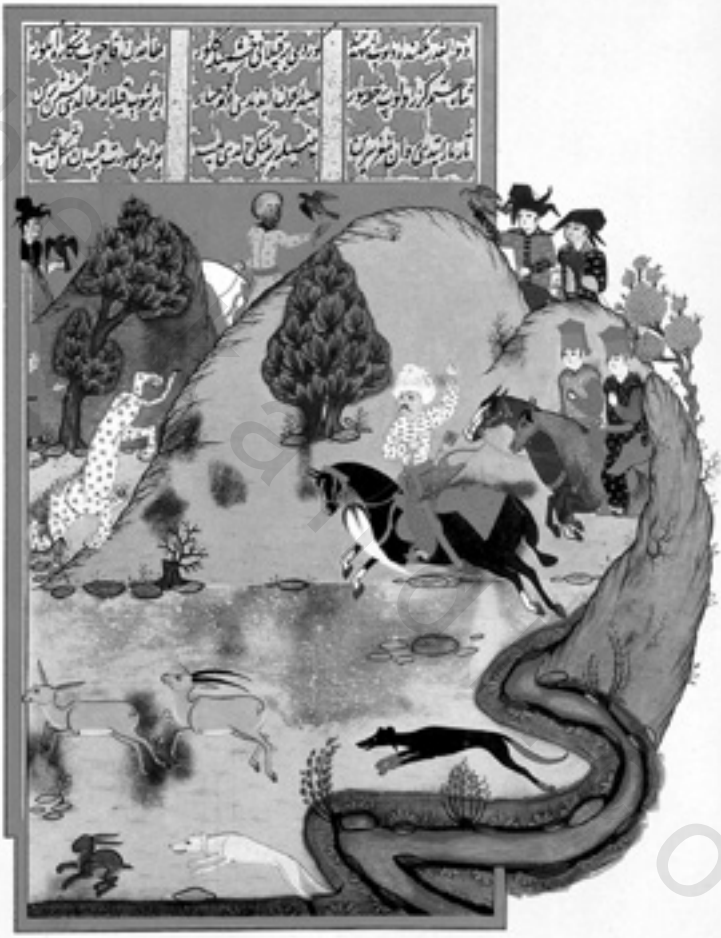

السلطان سليم الأول يصطاد نمرًا. (هُنَرْ نامه)

بعض المعلومات المغلوطة عن السلطان سليم

تشيرُ الكتبُ المؤلَّفَةُ نهايةَ القرنِ السادسِ عشر الميلادي والتي تتناولُ التاريخَ العثمانيَّ إلى أن عهدَ السلطان "سليم" شَهِدَ تحديدَ أربعين ألف شخص عَقِبَ حملةٍ موسَّعَةٍ من التفتيش، فأعدم جزء منهم فيما نفي الجزء الآخر.

وقد اتخذت هذه المعلومة شكلًا آخر في الفترة اللاحقة على ذلك التاريخ؛ إذ تحولت إلى أن السلطان سليم قتل أربعين ألف علويّ في الأناضول بعد حملةِ التفتيشِ المُشارِ إليها، ورُوِّجَ لِهذهِ المغالَطَةِ بهذا الشكل كي تُمنَحَ الفكرةُ قبولًا عامًّا، ومن الغريبِ جدًّا أنَّ هذه المعلومة التي لا يوجد مصدرٌ معتبرٌ يُؤَيِّدُها لا يناقِشُها أو يُثيرُها أحدٌ اليوم.

وقد أصبحت هذه المعلومةُ مقبولةً على أنها صحيحةٌ دون نِقاشٍ، وتحوَّلَتْ إلى حقيقةٍ واقعيّةٍ مقبولةٍ لدى الجميعِ في كُتُبِ التاريخِ التي أُلِّفَتْ في القرون اللاحقة، وقد حلّل المؤرِّخُ التركي المعاصرُ الأستاذ الدكتور "فريدون أمجان" المصادرَ التاريخيّة التي تَرِدُ بها هذه المعلومة من خلالِ دراسات أجراها، وأوضحَ كيفيّة ضرورةِ فهمِ هذه المسألة، وعدَّل هذا الاتّهام الخطير في حقّ السلطان سليم.

كما أنه من المثير للدهشة أن يُوجِّه البعض اتهامًا كهذا إلى السلطان سليم دون الحديث عن المجازر التي ارتكبها الشاه إسماعيل الصفوي في إيران وأذربيجان من أجل نشر آرائه الدينية.

obeikandl.com

بقي أن نقول إن الادعاء الذي يشير إلى أن السلطان سليم قتل أربعين ألفَ علويٍّ في الأناضول لم يردْ في المصادر التاريخيّة المؤلَّفَةِ في عهدِ السلطان نفسه.

وأما أوَّلُ كتابٍ يتناولُ ادِّعاء المذبحةِ ضدّ العلويين عن طريق تقديم بعض المعلومات المفصلة فهو الكتاب الذي ألَّفَهُ "إدريس بِدْلِيسِي" بعنوان "سليم شاه نامه".

وكان "إدريس بِدْلِيسِي" (ت: ٩٢٦هـ/١٥٢٠م) شخصًا قد تواجد كثيرًا بالقرب من السلطان سليم وتولى بجواره الكثير من المهام وقدَّمَ العديدَ من الخدمات في عهدِهِ، وكان قد ألَّفَ كتابًا تاريخيًّا يتناولُ التاريخَ العثمانيَّ باللغةِ الفارسيّة منحَهُ عنوان "هشت بهشت" (الجنان الثمانية)، ويتكوَّنُ من ثمانيةِ مجلَّدات ويتناولُ جزءًا من عهدِ السلطان "بايزيد الثاني"، وقد أضافَ إلى هذا الكتاب معلوماتٍ عن عهدِ السلطان سليم الأول، غير أنه عندما لم يكفِ عمرُهُ لإتمامِ العملِ؛ تحمَّل ابنه "أبو الفضل محمد شلبي" مهمَّةَ تبييضِ الكتابِ وتعديلِه، وقد عدّلَ أبو الفضل ملاحظاتِ والدِهِ وأضافَ إليها المعلومات التي وصلت إلى عهدِهِ، وأكملَ العملَ الذي أطلق عليه اسم "سليم شاه نامه".

ويرد في كتاب "سليم شاه نامه" أن السلطان سليم بينما كان يُجري استعداداتِهِ في "أَدِرْنَه" للخروجِ في غزوةِ "جَالْدِيرَانْ"؛ أرسل حكمًا إلى الإداريين في دولَتِهِ من أجل "استئصال شأفة طائفة قِزْلْبَاشْ"، وأنه أصدر أوامرَ كالتالي:

> "... ابحثوا عن كل من يتبع طائفة "قِزْلْبَاشْ" في كلِّ مكان دون انتظار وانظروا في شأنهم حتى جدهم الثالث وما إذا كانوا من

المريدين الذين يؤمنون بالشيوخ الصفويين الثلاثة (يقصد الشاه إسماعيل وأجداده)، فبمقتضى قول الله ﷻ ﴿**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ١٠٨/٢)؛ استحَقُّوا أن تُسْتَأْصَلَ شأفتُهم ويعاقَبوا بالتبديلِ، فلْتُقيّدوا وتُسَجّلوا كلَّ مَنْ ينتمي إلى هذه الطائفة من الذين يعيشون في مدن الأناضول وحتى الرحّالة منهم الذين يُسافرون ويعودون بين الفينةِ والأخرى...".

وقد ذكر الكتابُ أن عددًا كبيرًا من "قِزْلْبَاشْ" قُتِلُوا تنفيذًا لهذا الأمرِ من السلطان؛ إذ يعرضُ الكتابُ هذا الموضوع على هيئةِ أبياتٍ شعريّة، وقد أُضيفَت هذه المعلومات إلى كتاب "إدريس بِدْلِيسِي" من قِبَلِ ابنِهِ، كما تكرَّرَتْ هذه المعلومةُ في مؤلَّفات المؤرّخين "خواجه سعد الدين أفندي" و"جليبولو مصطفى علي" -بعدما قرآها وذكراها في مؤلَّفاتِهما وكأنّها معلومةٌ حقيقية- من خلال عباراتٍ مشابهةٍ، وقد اتَّخَذَتْ المؤلَّفاتُ التاريخيّةُ العثمانيّة التالية على هذا التاريخ هذه المعلومات على أنها أساسٌ وأضافت إليها بعض المبالَغات وتسبَّبَت في انتشار المعلومات المغلوطة، وقد انتقلَت هذه المعلومة إلينا من جانب من اعتَقَدُوا أن كلَّ معلومةٍ مدوَّنَةٍ في العهدِ العثمانيّ كانت حقيقةً مطلقةً لا يتسلَّلُ إليها الشكّ، ولذلك لم ينظروا بعين الريبة إلى المصادر التاريخيّة ولم يُقارنوا هذا المعلومات بالمصادر الأخرى.

ولا تتضمَّنُ الأرشيفات العثمانيّة أيَّ معلومةٍ تتعلَّقُ بالتفتيش الذي يدَّعيه "إدريس بِدْلِيسِي" في كتابِهِ؛ إذ أسنَدَ "إدريس بِدْلِيسِي" روايته إلى الدفاتر المقيّدة لهذا التفتيشِ في الأرشيفات العثمانية التي لا تحتوي -في الوقت نفسه- أيَّ معلومةٍ حولَ إعداد دفاتر بهذا الشكل أو إرسالها إلى العاصمة، هذا فضلًا عن أن المؤرّخين الذين عاصروا تلك الحقبةَ لا يُورِدُون أيَّ معلومةٍ في كُتُبِهِم تدعمُ هذا الطرحَ.

ويرى الأستاذ الدكتور "فريدون أمجان" أن مصدرَ هذه المعلومةَ الخاطِئَةَ في الغالبِ هو الأحكامُ المُرْسَلَةُ إلى المناطِقِ المختلِفة من أجلِ تحديدِ المنضمّين إلى المعركةِ مع شقيقِ السلطان "سليم الأول" الأمير "أحمد" وإلى ابنِ أخيه "مراد" الذي قيلَ إنه من طائفة "قِزْلْبَاشْ"، كما أنَّ أسماءَ أنصار الأمير أحمد وأبنائِه حُدِّدَتْ مطلع عام (١٥١٣م) وأرسلت إلى المركز (العاصمة)، وقد ذكر هنا أسماء من انضمَّ إلى الأمير أحمد -وكان من "قِزْلْبَاشْ" أو انضم إلى الأمير مراد وهو في الغالب من فرسان التيمار من نواحي "طوكات" و"نيكسار (*Niksar*)" و"جيديجرا (*Gedegra*)" و"كاواك (*Kavak*)" و"بفرا (*Bafra*)" و"سونيسا (*Sonisa*)" و"أَمَاسْيَا" و"جُورُومْ (*Çorum*)" و"لاديك (*Ladik*)" و"موشالي (*Muşali*)"، بخلاف ذلك لا نصادف أيَّ وثيقة تتعلق بهذا الأمر، وأما عددُ الأشخاص المُقيّدين في الدفتر من باقي شتى المناطِقِ المختَلِفَةِ فهم حوالي سبعين اسمًا.

ويكمُنُ وراءَ المبالَغَةِ في هذه المعلوماتِ الواردَةِ في المصادِرِ التي تحملُ تواريخَ متقدّمة جدًّا على هذا التاريخ ونقلِها الصراع "السياسي-الدينيّ" الذي كان قائمًا بين العثمانيين والصفويّين؛ -يكمن وراءه- مؤرِّخو القرنِ السادس عشر الميلادي من الذين أظهروا العقيدةَ السنّيّة بالكامل الذين يهدفون إلى إرهاب الطرف المقابل بشكلٍ من الأشكال.

ونصادفُ في بعضِ دفاترِ التحريرِ -التي تضمُّ تحديدَ عددِ السكّان الذي أُجْرِيَ في عهدِ السلطان "سليم الأول" من أجلِ جَنْيِ الضرائبِ قُبيلَ معركة "جَالْدِيرَانْ"- تسجيلاتٍ تتحدّثُ عن وجودِ بعضِ القرى في المناطق السهليّة في منطقة كـ"طِرَابْزُونْ" على سبيل المثال، وقد أُخليت هذه القُرى وانضمَّت إلى الشاه إسماعيل، حتى إنه توجد أوامر رسميّة تُفيدُ بأنه في حالةِ عودةِ سكّان المدن سالفة الذكر فإنهم سيُعفون من الضرائب وسيوفّر لهم أماكن للإقامة بها،

ولو كان لدى الإدارة العثمانية نيّة ارتكاب مجازر أو ما إلى ذلك لما كانت قد اعترفت بحقِّ الحياة لِسُكَّانِ تلك القرى.

وأرى أنه من المفيد أن نُذكِّرَ قرَّاءَنَا الكِرام بأن العقوبة المطبّقة على قادةِ حركاتِ التمرُّدِ في العهدِ العثمانيّ منذُ عصرِ السلطان "بايزيد الثاني" كانت النفي وليست الإعدام، ومن الواضح للعيان أن المعاقبة باستخدام العنف ضد الحكام الصفويين الذين قبض عليهم وهم يحملون خطابات الشاه إسماعيل وبعض شيوخ الطرق الصوفية وقادة التمردات الذين تواصلوا معهم في مختلف مناطق الأناضول كان ضرورة حتمية من أجل بقاء الدولة، وأما القول بأن هذه العملية قد تحولت إلى عملية "تنظيف ممنهج لطائفة "قِزْلْبَاشْ" فهو خطأٌ كبير جدًّا في ضوء المعلومات التي سردناها أعلاه، وأما تكرار الخطإ نفسه اليوم فهو وضعية صعب فهمها على الإطلاق.

obeikandl.com

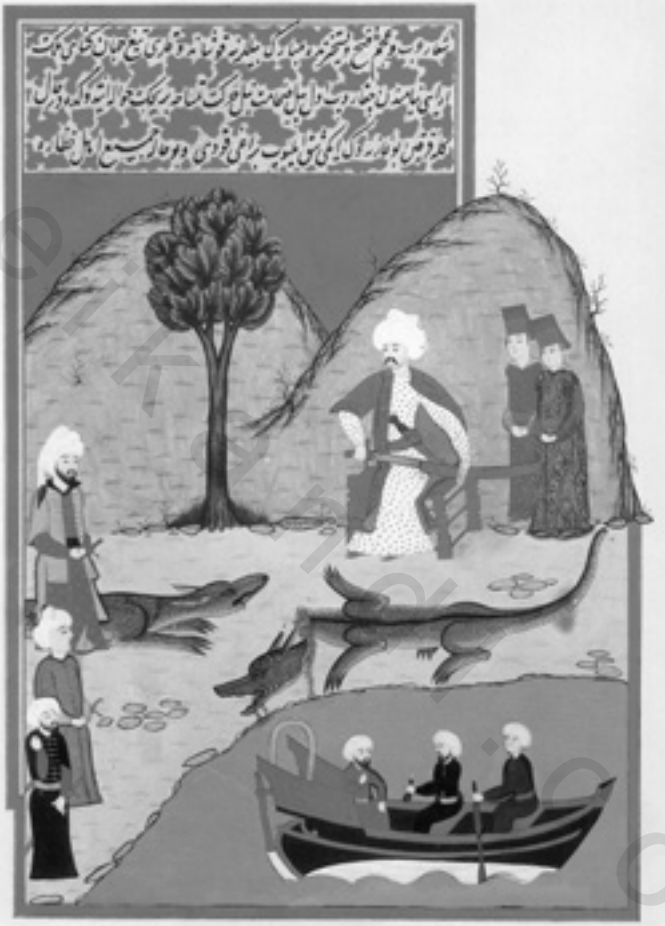

السلطان سليم الأول يقطع بسيفه رأس تمساح على شاطئ نهر النيل. (هُنَرْ نامه)

المصادر

فريدون أمجان، **السلطان ياووز سليم**، إسطنبول، (٢٠١٠م).

ـــــــــ، **السلاطين العثمانيون في عهد الإمبراطورية** (بايزيد الثاني-ياووز سليم-سليمان القانوني)، إسطنبول، (٢٠١١م).

ـــــــــ، **الفتح والقيامة** (١٤٥٣م)، إسطنبول، (٢٠١٢م).

خليل إينالجيك، **العصر الكلاسيكي للدولة العثمانية** (١٣٠٠-١٦٠٠م)، إسطنبول، (٢٠٠٣م).

خواجه سعد الدين أفندي، **تاج التراويح**، إعداد: عصمت بارماكسز أوغلو، أَنْقَرَه، (١٩٩٢م).

إسماعيل حقي أوزونتشارشيلي، **التاريخ العثماني**، جـ٢، أَنْقَرَه، (١٩٩٥م).

إسماعيل حامي دانيشمند، **الترتيب الزمني للتاريخ العثماني الموضح**، إسطنبول، (١٩٧١م).

نجدت سقا أوغلو، **سلاطين هذا المُلك**، إسطنبول، (٢٠٠٨م).

الموسوعة الإسلامية (*DİA*)، **مواد خادم الحرمين-المماليك-إسطنبول-العثمانيون-الخلافة-مكة المكرمة-المدينة المنورة-سليم الأول وسليمان الأول**.

أوليا شلبي، **مختارات من سياحة نامة**، إعداد: آتسز، إسطنبول، (١٩٩٠م).

obeikandl.com

فاورق سومير، **دور أتراك الأناضول في تأسيس الدولة الصفوية**، أَنْقَرَه، (١٩٧٦م).

تحسين أوز، **دائرة البردة النبوية والأمانات المقدسة**، أَنْقَرَه-(١٩٥٣م).

حسين أوزدمير، **الأسس الدينية للإدارة العثمانية: السيف والقلم والعلم**، إسطنبول، (٢٠٠٦م).

يوسف جَاغْلَارْ وصالح كولن، **المَحْمِل الشَّريف ورِحلتُه إلى الحَرمَين الشَّريفين**، دار النيل، القاهرة، (٢٠١٥م).

obeikandl.com

رواية
حُلمًا كان واقعًا صار

قصة مؤسس الدولة العثمانية

هل تريد أن تَشهد
ولادة الدولة العثمانية؟
أَو يتحقق الحُلم!

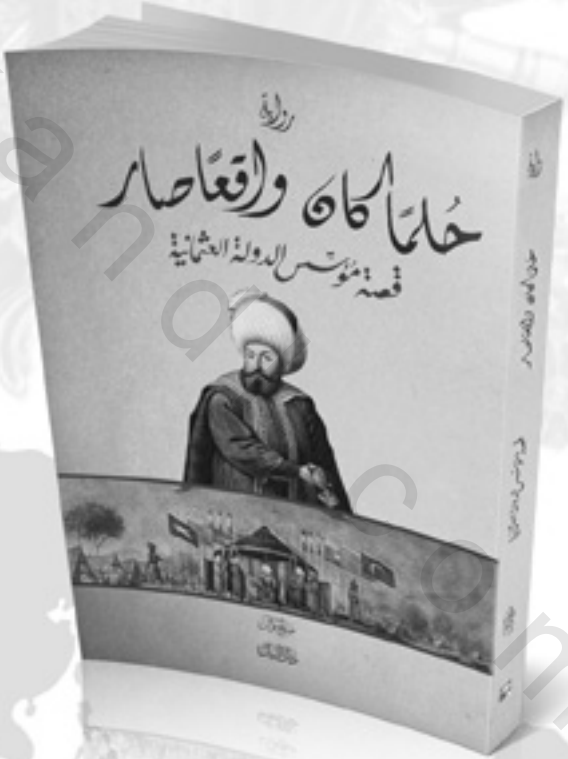

22 ب – حوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر
تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+
هاتف المحمول: 01023201002 2+
info@daralnile.com
www.daralnile.com

obeikandl.com

سلاطين الدولة العثمانية

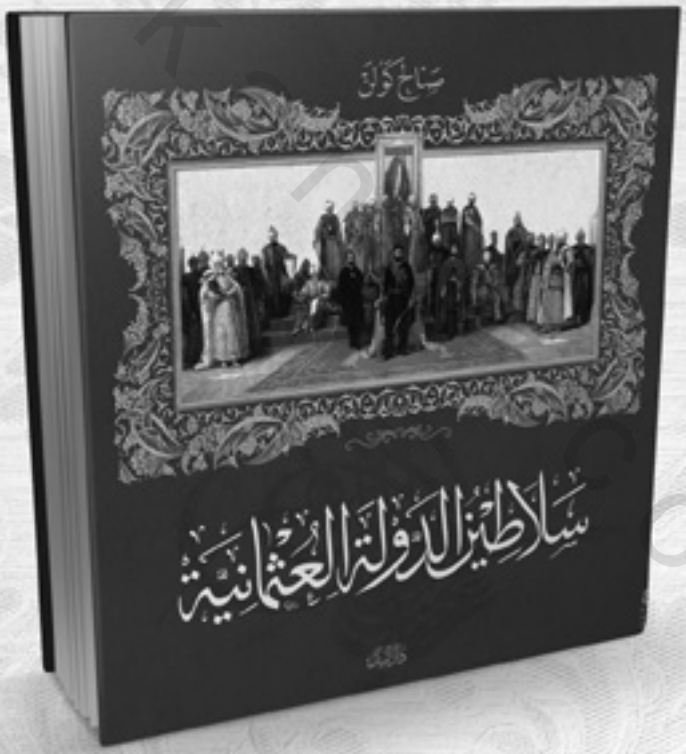

obeikandl.com

22 جـ – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+
الهاتف الجوال: 01023201002 2+
www.daralnile.com
info@daralnile.com

السُّلْطَان
مُحَمَّد الفَاتِح

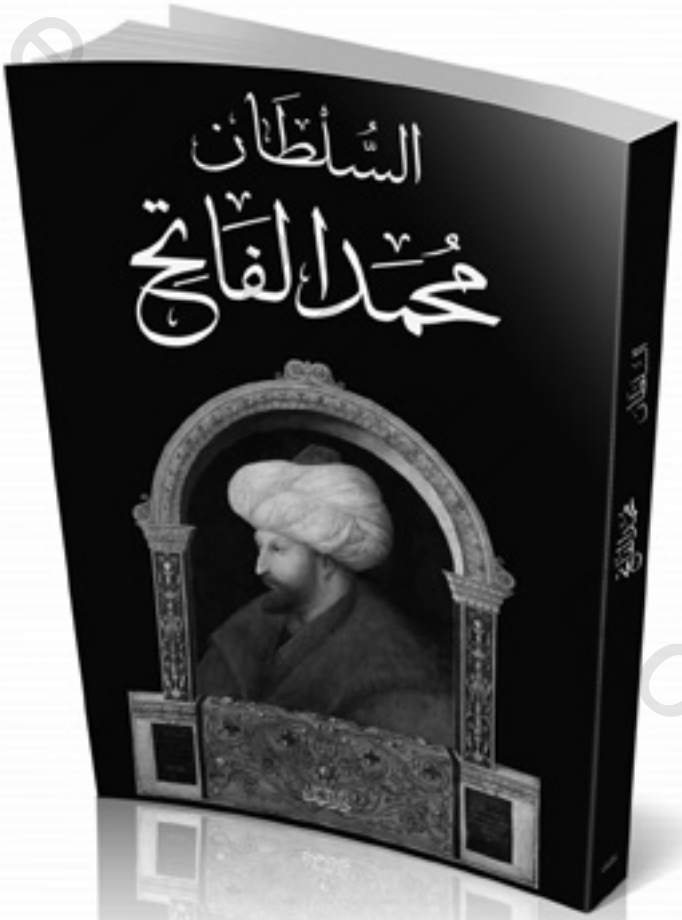

22 جـ – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+
الهاتف الجوال: 01023201002 2+
www.daralnile.com
info@daralnile.com

سليمان القانوني

22 جـ – جنوب الأكاديمية – شارع التسعين الشمالي – التجمع الخامس – القاهرة الجديدة – مصر

تليفون وفاكس: 391 379 25 02 2+
الهاتف الجوال: 01023201002 2+
www.daralnile.com
info@daralnile.com